Doc 811 - 13/01

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي
و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
قسم الثقافة الشعبية

سجل تحت رقم 1545
بتاريخ 02 جوان 2008
للرفع

الشّعر الملحون الصّوفي في شمال الغرب الجزائري
(1871 - 1954)

أطروحة جامعية مقدمة لنيل شهادة « دكتوراه دولة »

إعداد الطالب:
عبد الحق زريوح

إشراف الأستاذ الدكتور:
شايف عكاشة

السنة الجامعية 2000 - 2001م

الإهداء

إلى روحيْ والديّ الكريمين اللذين ربّياني صغيرا .

إلى الأمّ التي غمرتني بحنانها ، وأحاطتني بعطفها .

إلى رفيقة حياتي : زوجتي العزيزة .

إلى ولدي الأعــزّ : حمزة .

إلى جميع أحبــّتي وزملائي الذين شجّعوني على إخراج هذا العمل .

إلى كلّ باحث تجشــّم ، في بحثه ، المشاقّ والصّعاب .

إلى كلّ غيور على الثقافة الوطنية .

إلى هؤلاء جميعا وغيرهم .. أهدي هذا البحث المتواضع .

عبد الحق زريوح

المقدمة :

تعود صلتي بالشعر الملحون إلى نهاية الثمانينيات ، حين دخلت معهد الثقافة الشعبية لمواصلة دراستي الأولى لما بعد التدرج ، وتحديدا عندما سجّلت موضوعا ، في ذلك ، حول " الخصائص الفنية للشعر الشعبي عند المنداسي " .

ولم يكن من السهل لديّ أن أترك هذا المجال الرحب دون متابعة البحث فيه ، شعورا مني بالمسؤولية الملقاة على عاتقي . لذلك عقدت العزم ، بعد نظر ، على أن يكون موضوعي للدكتوراه هـــــــــو :

" الشعر الملحون الصوفي في شمال الغرب الجزائري (1871-1954) " .

وشمال الغرب الجزائري ، جغرافيا ، تحدّده مراكز الإشعاع الثقافيـــــــة التي كانت يومئذ . وهي ، على الخصوص ، تلمسان ، ومستغانم ، ووهران ، ومعسكر، وسيدي بلعبـــــــــاس إلخ ..

مع فرق ، بين هذه المدن وما جاورها ، يتجلّى في الإنتاج الثقافي ، وخاصة الشعر الديني منـــه .

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع أمور منها :

1. إحياء الشعر الشعبي بوصفه جزءا من مكوّنات الثقافة الشعبية .
2. استنطاق النصوص الشعبية للوقوف عند بعض الحقائق التاريخية بما فيها السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية ..
3. إعادة الاعتبار للشعر الملحون ؛ إذ لا يقلّ أهمية عن صنوه الفصيح ..

وبحثي ، كأي بحث ، لم يخلُ من عقبات اعترضت سبيله ، بين الفينة والأخرى . ولعل أولاها : قلّـة مصادر الدّرس ، وبخاصة مادّته الشعرية التي كلّـفتني الكثيـــر من الوقت والجهد للحصول عليها ، بسبب ندرتها ، كما ذكرت ، وضنّ مالكيها بها .

ورأيت أن يكون البحث في بابين مصدّرين بهذه المقدمة وبتمهيد : عالجت فيه تاريخ مرحلة الدراسة من 1871 إلى 1954 سياسيا واجتماعيا وثقافيا ودينيا .

أما الباب الأول فكان " دراسة في الشكل " ، وقد ضمّ فصلين اثنين : تناولت في الأول منهما ، " التشكيل اللغوي للمفردة " ، وقد صدّرته بكلمة عن اللغة ودورها الأساس في صوغ النص الشعري ، ثمّ تحدّثت عن أهمّ خصائص المفردة بصفتها العنصر المحوري في اللغة الشعرية ، انطلاقا من تشكيلها الصوتي ، وتشكيلها البنيوي ..

وبعد ذلك وقفت عند المفردة محاولا استكشاف طبيعتها من خلال أنماطها وصيغها المختلفة ..

وعالجت ، في الفصل الثاني ، " البُنَى التركيبية " ، وذلك برصد المقاييس الفنية ، والتقنيات اللسانية المستخدمة من قِبَل الشاعر لإنشاء تراكيبه .

وأما الباب الثاني فاختصّ بـ " دراسة في المضمون" : وقد شكّله فصلان اثنان أيضا، سبقهما مدخل إلى شعر التديّن والزّهد وبدايات الشّعر الصوفي عموما ، والشّعر الصّوفي الجزائري خصوصا ، بوصفه عروةً من عُرَى التصوف العربي الإسلامي ككلّ .

تناولت في الفصل الأول منهما ما أطلقت عليه اسم " المريديات " ؛ وهي منظومات تعليمية موجّهة ، بالأساس ، للمريد المبتدئ ، ولكل فرد يريد الانتماء إلى الطريقة الصّوفية أوّل مرة .

وتتضمن كثيرا من القواعد والآداب التي على المريد اتّباعها والتقيد بها ؛ من ذلك علاقته بإخوانه المريدين ، وشيخه الذي يمثّل له الأسوة الحسنة في السِّرِّ والعلن .

كما نجد فيها ، بين الحين والآخر ، ردّاً على منكِري التصوف وطرقه ومشائخه ، يصل ، أحيانا ، حدَّ الشتم والتجريح ..

وعالجت في الثاني ما أسميته " مدح الشيوخ " : ونقرأ فيه تنويها وتمجيدا ، بل وتقديسا لهم ؛ بوصفهم نماذج قمينة بالاتباع والتبجيل ..

وأشرت ، أثناء ذلك ، إلى ما يُسمّى " الإسناد الصوفي " : وهو عبارة عن السلسلة التي تربط حلقات الطريقة الصوفية ممثّلة في أقطابها المتواترين إلى الرسول (ص) نفسه ، بوصفه قطبَ الأقطاب ورأسَهم ، مع ملاحظة اختلاف طفيف في أسمائهم ومراتبهم .

وجدير بالملاحظة أني لم أحفل كثيرا بجوانب متداولة من التصوف كحديثي عن بعض الرموز الماثلة في شعرنا الصوفي مثل رمزي المرأة والخمر .

والسبب ، في ذلك ، هو أني لم أجد ما يفي بحاجة البحث في هذا الشأن . وعلى الرغم من ذلك أوعزت إليهما ، باقتضاب ، وفقا لما توافر لديّ من نصوص لم تصل إلى العمق الذي اعتدنا عليه عند القدماء . وليس بالضرورة أن يكون ذلك عجزا من شعراء الملحون ، ولكن هو ، على أغلب الظن، توجيهُ جهدٍ فنّي نحو موضوعات بعينها اقتضتها ظروف سياسية ودينية معينة .

بعد ذلك كله ، وصلت إلى الخاتمة التي حاولت أن أسجِّل فيها ، بإيجاز ، ما انتهيت إليه من نتائج عبر هذا البحث .

وأما المنهج الذي ارتضيته ، في هذا العمل ، فهو التحليلي القائم على التفسير والتعليق ، خاصّة في المضمون الذي تشكّله منظومات لا تعدو أن تكون اجترارا وتقليدا من شاعر لآخر ؛ ما جعلني أكتفي ، في تحليلها ، بنموذج واحد منها أو اثنين ، وأحيانا ثلاثة ، موازنا بين النموذج وغيره من النماذج إذا وجَدْتُ ، لذلك ، ضرورة .

وكنت قد استعنت ، في بيان الإطار التاريخي للبحث ، بالمنهج التاريخي الذي يقوم على العرض والتعليق للوصول إلى ضبط الحوادث بصورة موضوعية ، بعيدا عن الذاتية والحكم المسبق .

كما توسّلت ، في بيان شكل القصيدة ، بالمنهج اللساني ، من خلال أداة الإحصاء لحصر مميزات الظاهرة اللغوية ؛ يعضدني ، في ذلك ، الجداول والرسوم البيانية المرافقة لها ، للخروج ببعض النتائج التي تمثّل خصائص معينة ..

وقد اعتمدت ، في هذه الدراسة ، على جملة مصادر ومراجع ، لعلّ أهمهـــــا ، في المجال التاريخي ، : " الحركة الوطنية الجزائرية " لأبي القاسم سعـــــد الله ، و" ثورة 1871 " ، و" ثورات الجزائـر في القرنين التاسع عشر والعشرين " وكلاهما ليحيى بوعزيز ..

وممَّا رجعت إليه في التصوف ، : " حلية الأولياء .. " لأبي نُعيْم الأصفهاني ، و" صفة الصفوة " لابن الجوزي ، و" الطبقات الكبرى " للشعرانـــــي ..

أما المادة الشعرية التي تعاملت معها فمظانّها الدواوين والمجاميع الشعرية ؛ أمثال دواوين محمد بن يلس ، وقدور بن عاشور ، وأحمد بن عليوة ، وعدّة بن تونس ، وسوى هؤلاء ، .. ومجاميع : " الكنز المكنون " لقاضي محمد ، و" المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون " المُعَدّة والمقدّمَة من قِبل جلول يلس وأمقران الحفنـــــاوي ، و" الديوان المغرب .. " لصونيك (Sonneck)، وما إليهـــــا ..

وأما الدراسات الشعبية التي أفدت منها فمراجعها كثيرة منها :

" الشعر الديني الجزائري الحديث " لعبد الله ركيبي ، و" الأدب الشعبي العربي .. " لمحمود ذهني ، و " الشعر الشعبي العربي " لحسين نصار ، و" الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية .. " للعربي دحو ، و" الزجل العربي .. " لأبي بثينـــــة ،

و" الأدب العامي في مصر .. " لأحمد صادق الجمال ، وما إلى ذلك ..

بينما قرأت من المصادر و المراجع ، في اللغة والنقد ، : " الخصـــائص " لابن جنّي ، و " الأصوات اللغوية " لإبراهيم أنيس ، و" مدخل إلى علم الجمـــــال " لعبد المنعم تليمة ، و" الأسس الجمالية في النقد العربـــــــي " لعز الدين إسماعيل ، و" الأسلوبيـــة والأسلوب " لعبد السّلام المسدّي ، وغيرهـــا من المراجع الأجنبية والمترجمة مما هو مبثوث في ثنايا هذا البحث .

وبعد ، فلم يكن لهذا العمل أن يرى النّور لولا فضل الله عليَّ ومنّـته ، بأنْ قيّض لي أستاذا كريما هو الدكتور عكاشة شايف الذي لم يبخل عليّ بما أوتِيَهُ من علم . .

والله تعالى وحده هو الذي يُجازيه خيرا كثيرا .

كما لا يفوتني ، في هذا المقام ، أن أنوّهَ بكل الذين أمدّوني بيد العون للحصول على مصدر أو مرجع ؛ أذكر منهم أخي وزميلي الأستاذ شعيب مقنونيف الذي جعـــل مكتبته العامرة رهن إشارتي ، .. فلهم مني جميعا جزيل الشكر ، وعظيم العرفان ..

على أن هذه الثمرة هي جهد باحث أراد الكمال ولم يستطع ولن يستطيع . وصدق الشّاعر إذ يقـــــــــول :

لِكُـلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُـقْـصَانُ فَلاَ يُغَـرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَـانُ

وعزائي الوحيد قول النبي (ص) : " مَنِ اجْتَهَدَ وَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ " ، وحسبي أني اجتهدت . وسبحان من " لاَ تَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَـــــــوْمٌ " .

عبد الحق زريوح

تلمسان ، في : 2001/02/01

تمهيـــد حول :

تاريخ مرحلة الدِّراســـــة (1871-1954)

تعرَّضت الجزائر ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، إلى نكبات اقتصادية واجتماعية ، نتيجة لسياسة الاحتلال المطبّقة ؛ فالعمليات العسكرية التي شنّها الجيش الفرنسي على البلاد نتج عنها فقدان السكان << لاستقلالهم السياسي ، وتحطيم إنتاجهم الفلاحي والزراعي ، وتخريب صناعاتهم التقليدية ، والقضاء على أسواقهم التجارية وهلاك حيواناتهم >> [1] .

وما يعبِّر عن هذه الأحوال المتردية التي آلت إليها الجزائر ، ما تطالعنا به الشاعرة فاطمة الشريف [2] بقولها [3] :

يا مْحايْنِي[4] يا تَمْحَانِي ... أشْتَ[5] يَصْبَرْ وْيَنْسَى

لا تْقولْ كَلْمَه مَشْيَانَه ... لا تْعِيدْهَا يَا جَوْسَاسِي

يَا ظَالَمْ تْقِيلْ[6] بْلاَدْنَا ... خَيْرْ مَا يَسَّمْعُو نَاسِي

عَايْشِينْ عِيشَه لْغْبَانَه[7] ... سْوَاتْ[8] سَرْجْ وكْتَافْ لْفَرْسِي

---

1 يحيى بوعزيز : من مقاله " المجاعة بالجزائر أواخر عقد الستينيات من القرن 19 " ، مجلة الأصالة ، ع33 ، س5: ماي 1976 ، ص ص7، 8 .

2 ويُقال لها الحاجّة الهدّية من قبيلة أولاد أحمد من منطقة " غريس " . توفيت في نهاية القرن 19 .
(انظر: أحمد السلاتي ، من مداخلته " أعلام شعر المقاومة الشعبية " ، مطبوعات المهرجان الوطني الأول للأغنية البدوية ، مستغانم 1975 ، ص25)

3 المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : إعداد وتقديم جلول يلس وأمقران الحفناوي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر: 75/421 ، ص98 .

4 مِحَني : والعبارة تستخدم عند الشّعور بالغبن .

5 أي شيء ؟

6 تترك ، تغادر ..

7 الغبن .

8 قُدِّرت بثمن .

غَازْ [1] مَا يْجِي فِي بَسْتَانَه أَشْتَ يْجِيبَهْ لْسَلْسِـــــــي [2]

وما يخبرنا به الشاعر محمد بلخير [3] بقولـــــــه [4] :

غَابْ عْلِينَا الْحَقّْ رَانَا مَا ثْمَّاشْ [5] والبَاطَلْ غَابْتُوا عَانُه شْهُـــــودْ

تَاهْ عْلِيهْ وْعَادْ بَجْنُودْ جَيَّـــاشْ والحَقّْ انْذَلّْ مَا جْبَرْ [6] طَاقَه عنْدْ

الطَّيْرَ الْحُرّْ رَاهْ مَقْبُوضْ بَكْمَاشْ وَلْدَ الْهَامَه [7] اوْعَارْ وَلَّى مَنْ ضَدّْ

وَلْدَ الْغْرَابْ رَاهْ رْقَابْ اسْرَاشْ [8] وَالطَّيْرَ الْحُرّْ قَاعْ [9] بْطَلْ مَنْ صَيْدْ

---

[1] زهر عديم الرائحة .

[2] نوع من الزّهر الطيّب .

[3] ارتبط اسمه بالشعر والمقاومة الشعبيين . وُلد حوالي 1835 من قبيلة " رْزيقات " ناحية البيض .
أقرّ فيه ابن باديس العروبة في اللسان ، والرفق في الشعر ، والنموذج في الكفاح .. توفي عام 1905 .
(انظر: - صونيك (Sonneck) ، الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب ،
موفم للنشر 1994 ، ص392 . - د. بوعلام بسّايح : من مقاله " الشاعر محمد بلخير " ،
مجلة الثقافة ، ع92 ، س11: مارس/أفريل 1986 ، ص ص07-18)

[4] المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : ص110 .

[5] لسنا بخير .

[6] لم يجد .

[7] صغير البومة .

[8] شجاع شرس .

[9] عامية ؛ وتعني كلّ .

وما يحدّثنا عنه، بمرارة ، الشاعر عبد القادر بن أحمد المجّاجي [1] بقولـــــه [2] :

المَسْلَمْ مَسْكِينْ مَا طَاقْ يْعَانَـــــــدْ وَارْوَاحْ تْشُوفْ مَا طْرَا [3] فِي ذَا الزْمَـــــانْ

فَزْعَتْ النَّاسْ كُلْ وَاحَدْ وِينْ [4] شَـارَدْ وَعْمَرْ سُوقَ الْفَسَادْ مَنْ كَثْرَ الطُّغْيَـــــانْ

حُكْمَ الْغَالَبْ جَا يْخَرَّبْ وَيْفَسَّـــــدْ لَنْ يَرْجَعَ الشْجِيعْ فَالأُمَّه نَدْمَـــــــانْ

ومما زاد في بؤس السكان وعذابهم ظهور الكوارث الطبيعية والاقتصادية ، أواخر الستينيات ؛ كانتشار الجراد ، والجفاف ، والأوبئة [5] مثل الكوليـــــــرا في خريف 1866م ، والطاعون والحمى في ربيع 1867م [6] .

فهاهو الشاعر فقّاف محمّد بن الدّولة [7] يتحدّث ، عن ذلك ، بقولـــــه [8] :

---

[1] من منطقة غليزان : شاعر سياسي مكثر، بيد أن أشعاره لا تزال مخطوطة . توفي في أواخر القرن 19 .

(C.F., Delphin et L.Guin. Notes sur la poésie et la musique arabes dans le Maghreb algérien . Paris , Leroux ,1886 , pp.32 ,33 .)

[2] المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : ص102 .

[3] طرأ .

[4] أين .

[5] انظر : " المجاعة بالجزائر .. " ، ص08 .

[6] انظر : إيف لاكوست ، .. الجزائر بين الماضي والحاضر ، تعريب : رابح اسطمبولي ، .. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1984 ، ص342 .

عن هذه النكبات ، يُنظر : يحيى بوعزيز ، ثورة 1871 . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ت. ، ص ص83-92 .

[7] من نواحي الأغواط . توفي في العقد الأول من القرن 20 . أغلب شعره سياسي ..

(انظر: من مداخلة " أعلام شعر المقاومة الشعبية " ، ص28)

[8] المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : ص81 .

دُرْكْ [1] الْخلْقَة تْمُوتْ بَالسَّعْلَه وَالسَّـــلْ وَادَ النَّغْرَه وَالقَرْعْ بَسْقَامُه طَالْ

وَالكَرُّوسَه [2] مْنَ السْبِيطَــارْ [3] تَتْقَـــلْ لا يَبْرَى مَنْ طُبْهُمْ وَاحَدْ مُحَـالْ

وكان من أسباب القحط والجفاف ، قلة سقوط الأمطار ، خاصة أعـــــوام : 1867، 1868، 1869، حتى صار مثل هذه السنوات العجاف علامة للتأريخ فيُقال : " عام الشّـــــــــــرّ " [4] .

وقد استغل اليهود مجاعة عامي 1868 ، 1869 م استغلالا كبيرا << لتنمية ثرواتهم وأرباحهم عن طريق القروض التي كانوا يقدّمونها للمنكوبين بفوائد وأرباح عالية تتراوح بين أربعين ومائة في المائة لمدّة شهرين أو ثلاثة فقط من العام ، مما جعل الكثيرين من الجزائريين يفقدون ، في نهاية الأمر ، أملاكهم ويتحولون إلى عمال بالخماسة >> [5] .

بينما لا يستبعد أحد الباحثين [6] أن تكون هذه المشاكل سببـاً في ثورة 1871 التي سنتحدث عنها بشيء من التفصيل ؛ بوصفها منعرجا خطيرا في المقاومـــــة

---

[1] الآن .

[2] المقصود بها سيارة الإسعاف .

[3] المستشفى .

[4] الجزائر بين الماضي والحاضر : ص340 .

[5] " المجاعة بالجزائر .. " : ص12 .

[6] انظر : الجزائر بين الماضي والحاضر ، ص344 .

على أن باحثة أخرى ترى أن سبب هذه الثورة يعود إلى التصرفات التبشيرية التي هددت ديانة الشعب .

(انظر : خديجة بقطاش ، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871 .

مطبعة دحلب ، الجزائر 92/02 ، ص ص151 ، 152 .)

لمزيد من التفاصيل عن ثورة 1871 ، يُنظر : بسام العسلي ، محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية .

دار النفائس ، ط2: 1983 ، ص ص119-143.

الجزائرية المسلحة من ناحية ، وبداية للإطار التاريخي لهذا البحـــــث من ناحية أخـــــــرى .

لقد شكّلت هذه الثورة المعلنة من قِبَل المقراني والحدّاد خطرا شديدا على وجود الاحتلال الفرنسي ؛ ذلك أنها كانت شبه شاملة ، لالتفاف خلق كثير حولها .

ولم يستطع الفرنسيون إخفاء خطورتها خصوصاً أن فتيلها اشتعل في الوقت الذي كانوا يقاسون فيه مرارة الهزائم على أيدي البروسيين الألمان [1] .

والحق إن هذه الثورة من أشد الثورات وأعظمها بعد ثورة الأمير عبد القادر[2] ، وقبل ثورة التحرير لعام 1954م .

وقد دارت رحاها في الجزائر الشرقية والوسطى . ومن أخص ميادينها وأظهرها حوض وادي الصومام ، وجبال البيبان ، والبابور ، وجرجرة ، والحضنة ، والوادي الكبير ، والأوراس [3] ، وبعض الواحات الجنوبية الشرقية نحو ورقلة ، وتقرت ، ومتليلـــــــــــــي ، .. [4]

---

[1] انظر : إيف لاكوست ، المرجع السابق ، ص316 .

[2] عن كفاح الأمير عبد القادر ، يُنظر :

- د. يحيى بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين . دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة ، ط1: 1980 ، ص ص15-34 .

- محمد الطيب العلوي ، مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954 . نشر دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة 1985 ، ص ص33-47 .

3 C.F., L. Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie (Alger1891) , pp.1-3 .

4C.F., L.Rinn : Les grands tournants de l'histoire de l'Algérie (Alger1902) , p.25.

ويبدو أن هدوء الغرب ، خلال ثورة 1871م ، لا يعني أن سكانه لم يتعاطفوا مع إخوانهم في الشرق والوسط . وآية ذلك هو انضمام بعض زعماء ثورة أولاد سيدي الشيخ ، ومنهم " سي الزبير " إلى ثوار 1871م [1] .

بل إن هذا التعاطف بلغ واحدا من أبناء هذا الوطن هو محيي الدين بن الأمير عبد القادر الذي كان منفيا في سورية ؛ فإنه كان شديد التَّوق للعودة إلى النضال من أجـــل تحرير بلاده من ربقة المحتلّ [2] .

غير أن هناك أمراً يجب تسجيله وهو موقف الأمير عبد القادر من حركة ابنه محيي الدين التي أرادها لضرب فرنسا مع عدد من الإخوان ..

فبينما كان محيي الدين ينشط في منطقة الحدود ، اتصلت الأوساط الحكومية الفرنسية بالقائم بأعمال قنصليتها في دمشق ليطلب إلى الأمير إعلان استنكاره وسخطه ضدّ نشاط ابنـــــه .

ونحن نشكّ في رسائل الاستنكار التي بعث بها الأمير إلى عدد من الأطراف ؛ لأن المصادر الفرنسية هي التي عزتها إليه . وقد جاء فيها تقبيح لعمل الابن ؛ ومنها :

- رسالة إلى أعضاء حكومة " تور " (Tours) ببوردو (Bordeaux) ؛ استنكر فيها الأمير عبد القادر استغلال اسمه لإثارة سكان الصحراء [3] .
- وأخرى إلى القائم بأعمال القنصلية الفرنسية بدمشق ؛ جاء فيها << بأن عدوَّ الله وعدوِّي ، وعدوَّ نفسِه ، المجنون محيي الدين ، وصل إلى الحـــــــدود بين حكومة تونس وحكومة الجزائر ... ليتحقق الناس أنني بريء منـــــــه

1C.F. : Bardon Xavier , Histoire nationale de l 'Algérie . Paris 1886 ,p299.

[2] انظر : عادل الصلح ، سطور من رسالة ، دار العلم للملايين ، بيروت 1966م ، ص23 .

[3] جريدة " المبشر " ، ع736 : 1871/02/02 .

ومن فعلـــــــــــه >> [1] .

- وثالثة في شكل نداء لسكان الجزائر ، يحذّرهم فيها من مغبَّة ابنه الذي نعته بالشقيِّ هو ومن كان معه ، وصرّح أنه سيتبرّأ منه إذا رفض مطلبه [2] .

ومهما كانت أسباب موقف الأمير عبد القادر من ابنه محيي الدين ، فإن أبرزها ، فيما نعلم ، << الموقف السلبي لسكان شرق الجزائر تجاه ثورته في بداية الاحتـــلال ، وبخاصة عائلة المقراني التي ساعدت الفرنسيين على اختراق مضيق البيبان الذي أدَّى إلى نقض معاهدة تافنة بينه وبين الفرنسيين عام 1839 >> [3] .

وثمة ملاحظة جديرة بالذكر ، في ثورة 1871م ، وهي أن شرذمة قليلـــة من أعيان سكان الغرب ، من الذين كان المحتلّ يستعملهم في تضليل الرأي العام ؛ وقد كانوا نوابا في المجلس العام للإيالة الوهرانية من قبل الإدارة الاستعماريـــة ؛ تطوع أربعة منهم ، وهم : باشاغا فرندة أحمد ولد القاضي عن منطقة معسكر ، وخليفة الشلف محمد بن عبد الله بن والي عن منطقة مستغانم ، وآغا أولاد رياح حامد بن حامد عن منطقة تلمسان ، وآغا بني عامر عبد القادر ولد الزين عن منطقة بلعبـــــاس ، << تطوَّعوا لتسفيه ثوار 1871 الذين نعتوهم " بضعفة العقول " . وليس ذلك غريبا بالنسبة إليهم كأشخاص لأنهم عُيِّنوا في ذلك المجلس ليؤدوا نفس الدور وما شابهه ،

---

[1] المرجع السابق : ع754 : 1871/06/08 .

[2] نفســـــــــه .

3 يحيى بوعزيز : من مقاله " وثائق جديدة عن محيي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 وعن موقف أبيه والسلطات التونسية " مجلة الأصالة ،ع38 ، س5: أكتوبر 1976 ، ص32 .

يمكن ، في هذا المعنى ، مطالعة إحدى رسائل الأمير عبد القادر إلى الباب العالي ، تعبيرا منه عن أسفه لمواقف الزعماء المسلمين الذين خذلوه لصالح الفرنسيين ؛

في : " بحوث ووثائق في التاريخ المغربي : 1816-1871" للدكتور عبد الجليل التميمي . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2: 1985 ، ص51 .

ولكن الغريب أن يصدر منهم ذلك كممثلين ، حسب ادّعائهم ، لشعب الغرب الوهراني الذي يبرأ منهم ومن تمثيلهم المزيف له >> [1] .

وسواء نصر أولئك ثورة 1871 أم خذلها هؤلاء ، فإنها اتخذت << طابعا دينيا وطنيا >> [2] ؛ لأن الجزائريين حينما أخذوا ، على أنفسهم ، عهدا بمقاومة المحتلّ ، إنما صدروا عن عاطفة دينية مصدرها الإسلام .

بينما يعزو بعض المؤرخين الفرنسيين [3] ذلك ، ليس للوطنية التي كان الشعب متحليا بها ، ولا للتصدي للحكم الأجنبي ، بل إلى التعصب الديني [4] ، وهي نغمة كثيرة التردد لدى جلّ المؤرخين الأجانب ؛ لأنهم << كانوا أصوات السلطة العسكرية في الفترة من 1830 إلى 1871 و " أسواط " الإدارة خلال الفترة المدنية الممتدّة من 1871-1954 >> [5] .

---

1 يحيى بوعزيز : من مقاله " موقف وجهاء الإيالة الوهرانية من ثورة المقراني والحداد عام 1871 " ، مجلة الأصالة ، ع30/29 ، س05: جانفي-فيفري1976 ، ص45 .
يُراجع نص رسالة وجهاء الإيالة الوهرانية إلى أعضاء حكومة " تور " حول موقفهم من ثورة 1871 ، وسوء معاملتهم داخل المجلس العام في : العدد نفسه من المجلة نفسها ، ص ص46-48 .

2 خديجة بقطاش : الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر : 1830-1871 ، ص152 .

3 أمثال : - شارل روبير آجيرون في كتابه " تاريخ الجزائر المعاصرة " (1830-1976) ، ترجمة : عيسى عصفور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط02: 1982، ص ص73-78 .

- L.Rinn., dans son livre : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie , jourdan, 1891 .
- Martin (C) : Histoire de l'algérie Frannçaise 1830-1962 , Paris , 1963 .

4 انظر : د. أبو القاسم سعد الله ، من مقاله " منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر " مجلة الأصالة ، ع15/14 ، س3 : ماي – جوان – جويلية – أوت 1973 ، ص16 .

5 نفسه : ص20 .

وقد تحدَّث الشعر الملحون عن هذه الثورة مؤرخا ومشيدا ؛ من ذلك ما يطالعنا به ، من أبيات ، شاعر مجهول ، في قولـــــه [1] :

خُذْ نَعْطِيكَ اخْبَارَ ابْطَالْ ذَا الرْعِيَـــه مْسَطْـرَه مَتْمُومَه تَارِيخْهَا مْقَـيَّـدْ
أَثْنَاءَ الْحَرْبَ السَّبْعِينْ تْنَافْرُوا الْخَزْيَه الاَلْمَانْ تْـقَـوَّى وَالرُّومِي [2] تْتَكَّـدْ
تْوَحَّدْتَ صْفُوفَ الْعُرْبَانْ هَيَّا يَا خُويَا وَقْفَتْ الاَبْطَالْ الزِّينِينْ سُورْ وَاحَـدْ
الاَخْوَانْ تْوَجَّهْ فَالنَّاسْ لَلْقْضِيَـــــه لْوَاشْ قَالَ الْغُبْرِينِي [3] زَايْدُه تْأَكَّـــدْ
الْكْبَارَ اجْتَمْعُوا لَلرَّايْ فِي عْشِيَـــه مْعَ عْزِيزَ الشَّيْخَ الْحَدَّادْ فَالْمْسَاجَـدْ
الاَبْطَالَ الْحُرَّه لَعْهُودْهَا تْجَـــدَّدْ

قَالَ عْزِيزَ الْحَـــــــــــدَّادْ يَاالْكْرَامْ لاَجْـــــــــوَادْ
مْنَ الظُّلْـــــمْ وَمْنَ الْفْسَـــــادْ شَعْبْنَا نقْـــــــــــذُوهْ
الْمُقْرَانِي بَسْلاَحْ عَوَّلْ عْلَى الْكْفَـاحْ
قَامْ وْدَارَ الْبَرَّاحْ يَا اهْلِي الْمُوتْ خِيرْ

وما يؤكّده الشيخ الشلالي [4] حولها من حيث روحها الديني بقولـــــه [5] :

بَسْمَ الله الْحَيَّ الدَّايَـمْ هِيَ مَفْتَاحَ الْجَـــــلاَلَـه
صَلَّى اللهْ عْلَى بَلْقَاسَمْ الْمْزَمَّلْ سِيدَ الرُّسْلَـــــــه
صَاحْبَ اللِّوَا وَالْخَاتَمْ الْهَاشْمِي بَنْ عَبْـــدَ اللهْ

---

[1] المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : ص ص70 ، 71 .

[2] المقصود بالرومي هنا هو الفرنسي .

[3] هو المقراني .

[4] يغلب على شعره الطابع الديني . توفي نهاية القرن 19 .
(انظر : من مداخلة " أعلام شعر المقاومة " ، ص31)

[5] المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : ص ص74 ، 75 .

صَلَّى اللهْ عْلِيهْ وْسَلَّمْ قَدَّ [1] عْشَبْ وَنْجُومْ وْرَمْلَـه

نَحْكِي لَكْ قَصَّه وَاسْتَخْبَـــــرْ مَا عَمْلَتْ ذَرِّيَةْ حَيْـــــدَرْ

طَوَّاعِينَ الْقَوْمَ الْكَافَـــــرْ فَالْخَزْيَا عَمْلُوا مَقَّتْـلَـه

يُومَ انْ جَا طَاغِي يَتْجَبَّـــرْ بَعْسَاكَرْ حَقْدَانَ اغْلَالَـــه

صَاحَ الشَّيْخَ عْزِيزَ يَكْبَّـــرْ هَذَا فَرْضَ صْحِيحَ مْقَـــدَّرْ

لَا مَنْ يَمْحِيهَا الْمْسَطَّـــــرْ نْمُوتُوا وْلَا ذَا الذَّلَّـــــه

وما يقوله شاعر [2] وقّـع اسمه ب: " علي بن .. " في قصيدة تصور مأساة ثوار 1871 ، وهم في معتقلهم ، بكاليدونيا الجديدة ، :

يَا حْمَامَ الْقْصُورْ رَانِي مْبَاصِـــــي [3] بَالزُّورْ

مْنَ الْحُكْمَ الْمَذْعُورْ الَامْحَانْ جَاتَ قْوِيَـه

يَا حْمَامَ الْقْصُـــورْ السَّـــاعَه الْفَلْكَ يْـدُورْ

ذَا الْجِيلْ مَغْرُورْ وَافْعَالُـــه دُونِيَـــــه

وَعْلَاشْ يَا الْحُكَّامَ الْمَحْبُوسْ عَنْدْكُمْ يَنْضَامْ

الَابْدَ خَدَّام وَيْمُوتْ بْلَا دِيَـــــــــه

إلى أن يقـــــول :

نْبَاتْ سَهْرَان تَّبْكِي الدَّمْعْ وِيـــــــدَانْ

وَالْقَلْبْ فَتَّانْ يُغْدَا وْيَرْجَعْ لِيَـــــــا

---

[1] بعدد.

[2] صونيك : الديوان المغرب : ص ص139-143 .

[3] محكوم عليه بالسجن .

الْمَحْبُوسْ شَايَبْ وَالقَارْدِيَانْ [1] فِيهَ يْعَـذَّبْ

الْخَدْمَه وَالضَّرْبْ وَيْبَاتْ فَالْحَدِيدَ عْشِيَه

الْمَحْبُوسْ حَيْرَانْ يَبْكِي الدَّمْعْ وِيـــــدَانْ

يَخْدَمْ عُرْيَانْ الشَّرّْ وَالْمِزْرِيـــــــــا [2]

رَبِّي شَاهَدْ لاَ نَاقَصْ لاَ زَايَـــــــــدْ

كِمَا شَفْتَ انَا نْعَاوَدْ [3] مَا طْرَى [4] فَالدَّنْيَـا

وبفشل ثورة 1871م ، وقد كانت نهاية للمدّ الثوري بمفهومه الحقيقي ، << بدأت مرحلة في حياة الشعب تتميز بالسكون نسبيا ، ولكن هذا السكون لم يكن ليجعل الشعر يتوقف ، وإنما اتجه إلى الدين وإلى التصوف ، مدحا للرسول (ص) أو تغزلا في الذات الإلهية ، أو ركونا إلى الدين في شتى موضوعاته >> [5] .

ومن ضمن الممارسات الاستعمارية ذيوعا وخطرا ، ما قامت به فرنســـــــا من تبشير، بدأت حركته ، أساسا ، بتسلّل المسيحيين داخل الأوساط الشعبية ، يبثّـون فيها أخلاقهم ، وينشرون لغتهم ، ويعرِّفون بمبادئ معرفتهم العامة [6] .

وقد سلك المبشرون طريقا طريفا وذكيا تجاه المبشَّرين ، مؤدَّاه رفع معنوياتهم ، لجعلهم أكثر استعدادا وتقبُّلا لأفكار الغير ؛ فها هو الأسقف " بافي " (Pavy) ، ثانـــي

---

[1] فرنسية وتعني الحارس .

[2] فرنسية وتعني البؤس .

[3] نحكي .

[4] ما طرأ ؛ أي ما حدث .

[5] د. عبد الله ركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط01: 1981 ، ص07

6 C.F. , Léon Roche : Trente deux ans à travers l'Islam , tII , Paris , 1887 , p.306,307.

أساقفة الجزائر ، يدعو الجزائريين إلى تعليم اللغة العربية ويقرُّها ، في حين كانت السلطة الفرنسية قد أغلقت المدارس والكتاتيب في وجوه المتعلمين ، وضيَّقت المجـــال على العربيـــــــة [1] .

ومن هنا رأى المبشرون أن التعليم ، وتشييد المستشفيات والملاجئ ، وإعانة المعوزين ، هو أنجع الوسائل لكسب قلوب الناس وتهييئها لاعتناق المسيحية .

ولذلك ألحَّ الكاردينال " لافيجري " (Lavigerie) (1825-1892) على هذا الاتجاه ، ورأى أن الإحسان واللطف والإخلاص والعدالة ، وهي الخلال التي دعت إليها العقيدة المسيحية وفرضتها ، هي القادرة على بلوغ الأهداف ، دون استعمال للسيف ، كما حدث أول مرة [2] .

ويعد هذا الرجل << أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير ، وطبعتها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين >> [3] ؛ إذ سعى لتطبيـــق سياسة إدماج الشعوب عن طريق نشر المسيحية [4] .

1C.F. , Bourgade , A.F. : Association de Saint Louis ou croisade pacifique ayant pour but de répondre la civilisation chrétienne parmi les musulmans , paris , S.d. , pp.1-2 .

2C.F. , Grussenmeyer : vingt cinq années d'épiscopat en France et en Afrique . Documents biographiques sur son éminence le Cardinal Lavigerie , t.I , 1881 , p.116 .

3 د. عبد الجليل التميمي : من مقاله " دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس :1830-1881 " ، الأصالة ، ع30/29 ، س05: جانفي- فيفري 1976 ، ص58 .

4 Jules.Tournier, Le cardinal Lavigerie et son action politique (1863-1892) , Paris,1913, p.22.

وقد صرّح ، ذات مرة ، لرجال الكنيسة بالجزائر أنه << يجب إنشاء المدارس في كل مكان ، وأنتم تعلمون أنها الوسيلة القوية والحتمية لتحقيق سياسة الإدماج ، ومن هنا نستطيع صهر العناصر الأجنبية المنتمية إلى أمم أخرى >>[1]

وعلى الرغم من ذلك ، لم يستطع المبشرون تحقيق مآربهم ؛ لأن الرباط الذي كان يربط بين الجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي ، وأثناءه ، إنما كان ناشئاً من وحدة الثقافة العربية الإسلامية التي كانت تجمع تحت لوائها مجموع السكان .

ولم تكن دعائم المجتمع الجزائري دينية وحسب ، وإنما كانت ذات معطيات أخرى مرتبطة بالتعليم والتنظيم والتشريع . ومن الخطإ التاريخي الاعتقاد أن الشعب الجزائري كان أميا ، وأن المحتلّ هو الذي وفّـر له وسائل التعلّـم ؛ ف " روزيت " (Rozet) يرى أنه ، في عام 1830م ، كان لهذا الشعب من التربية ما يفوق الشعب الفرنسي نفسه ؛ حيث إن أغلبيته كانت تعرف القراءة والكتابة والحساب[2] ؛ فالأطفال كانوا يتعلمون بالكتاتيب والزوايا[3] ؛ فقد كان بمدينة تلمسان، مثلا ، ألفا << تلميـــــــذ

---

[1] Grussenmyer, op.cit.,t.II, p.18.

[2] انظر : الجزائر بين الماضي والحاضر ، ص211 .

[3] جمع زاوية : وهي << التي يقيم فيها ولي ، ويعيش وسط تلاميذه الذين يتلقون تعاليمه وطريقته الصوفية .. وتعتمد الزاوية الطرقية في منهجها التعليمي – شأنها شأن باقي الزوايا- على تعليم القرآن الكريم ، .. >> .

(د. نجاح القابسي : من مقاله " المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي " ، مجلة الثقافة العربية (الليبية) ، ع5 ، س9: مايو-أيار 1982 ، ص71)

و<< الزاوية في الأصل صومعة الراهب المسيحي . ثم أطلقت على المسجد الصغير بالشرق ، وتطلق عندنا على بناء ديني به محراب في الغالب ، وضريح لأحد المرابطين تعلوه قبة يُتلى فيه القرآن =

في 50 مدرسة وبها 600 طالب في المدرستين الكبيرتين ، وفي الجامع الكبير حيث التشابه في طرق التعليم التشريعي والفقهي >> [1] .

إن هؤلاء الطلاب هم الذين سيلتحقون ، بعد تعلـّمهم الأول ، بما يمكن تسميته بالجامعات الشهيرة ؛ مثل فاس والقيروان والأزهر .

غير أن هناك ملاحظة ، في هذا السياق ، يجب تسجيلها ، ألا وهي حرمان المرأة من التعلم . وتلك خصيصة خُصَّ بها المجتمع الجزائري يومئذ ؛ فقد كانت << سيدة البيت لكنها محجوبة عن الشوارع ، ومحرومة من التعلـّم والشغل ؛ فالمسلمـــــــات في المدن لا يجدن حرجا في تكليف الرجل بالمهمات خارج البيت >> [2] .

وما يدعو إلى الاستحسان ، في ظل الوحدة الثقافية الجزائرية قبل الاحتلال ، أنْ كان تعايش بين الديانات الثلاث ؛ حيث << لم يكن هناك خرق لحرمة أهل الكتاب ؛ ففي الجزائر كنيسة للمسيحيين ، ومعبد لليهود ، وهناك مساجد للإباضية والحنفية ، وكانت مختلف الفرق المالكية تختار موضع المساجد في المدن بعد موافقة أهل المذاهب أو الفرق التي يوجد بها الموضع المعين >> [3] .

ومما عملته الحكومة الفرنسية ، في التعليم ، بعد احتلالها الجزائر ، أنْ أسّـست مدارس التعليم الرسمي ؛ << وهي مدارس (فرنسية عربية) مهمتها تخريج قضاة وأئمة

= ويُحفظ به .. >> .

(أبو عبد الله محمد الأنصاري : فهرست الرّصّاع ، تحقيق وتعليق : محمد العنابي .

نشر المكتبة العتيقة بتونس ، د.ت. ، ص197)

[1] الجزائر بين الماضي والحاضر : ص212 .

[2] نفسه : ص213 .

[3] نفسه

، ومترجمين يحسنون اللغة الفرنسية واللغة العربية ، ويكونون واسطة بين الأهالي الذين يجهلون لغة الإدارة ، وبين الفرنسيين الذين يجهلون لغة البلاد >> [1] .

وثمة نوع آخر من التعليم ، كان يُسمّى التعليم العام ، إلا أنه لم يكن له كبير أثر حتى عام 1871م ؛ فقد كان عدد المدارس الخاصة بالأطفال الجزائريين ، في هذا العام ، أربعين مدرسة ذات صف واحد في كل جهة من الجهات التي كانت خاضعة للاحتلال ، وعدد المسجلين فيها 4095 ؛ أي بنسبة 02% [2] .

وكان من أهداف التعليم الفرنسي ، بشكل عام ، تكوين إطارات موظفين لدى الدولة الفرنسية ، يتوافر فيهم الولاء والإخلاص لسلطات الاحتلال ، وكذلك إدماج الجزائريين على المدى البعيد . علاوة على أن تعليم المبشّرين ، أو ما كان يُطلق عليه اسم التعليم الحر ، ولعله أخطر أنواع التعليم ، كان من أهدافه البعيدة تمسيح الجزائريين ، مستغلا في ذلك ، نكبات الجزائريين ومشاكلهم الاجتماعية ، كالمجاعة والأمراض والكوارث الطبيعية .

على أن مقرراتِ التعليم الفرنسي ، لم يكن فيها ما يحفظ للعربية كيانها ، حتى كلغة أجنبية ؛ فقد مُنعت من الدرس بنص القانون ، وصار التعامل بها خيانة ، تعاقب

---

1 د. التلي بن الشيخ : دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983 ، ص35 .

كان عدد المدارس الرسمية ثلاثا ، في كل من تلمسان ، وقسنطينة ، والمدية . وقد نُـقِـلـت الثالثة إلى الجزائرعام 1859م .

2 كان التعليم الفرنسي الخاص بأبناء الأوروبيين مستقلا عن التعليم العام في مدارسه ، وميزانيته .

وكان لا يُسمح لأبناء الجزائريين بدخول هذا النوع من التعليم إلا في حالات خاصة ؛ عندما توجد المؤهلات لمساواة هؤلاء الأبناء بأبناء المعمرين .

عليها الإدارة [1] ، انطلاقا من رؤيتها إليها ، على أساس أنها لغة أجنبية وميتة [2] .

و حتى الأساتذة المكلّفين بتدريس اللغة العربية ، من قِبَل الفرنسيين ، كانوا يُلقّبون بأساتذة العربية الدارجة [3] . بل إنه صدر قرار في 18 من أكتوبر 1892م ،

---

1 التلي بن الشيخ : المرجع السابق ، ص ص36 ، 37 .

2 انظر : د. أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص63 .

3 C.F., Desparmet.J. : " La réaction linguistique en Algérie " , Société de géographie d'Alger , XXXVI , p.19.

في هذا التوجه ، وتدعيما للغة الملحونة على حساب اللغة الفصيحة نطالع كثيرا من العناوين ؛ منها

-W.Marçais : 1.Le dialecte arabe parlé à Tlemcen. Publ.Fac.Lettres d'Alger,1902,XXVI,325p.

2. Le dialecte des oulad-Brahim de Saida.Paris,1908,210p.

- Anonyme: Principes de la langue arabe en usage à Alger(Alger,1883,71p.)

-Baruch : Cours d'arabe parlé . (Constantine 1898 , 224p.)

-Belkassem ben sedira : Petite grammaire arabe de la langue parlée . (Alger , 1883 , 48p.)

-Soualah : 1. L'arabe parlé , pratique et commercial . (Alger , s.d.)

2. Cours d'arabe parlé (5 parties) (Alger , s.d.)

= لمزيد من التفاصيل عن هذه الدراسات ، يُنظر : مقال " هنري ماسي " الموسوم بـ :

قضى بعدم إمكان الحصول على رخصة لفتح مدرسة عربية إلا بموجبه [1] .

ومع ذلك ظلت العربية محافظة على كيانها ، من خلال الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم ، وعن طريق الوعظ والإرشاد في المساجد ، دون التطرق للمسائل السياسية ؛ لأنه كان مراقبا من قبل السلطة الفرنسية . وأيضا إنشاء ثلاث مدارس ثانوية مزدوجة (باللسانين العربي والفرنسي) منذ عام 1850م . على أن كفة اللسان الفرنسي كانت هي الرّاجحة . وقُدِّر لهذه المدارس أنْ تُخرج نخبة مرموقة من الجزائريين في ميادين الصحافة والتعليم والترجمة [2] .

وهناك فئة أخرى ، كانت لها مكانتها في التأثير على الرأي العام ، تتمثل في الجمعيات الدينية الممثلة في الزوايا وشيوخها ومريديها ، والمسمّاة لدى بعض المؤرخين بالنخبة التقليدية ، بينما عند آخرين بالنخبة القديمة [3] .

= " Les études Arabes en Algérie (1830-1930) " ،
المجلة الإفريقية ، المجلد 74 : 1933 ، نشر ديوان المطبوعات الجامعية ،
ص ص208-248 و ص ص458-505 .

[1] C.F., Monteil,Vincent : " L'arabisation culturelle de l'Algérie " ,
Preuves . (janvier,1964), pp32, 33.

[2] انظر : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص64 .

[3] نفســـــــــه : ص65 .

وقد كان << لكل جمعية زاوية هي مقر للمرابط ، ومركز للتعليم والصدقة ، ومكان للعبادة . أما عندما تقود إحدى الجمعيات ثورة ما ، فإن زاويتها تصبح مجمع الجهاد وملتقى كلمة السر للثورة >> [1] .

ولكن فرنسا عرفت كيف تفرغ هذه الجمعيات من محتواها النضالي ، وتسبل عليها ثوبا ، من التأثير الروحي ، بسيطاً . ولذلك << لم تعد تستمدّ قوتها إلا من الغموض والخرافات المهولة . وهكذا فبدل أن يتولّى زعماء الجمعيات الأخيرون القيادة الوطنية والسياسية كما فعل الأمير عبد القادر ، انغمسوا في المرابطية تاركين للفرنسيين يداً حرةً في الجزائر ، مساعدين لهم في الحقيقة ، عن وعي أو عن غير وعي ، بتسلطهم الخرافي على عقلية الفلاحين >> [2] .

<< ومن هنا بدأ خطر تعلّق الشعب بالأشياخ وتقديس الأولياء ، وخطر استغلال هؤلاء لسذاجة الشعب وما يعانيه من العقد النفسية . فجعلوا منه حلقات (رقص) تميل يمنة ويسرة طوع إشارة الشيخ . ووقفوا المدح على قداساتهم وكراماتهم >> [3] .

وفي الجملة ، فإن الكثير من الزوايا والطرق آل << إلى إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان . وأصبح شيخ الطريقة أو المرابط في كثير من النواحي يتصف بأوصاف الربوبية ؛ فهو الذي يعطي ، وهو الذي يمنع ، وهو الذي يقبض ، وهو الذي يبسط . هو منبع كل خير ومصدر كل شر ؛ .. فأصبح شيخ الطريقة أو صاحب الضريح أكبر مكانة في نفس السواد المغفّل من الله جلّ جلاله .

---

[1] المرجع السابق : ص66 .

[2] نفسه .

[3] صالح خرفي : شعر المقاومة الجزائرية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ت. ، ص117 .

وتفشت ، إثر ذلك ، بدع وأباطيل لا تشوّه وجه الإسلام السمح وحده ، بل تسوّد وجه البشرية برمتها ، يزعمون أنهم يقومون بها زلفى لله ، وتقربا إليه كضرب الدفوف والرقص واختلاط الرجال بالنساء في أيام الزيارات ، وأكل الحشرات السامّة ، والتمرّغ على الأشواك والتشبّـه بالحيوان الأعجم في مشيته وأصواته . سبحان ربّك ربّ العزة عمّا يصفون >> [1] .

وما يؤيد هذا الكلام ما قاله شاعر شعبي مجهول [2] ، مصورا حالة هؤلاء الشيوخ ، وما يوجد بتجمعاتهم من سلوكات مشينة :

كَثْرُوا السَّدَاتْ

كُلّْ يُومْ نَصْبَاتْ صْبَاحْ وَعْشِيَـه
مْتَاعْ الْفَـلاَتْ وْهُـوَ يْضَبَّـحْ [3]
عْمَايَـمْ جْدَدْ قَـالْ وقْلْنَـا
وْبُوسَ الْيَـدْ قْبُـورَ اوْجَنَّـه
أَسْقِـي وْجَدَّدْ دُوقْ سَمَحْنَـا
اسْكَـرْ وَاعْبَـدْ رَانَـا فُقْنَـا
فَاقُوا فَاقُوا
لَـبْسَه خَضْـرَا
وْصبَّاط اصْفَرْ
وْهُوَ يَـقْـرَا

---

[1] أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط2: 1984، ص376 .

[2] S.Ben Cheneb: Chansons satiriques d'Alger (1re moitié du XIV siècle de l'Hégire), in R.A., n°74 :1933,pp.339-341.

[3] يضبّح : يصرخ . وما يسمّى بالضبّيح ، في العامية ، يطلق على نباح الكلب إذا اشتدّ .

غِيرَ يْكَسَّـــــرْ

دْبِيـــــحَ وْنَشْرَا

غِيرَ يْقَّابَـــــرْ

شِيخَ الْفَقْـــــرَا

مْعَ مَنْ تَهْـــدَرْ

فَاقُوا ! .....

وقد طُبعت الثقافة الوطنية ، بعد فشل الثورات المسلحة ، << بطابع الفـــــرار من مواجهة الواقع ، واعتصمت بأسلوب الترويح عن النفس نتيجة الظـُّــــــروف القاسية >> [1] ، بل بدأ ، لدى بعض الناس ، التفكير في الهجرة نحو المشرق ، انطلاقا من دعوة بعض الطرق الصوفية إلى ذلك [2] ، تحت شعار تأدية مناسك الحج ، ومجاورة البقاع المقدسة تارة ، والذهاب إلى سوريا والإقامة بها [3] تارة أخرى .

ومهما تكن مبررات هذه الهجرة ، فإن أعمقها هو فرار الجزائري من الفقر والبؤس والتحقير . وإن كان أحد الدّارسين [4] يربطها ، زيادة على هذا ، بالجامعـــــة

---

[1] دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة .. ، ص16 .

[2] كالطريقة الشاذلية في تلمسان .

[3] كالشيخ الشاعر محمد بن يلّس الذي سوف نقف عند ترجمته لاحقا .

[4] انظر : د. أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص114 .

الإسلامية [1] في الشرق ، فإن آخر [2] ، يعزو أسباب الهجرة إلى صدور قانون 1912م القاضي بإجبار الجزائريين على الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الفرنسي ؛ الأمر الذي أدَّى إلى موجة شديدة من السخط لدى كثير من العائلات الإسلامية ، جعلها تُؤثِر مغادرة الجزائر نحو الشام .

وتعود بدايات الهجرة نحو الممتلكات العثمانية (سوريا ، فلسطين ، لبنـــــان) إلى سنة 1847 ؛ حيث إن الشيخ المهدي ، وهو من الطرقيين ببلاد الزواوة ، هاجر ، في أواخـــــــر 1847م هو وعشرات من العائلات إلى سوريا .. وتتابعت الهجرات حتى هجرة 1911 المعروفة بهجرة تلمسان [3] .

إلا أن الشعور بالمرارة والظلم ، راود دواخل المهاجرين ، وحرّك في نفوسهم نخوة الغيرة على الوطن ؛ ما جعلهم يشكّلون تجمعات سياسية معادية للسياسة الاستدمارية الفرنسية ، تتدِّدُ جميعها بها ؛ من أجل ذلك أسسوا جريدة عُرفت باســـــم " المهاجر " بدمشق عام 1912 [4] .

---

[1] << حركة تدعو إلى تضامن المسلمين من أجل تحقيق الوحدة والقوة بينهم في وجه التوسع الأوروبي .
أما وسائلها فتقوم على الإصلاح الديني والاجتماعي ، وذلك بتمجيد العقل والعودة إلى مذهب السلف ، أي العصر الذهبي للإسلام على عهد النبي محمد ، وصحابته ، والتابعين ، ومن الشائع أن هذه الحركة قد بدأت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وأصحاب هذه الحركة هم جمال الدين الأفغاني (1838-1897) ، وتابعه محمد عبده (1849-1905) ، ورشيد رضا (1865-1935) ، و آخرون >>
(د. أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص113)

[2] انظر : كتاب الجزائر ، ص67 .

[3] انظر : د. عمار هلال ، من مقاله " الهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية في المشرق العربي (1847-1918) " ، مجلة الثقافة ، ع82 ، س14 : يوليو-أغسطس 1984 ، ص68 .

[4] نفســـــه : ص69 .

ومع ذلك تأسست صحافة جزائرية مواكبة لحياة المجتمع الجزائري ؛ تصور واقعه ، وتنشر الوعي في أوساطه ، غير أنها لم تكن تعمِّر طويلا ، فسرعان ما كانت تُصادَر بمجرّد صدور بعض الأعداد منها ؛ أمثال : " الحقّ " (عنابة: 1893-1894) و " الجزائر " (الجزائر: 1908) ، و " المسلم " (قسنطينة: 1909) ، و " الحق الوهراني " (وهران: 1911-1912) [1] ..

في هذه السنوات ، كانت الجزائر قد وصلت إلى منعرج خطير << في حياتها الدينية والفكرية . عقيدة شوّهتها الأضاليل ، وتسلّط عليها المستعمر ، فجرّها من براءتها الأصيلة ، وسالف دورها الحفاظي الذي قامت من أجله ، وسخَّرها لأغراضه ، وبسط عليها حمايته ورعايته ، وعقيدة جديدة تلبس مسوح التمدّن والحضارة ، وأوسمة التزكية والتقدير ، وتحتلّ عواصم البلاد ، تبارك محتلّها وغاصبها ، وتدعو له وباسمه في خطب الجمعة ، وتمكّنه من رقاب الشعب باسم الدين ، ومن حريته باسم الأمن والاستقرار ، وتُسخِّر أقلامها للدِّعاية له ، والتّنويه به ، وألسنتها بالدعوة لطاعته ، والخضوع لأولي الأمر منه >> [2] .

ومهما يكن ، فقد شهدت الساحة الثقافية ، في العقد الأول من القرن الماضي ، شروعا في حركة فكرية ، تمثلت في تأسيس جمعيات ونواد ثقافية جزائرية [3] يديرها جملة

---

1 طالع أحاديث عن هذه الجرائد في :" الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 للدكتور محمد ناصر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر: 1980 ، ص ص22 ، 23 و ص ص32 ، 33 و ص 33 و ص ص33-35 .

2 د. صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر:1984 ، ص ص12 ، 13 .

3 طالع حديثا عنها وعن نشاطاتها في : الحركة الوطنية الجزائرية " ، ج2 ، ص ص143-147 . من هذه الجمعيات والنوادي : " التوفيقية " ، " ودادية العلوم الجديدة " ، " نادي التقدم " ، " نادي الشباب الجزائري " ، " جمعية الهلال " ، " نادي الاتحاد " ، " الرّشيدية " ، ... =

= ومن المظاهر الثقافية إحياء التراث الجزائري للجيل الجديد ؛ فبين أعوام 1900-1910 ، نُشرت أعمال ابن عمار ، وابن مريم ، والورتلاني ، والغبريني ، وهي على التوالي : " نحلة اللبيب " ، و " البستان " ، و " نزهة الأنظار " و " عنوان الدراية " .

(انظر : د. أبو القاسم سعد الله ، من مقاله " مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي 1830-1854 " ، مجلة الثقافة ، ع79 ، س14 : يناير-فبراير 1984 ، ص ص55-94)

وهذه المدارس ، حسبما ورد في هذا المقال ، هي :

أولا- المدرسة التقليدية : 1820-1848

<< حافظ زعماء هذه المدرسة على متانة الأسلوب وجزالة التركيب . أما موضوعاتهم فكانت القضايا السياسية والاجتماعية التي طرأت على بلادهم منذ الاحتلال من جهة ، وعلى العالم الإسلامي منذ حروب نابليون وظهور القوميات من جهة أخرى .. >> (المقال السابق : ص62)

ثانيا- المدرسة المخضرمة : 1848-1880

وكانت << أضعف المدارس إنتاجا وأقلها ارتباطا بالفكرة الوطنية ، وأبعدها عن الدعوة إلى النقد السياسي والإصلاح الاجتماعي >> (نفســه : ص63)

ثالثا- المدرسة المستنيرة : 1880-1914

شهدت الثقافة في هذا العهد << انطلاقة خصبة على يد جماعة من المثقفين الموظفيـــــن المستنيرين >> .

(نفســـــه : ص71)

ومن زعماء هذه المدرسة عبد القادر المجاوي (1848-1908) الذي أصدر رسالة مفيدة سمّاها " إرشاد المتعلمين " (المطبعة الوهبية ، القاهرة : 1877م) . وقد << دعا فيها إلى الإصلاح الاجتماعي بنقده للتقليد ، كما دعا مواطنيه والمسلمين عامة إلى نبذ الركود ، وإلى اليقظة والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة .. سماه بعضهم بأبي النهضة ، وسماه آخرون بشيخ الجماعة >> .

(نفســـــــــه : ص75)

رابعا- المدرسة الإصلاحية : 1920-1954

تميزت بروح شرقية قوية .

(نفســـــــــه : ص89)

كما << أدخلت روح الشرق إلى الجزائر بالعيش على نماذجه ، وروايتها لأخباره والاحتذاء برجاله وتقليد أساليبه الأدبية والعمل بمبادئه الإصلاحية .. >>

(نفســـــــــه : ص89)

من المثقفين ، بعضهم تكوّن في الزاوية ، وبعضهم الآخر تخرّج من مؤسسات فرنسية . لذلك ظهر الاختلاف في وجهات النظر ، للخروج بالشعب من محنته ، والوصول به إلى شاطئ النجاة؛ فكانت جريدة " المصباح " [1] (وهران:1904-1905) أداة للإسهام في التفاهم بين الجزائريين والفرنسيين [2] .

بحكم الشعور النبيل ، والإحساس الصادق الذي يكنه الناس ، في العالم العربي الإسلامي ، لإخوانهم الجزائريين ، وبحكم الحرب العالمية الأولى (1914-1918) ، التي قدّم فيها الشعب تضحيات جساما ، لم يجن منها إلا خرابا وخيبة أمل لوعود الفرنسيين الكاذبة [3] .

---

1 دعت هذه الجريدة << إلى مساواة الأهالي في الحقوق بالفرنسيين .. وكانت تصدر مرة في كل أسبوع محررة باللغتين العربية والفرنسية .. على أنها كانت تهتم بقضايا الأهالي الجزائريين ، مطالبـــــة بحقوقهم .. >> .

(د. محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ص28)

2 انظر : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص140 .

3 من ذلك وعد " جورج كليمانصو " الذي قال ذات يوم مخاطبا الكتيبة الإفريقية في الجيش الفرنسي ، وهي في طريقها إلى الميدان ، : << ثقوا بأن هذه الراية عندما تعود من الحرب مخرقة برصاص النصر ، سيكون لكم نصيب في هذا النصر >> .

(د. صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث ، ص19)

إلا أن شيئا من ذلك لم يكن ؛ فها هو أحد الضباط الجزائريين الذين كانوا في خدمة فرنسا ، إبان الحرب العالمية الأولى ، يطالعنا ، والشعور بالمرارة مستحوذ عليه ، بقوله : << إن من الأسف العظيم أن يُرجع ممثلو العدل والحرية بإحدى اليدين ما أعطوه باليد الأخرى ، في مقابلة الإخلاص وسفك الدماء الشريفة دفاعا عن فرنسا .. أيها الشجعان الذين بذلتم النفس والنفيس ، أين الجزائر ؟ أين الخطب ؟ أين المواعيد ؟ كلها سحاب حلب ، نعوذ بالله من الكذب ونكران الإحسان ، أيها الشبان الذين قاسيتم الشدائد ، وحصدت زهرة شبابكم ، فأثقال الظلم لا زلنا تحت قهرها ، تالله إن هذه المحقرة والفضيحة ما سبقنا بها أحد من الإنس والجـــــــــنّ ، قد قامت قيامتنا >> .

=

- بحكم ذلك كله - بدأت اليقظة الجزائرية في التجلّي [1] .

وقد أثـّرت هذه الظروف ، بشكل أو بآخر ، على شاعر الملحون ، وجعلته ينحو ، في شعره ، منحى مبنيا على أسلوب التنكيت ، والسخرية ، خاصة إبان الحرب

= (محمد ناصر : المقالة الصحفية الجزائرية ، ص305)

وقد صور مآسي هذه الحرب الشاعر الشعبي ابن حراث وما عاناه الشعب منها ، من خلال قصيدة ذات طابع قصصـــــــــي .

يقول فيـــــها :

شَافَتْ عَيْنِي خَوْدَه شَايْفَه مَسَّعَـــرْ ... تَبكِي وَتْنُوحْ فَالْبَابْ عَنْدَ السُّورْ
قُلْتَ لْهَا نَبِيني يَا رْمَاقَ الْقَصْـــورْ ... عِيدِي بَحْدِيثَ الصَّحْ وَالْمَشْهُورْ
قَالَتْ لِي حَالِي مَهْمُومْ رَاه امْدَمَّـــرْ ... إِذَا نَحْكِي لَكْ يْضِيقْ بِكَ الْمُـورْ
نَبكِي مَنْ حَالِي وَلْدِي مْشَى لَلْعَسْكَرْ ... بَالْقَانُونَ اللِّي رَسْلُه الْقَفْرَنُـــورْ
مَا عَنْدُه صَاحَبَ اوْلاَ حْبِيبَ ايْدَبَّـــرْ ... غِيرَ الْحَيَّ الْوَاحَدَ الْغفُـــــورْ

- (صاحب الأبيات من ناحية بلعباس . توفي حوالي 1923 . انظر : الكنز المكنون ، ص213)

- (انظرها كاملة في : الكنز المكنون ، ص ص213-219)

1 انظر : أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص69 .

ما أن أهلت سنة 1919 ، حتى ظهر الأمير خالد ، أحد أحفاد الأمير عبد القادر . وقد كان ضابطا بالجيش الفرنسي ، إلا أن رفضه التجنيس بالجنسية الفرنسية جعله ضابطا أهليا (A titre indigène) .. واختار ، لنضاله السياسي ، أربع وسائل هي :

أولا- الصحافة ؛ بإنشائه صحيفة " الإقدام " .

ثانيا- الخطب ؛ وخاصة في الحملات الانتخابية .

ثالثا- المجالس المنتخبة ؛ وقدّم على منابرها ، وعن طريقها ، لوائح ومطالب ..

رابعا- الاتصال بالمسؤولين الفرنسيين كالنواب والوزراء ...

(انظر : محمد الطيب العلوي ، مظاهر المقاومة الجزائرية .. ، ص 85)

الأمر الذي جعل السلطات تتخذ ضده إجراء النفي خارج الجزائر . ولم تكد رجلاه تطآن فرنسا ، حتى وجد ، من العمال الجزائريين << ترحابا وطنيا رائعا ، تطور إلى شعور وطني عمالي ، وإلى نواة تنظيم وطني فيما بعد ، عُرف باسم " نجم شمال إفريقيا " ، اختير الأمير خالد رئيسا شرفيا له، تكريما لكفاحه ونضاله >> .

(مظاهر المقاومة الجزائرية : ص91)

العالمية الأولى ، بعد إضعاف اللغة العربية ، وإفشال المقاومات المسلحة ، واضطراب الحياة السياسية ، بعد أن كان ، فيما سبق ، يعطي الكفاح المسلح حيويته وقدسيته ، ويمجِّد البطولة ، ويدعو إلى الثورة .

وأهم ما تميز به الفكر الجزائري ، في هذا العهد ، << هو أنه اتخذ ، من التعليم والمعرفة ، طريقا للنضال ، وحاول أن يستفيد من احتكاكه بالعالم الخارجي ، سواء من حيث ربط كفاح الشعب الجزائري بالكفاح العربي ، أو من حيث الاستفادة من أشكال التنظيمات السياسية التي احتكَّ بها الجزائريون في أوروبا >> [1] .

وقد نقل بعض الأدباء الجزائريين واقع بلادهم لدى المثقف العربي ؛ مثلما كان يفعل " عمر بن قدور " ، صاحب جريدة " الفاروق " [2] (الجزائر:1913-1915) ؛ يحرر المقالات والقصائد بالجزائر ، << وينشرها في صحافة الشرق العربي الإسلامي ابتداءا من الآستانة ومرورا بالقاهرة وانتهاءا إلى المغرب الأقصى >> [3] .

يُضاف إلى هذا أن هؤلاء الأدباء كانوا يتابعون ، باهتمام ، ما كان جارياً في المشرق من حركة أدبية ، بواسطة ما كانوا يطالعونه في المجلات والجرائد ؛ فقد عبّر " الهادي السنوسي " عن ذلك بقوله : << مَنْ مِنَّا معشر الأدباء الجزائريين ، من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى على آثار مدرسة إسماعيل صبري وحافظ وشوقي وطه حسين وأحمد أمين والمنفلوطي والزيات >> [4] .

---

[1] دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة .. ، ص49 .

[2] تعدُّ << أول جريدة وطنية ترتقي إلى مصاف الجرائد العربية المعتبرة . وكانت إسلامية وطنية محضة ، طالما اهتمت بقضايا المسلمين ، وحللت واقعهم المرير .. اهتمت بواقع المجتمع الجزائري البائس ، فحاربت البدع والمنكرات التي تروِّجها بعض الطرق الصوفية .. >> . (الصحف العربية الجزائرية ، ص ص36 ، 37)

[3] د. صالح خرفي : شعراء من الجزائر ، الحلقة الأولى ، نشر معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة : 1969 ، ص38 .

[4] د. صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث ، ص15 .

كما كان ، للبعثات العلمية إلى كل من الأزهر الشريف والزيتونة والقرويين ، الأثر الكبير في تعزيز عُرَى النهضة العربية بالجزائر ؛ فقد << هاجر عدد من قادة حركة الإصلاح إلى الشرق ، وعادوا منه بزاد وفير من العلم والمعرفة ، بالإضافة إلى اطلاعهم على واقع النهضة العربية الإسلامية ، والاتصال بزعمائها ، مثل عبد الحميد بن باديس ، والطيب العقبي ، والبشير الإبراهيمي وغيرهم .. >> [1] .

وكان من نتائج هذا الاحتكاك الثقافي ، أخذا وعطاءا ، أنْ ظهرت للوجود جمعية ثقافية إصلاحية هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين [2] التي أخذت على نفسها عهدا بأن تحارب البدع والخرافات والأباطيل ، وتعيد للثقافة العربية الإسلامية دورها الحضاري عبر المساجد والنوادي والمدارس [3] والصحافة [4] تعليما وتثقيفا .

---

[1] دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة : ص50 .

[2] تأسست في " نادي الترقي " بالجزائر العاصمة ، ضمن مؤتمر دام أسبوعا ، انتُخِب فيه الشيخ عبد الحميد ابن باديس رئيسا لها وذلك بتاريخ الخامس من شهر ماي العام 1931 . وقد لخص مبادئ وأهداف هذه الجمعية سنة 1935م بقوله : " القرآن إمامنا ، والسنة سبيلنا ، والسلف الصالح قدوتنا ، وخدمة الإسلام والمسلمين وإيصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا " .

(سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المطبعة الإسلامية الجزائرية ، قسنطينة : 1935م ، ص76)

للمزيد من المعلومات عن جمعية العلماء ، ينظر :

- الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص ص407-430 .
- الحركة الوطنية الجزائرية : 1930-1945م ، ج3 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط3: 1986 ، ص ص81-102 .

أما قانونها الأساسي فيراجع في : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص ص457-460 .

3 بلغ عددها عام 1945 : 150 مدرسة . وكان مجموع تلاميذها 45 ألفا .

4 أسست جمعية العلماء صحافة وطنية للتعبير عن توجهها ومبادئها. وما يلاحظ عليها أنها << كانت أكثر ارتباطا بالواقع الجزائري ، من الصحافة الجزائرية التي أسسها بعض الأفراد مثل جريدة =

وانطلاقا من توجهها التصحيحي لكثير من المفاهيم الخاطئة ، كان لها أعداء كثيرون ؛ وخاصة شيوخ الطرق الصوفية ، والذين يحملون فكرا أجنبيا من خريجي المدارس الفرنسية ، والنواب ، والمبشرين ؛ لأن هؤلاء كانوا يرون غير ما يـــــرى أعضاء الجمعية ؛ الأمر الذي سبّب صراعا مريرا ، ووصل حدّ الشّتم والتجريح [1] .

= " النجاح " على سبيل المثال ؛ ذلك أن قادة الإصـــــــلاح كانوا يعيشون مع الطبقات الاجتماعية ويحسون بالمشاكل الاجتماعية عن قرب ، كما أنهم كانوا يباشرون الكتابة في الصحافة بأنفسهم ، من أجل رسالة وهدف ، وليس من أجل جمع المال والشهرة >> .

(دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة .. : ص52)

- كما أسس عبد الحميد بن باديس جريدتي " المنتقد " (قسنطينة:1925م) و " الشهـــــــــاب " (قسنطينة:1925-1939)، وبعدهما أصدرت جمعية العلماء "البصائر" (الجزائر:1935-1939م) .

(طالع أحاديث عن هذه الجرائد في : الصحف العربية الجزائرية ، ص ص52-55 ، و ص ص58-62 ، وص ص190-198)

- وقد تأسست جمعية علماء السنة ، ذات التوجه الطرقي . وكان زعيمها المولود الحافظي الأزهري ، وهو من الدينيين الرسميين . ومن صحافتها : " الإخلاص " (الجزائر:1932-1933) و " المعيـــــــار " (الجزائر:1932-1933) .

(انظر : الصحف العربية الجزائرية ، ص ص124-126 ، و ص ص126-130)

1 بل وصل هذا الصراع إلى حدّ محاولة اغتيال الشيخ عبد الحميد بن باديس عام 1927م ، كما يصفـــه محمد السعيد الزاهري بقولـــه :

لاَ نَبْلُغُ الْعَلْيَاءَ دُونَ ثَبَـــــــاتِ ... هَيْهَاتَ دُونَ الْمَجْـــــدِ كُلّ أَذَاةِ

يَا وَقْفَةً لَكَ فِي سَبِـــــــيلِ اللهِ ... لَمْ نَرْهَا لِغَيْرِكَ مِنْ ذَوِي الْوَقَفَاتِ

فِي اللهِ مَا لاَ قَيْتَ مِمَّـــــا كَادَ يَذْ ... هَبُ بِالذِي لَكَ مِنْ عَزِيزَةِ حَيَـاةِ

لاَ تَحْفَلَنْ بِعِصَابَةٍ تَسْطُـــــو عَلَى ... أَهْلِ الْحَيَاةِ وَهُمْ مِنَ الْأَمْـــوَاتِ

فَسِلاَحُكَ الْعِلْمُ الْمُبِينُ وَإِنَّهُـــــمْ ... مُتَسَلِّحُونَ عَلَيْكَ بِالسَّبَحَـــاتِ

وَلأَنْتَ ذُو الْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَهُـــمْ ذَوُو ... الْأَوْهَامِ وَالْأَحْلاَمِ وَالشُّبُهَـــاتِ

لاَ تَجْزَعَنْ عَنْ " عَبْدِ الْحَمِيـــدِ " لِنَكْبَةٍ ... كَانَتْ عَلَيْهِمْ أَكْبَرَ النَّكَبَـــاتِ

(صالح خرفي : شعراء من الجزائر ، ص95)

=

ولا بد لنا ، ونحن نتحدث عن هذه الملابسات ، أن نشير إلى النشاط الثقافي لجماعة النخبة [1] ؛ فقد كان يختلف ، في مرماه ، عما كانت الجمعية تنشده .

إن هذه الجماعة دعت إلى توسيع التعليم الفرنسي والمطالبة بالمساواة ، بينما كانت جمعية العلماء المسلمين << ترى أن التعليم الفرنسي ليس سوى وسيلة مقنّعة لسياسة الاندماج >> [2] .

على أنه يجب التذكير أن حزب الشعب [3] قد شكّل حدثا مهمّا ضمن تاريخ النهضة في الجزائر ، مكتسحا بذلك << الساحة السياسية ، بفضل مواقفه التي تمثلت في أنّـــــــــه :

= إلى أن يبلغ قوله متحدثا عن التصوف وأدعيائه :

حَتَّى لَقَدْ صَارَ التَّصَوُّفُ عَـــــادَةً ... وَالنَّاسُ أَسْرَى فِي يَدِ الْعَـادَاتِ

أَوْدَى التَّصَوُّفُ بِالْعُقُـــولِ فَلاَ تَرَى ... فِي الْقَوْمِ عَقْلاً وَهْوَ غَيْرُ مُوَاتِ

لَوْلاَ التَّصَوُّفُ مَا رَأَيْتَ ذَوِي اللِّحَـى ... يَأْتُونَ أَمْراً وَهْوَ غَيْرُ مُوَاتِـي

مَارَسْتُ أَخْلاَقَ الشُّيُوخِ فَلَمْ أَجِـــدْ ... غَيْرَ الْخُمُولِ وَغَيْـرَ حُبِّ الذَّاتِ

(شعراء من الجزائر : ص96)

[1] انظر: الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص178 .

إن اصطلاح " النخبة " لدى " سعد الله " يعني المثقفين المتخرجين من المدارس الفرنسية .

[2] دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة .. : ص53 .

[3] << في 11 مارس من سنة 1937 أعيد تأسيس حزب نجمة شمال إفريقيا الذي حلته السلطة الفرنسيـــــــة بقرار صادر في 26 جانفي 1932 ، وعاد هذه المرّة تحت اسم جديد وهو حزب الشعب الجزائري (P.P.A) .. وما أن بدأ نشاطه السياسي حتى أصدر جريدة لتعبر عن اتجاهه وأفكاره ، ومطامحه . وصدر العدد الأول من " الشعب " في 27 أوت 1937 ، ويرأس تحريره مفدي زكرياء أحد الأعضاء الإداريين بالحزب .. استمرت ما يزيد قليلا عن الشهر الواحد . أصدرت خلالها عددين اثنين فقط ، ولكنها تركت من الآثار ما لم تتركه بعض الجرائد الانتفاعية الأخرى بعمرها الطويل >> .

(الصحف العربية الجزائرية : ص ص205 ، 206)

=

أولا: وقف في وجه المؤتمر الإسلامي [1] ، وقضى على الاتجاه الاندماجي ..

ثانيا: وضع فكرة التحرير للجماهير .. واعتبر الاستقلال أصلا ، وما عداه محاولات ومطالب متواضعة دون المستوى .

ثالثا: خلق مناخا جديدا في الحياة السياسية ، لم يكن مألوفا من قبل .

رابعا: رسَّخ مبدأ التضحية في نفوس مناضليه على أساس أن " الحرية تؤخذ ولا تُعْطَـــــــــى " .

خامسا: استعمل أساليب جديدة في التعبير عن أفكاره كالصحافة والمناشير السرية ، والحملات الانتخابية والخطب ، والاتصالات في المناسبات العامة والخاصة ، والكتابة على الجـــــدران >> [2] .

وبينما كان الجزائريون ينتظرون من الحرب العالمية الثانيـــــــــــة (1939-1945م) ؛ أن تخرجهم من ربقة الاستغلال والاضطهاد إلى الحرية والاستقلال ، منطلقين ، في ذلك ، من تضحياتهم الجسام ..

= للمزيد من المعلومات حول هذا الحزب ، يطالع : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج3 ، ص ص141-144 .

1 عقد بالعاصمة في السابع من جوان عام 1936م . وهو << أول تجمع من نوعه في الجزائر منذ الاحتلال .. إذ جمع أكبر حشد سياسي عرفته البلاد ، وإن كانت نوايا المشتركين متباينة لتباين الاتجاهات الأساسية >> . (مظاهر المقاومة الجزائرية .. : ص138)

أما مطالبه فمنها :

- إلغاء كل القوانين الاستثنائية التي لا تنطبق إلا على المسلمين .
- إلغاء كل قانون أو مرسوم اتُّخذ ضد اللغة العربية ، وإنهاء عدّها لغة أجنبية .
- العفو عن المعتقلين السياسيين .
- النيابة في مجلس الأمة .

(يُطالع نص هذه المطالب كاملا في : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج3 ، ص ص255 ، 256)

2 مظاهر المقاومة الجزائرية : ص ص188 ، 189 .

أقول : بينما كانوا كذلك ، حتى أتى عليهم يوم مشؤوم هو الثامن من ماي 1945م ، حين خرجوا في مظاهرات سلمية مطالبين بحقهم في تقرير مصيرهم ، إذا بالآلة العسكرية الفرنسية تحصد أرواحا كثيرة [1] ، وكأنها قابلت إحسانهم بإساءة لن تمّحي من الذاكرة أبـــــــدا .

وقد تحدث ، عن هذا اليوم التاريخي ، الشاعر بلخير ولد فرحات [2] ، في قصيدة له ؛ هذا أولهـــــــــا [3] :

قَصَّةْ يَوْمَ سْطِيفْ مَعْتَّاهَا مَازَالَتْ فَالْقْلُوبْ مَكْمِيَه
مْحَايَنْ قَاوْيِينْ شَفْنَاهَـــا كَيَّتْهُمْ فَالدِّلِيلْ مَقْدِيـــَه
قَصَّةْ يَوْمَ سْطِيفْ مَرْوِيَه
ذَاكَ الْيَوْمَ الْحَيْفْ كَانَ اغْزِيرْ جَاتَ السَّاعَه وَنْغْلَبْ "غِيُومْ"

إلى أن يصل إلى تفاصيل هذا اليوم العصيب وما لقيه الشعب فيه من ويلات ومآس ، فيصوِّر ذلك بقولـــــــــــــه [4] :

طَلْعَتَ الرَّايَه وْعَادَت اتبـــَـــانْ [5]
خَافَ الْكَافَرْ شَافْهَا عَـــــــلاَتْ

---

[1] بلغ عددها 45000 .

[2] ابن بوزيان من قبيلة أولاد سيدي عيسى المراني . له قصائد طوال في وصف الصحراء وأهلها . كما تغنى بأبطال المقاومة الشعبية . توفي بداية القرن ال20 .

(الشيخ عين تادلس : " الشاعر بلخير ولد فرحات " ، مطبوعات المهرجان الوطني الأول للأغنية البدوية ، مستغانم 1973 ، 35-38)

[3] المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : ص117 .

[4] نفســـــه : ص118 .

[5] اتبان : تظهر .

اجْبَدَ الْكَابُوسْ زَادَ اخْشَـــــــانْ

جَاتَ الْجَنَّه طَاحْ وَاحَدْ مَـــــاتْ

هَجْمُوا غَاشِي اتْخَوَّضَتْ رِيسَـــانْ

دَفْعُوا سِنِيغَالْ [1] بَالْمَتْرَيُـــوزَاتْ

طَاحُوا ثَمَّ شَيَّابْ وَالصَّبْيَـــــانْ

جَابُوا (الطَّنْكْ) وسَرْكَلُوا [2] زَنْقَاتْ

فِي خَرَاطَه هَاجَتَ (اسْبَنْيُـــــولْ)

قَتْلُوافِيهَاابْزَوَزْ [3] وَثْرَارِيـــــسْ [4]

قَالْمَه ثَمَّ الدَّمْ عَادَ اعْيُـــــونْ

ثَانِي [5] (سُوقَ اهْرَاسْ) عَادَ اعْفِيـــسْ

نَبْغُوا تْمُوتْ مْنَ الْعْرَبْ مَلْيُـــونْ

وَالْبَاقِيينْ ادَّاوْهُمْ امْحَابِيـــــــسْ

رَبِّي يَسْتُرْ ذَا النَّهَارَ امْشُـــــومْ

جَابُوا (الطَّنْكْ) مْعَ الطَّيَّـــارَاتْ

يَا رَبِّي بْجَاهْ بُوكَلْثُـــــومْ

تَعْتَقْ أُمَّةْ شَافَعَ الْأُمَّـــــاتْ

بْجَاهَ الطُّلْبَه الْقَارِيَه لعْلُـــــومْ

وَبْجَاهَ الصُّلَّاحْ وَالسَّـــــدَاتْ

---

[1] الجنود السينيغاليون المرتزقة .

[2] لفظة فرنسية بمعنى أحاطوا ب : Encercler

[3] عامية وتعني الأطفال الصغار .

[4] رجال راشدون .

[5] أيضا .

ساعة هذه الحوادث الأليمة ، تأكد الشعب أن لغة المنطق والحوار لن تنفع مع المعتدين ، وأن عهد الثقة قد ولـّى دون رجعة ، وأن عليه ، والحال كذلك ، مراجعة حساباته وسياساته .

ومن ثم صارت فكرة استرجاع الحرية ذائعة ذيوعا كبيرا ، لم يكن من قبـــــل ، في أوساط الجماهير ؛ ما جعل بوادر التنظيم تتبدّى ، معتمدة ، في ذلك ، على أصالة هذا الشعب ، بعيدا عن الشعارات الفارغة ، والخطب الجوفاء ، بغية تحقيق الوَحْدَةِ الوطنيةِ المحقِّقَةِ للنّصرِ المأمولِ .

وإذا كانت فرنسا قد عمدت إلى أساليب القمع والاضطهاد من خلال أجهزتها الأمنية والعسكرية ، فإنها ، بذلك ، قد ساعدت ، دون شعور منها ، في إذكاء حمـــــاس الجماهير ، وإنضاج فكرة الكفاح المسلّح الذي صار الطريق الأوحد لاسترجاع ما سُلِبَ منهم عنوةً وقهراً ؛ فكان ذلك إيذاناً بقيام ثورة عارمة سنة 1954م ؛ حرّرت الإنسان الجزائري من نير العبودية الاستعمارية مُدَّة قرن وثلاثين عاماً .

الباب الأول : دراسة في الشَّكل

الفصـل الأو ل : التّشكيل اللّغوي للمفردة

الفصـل الثانـي : البُنَى التّركيبيـــــــــة

الفصل الأول : التّشكيل اللّغوي للمفردة

1. التّشكيل الصّوتي للمفردة
2. التّشكيل البنيوي للمفردة
3. طبيعة المفردة

لا ريب في << أن ماهية الشعر هي كيفية خاصة في التعامل مع أداة عامة هي اللغة . وتتبدّى هذه الكيفية في طرائق مخصوصة تؤلـّف بين الكلمات وتنظمها للوصول إلى أنظمة وأنساق وتراكيب وأبنية تفجّر الطاقة الشعرية في الواقع ، وتخلق موازاة رمزية لهذا الواقع ، ومن ثمّ لا يعود مشكل الشاعر ، تأسيسا على هذا ، مشكل توصيل ، وإنما مشكل تشكيل >> [1] .

والشاعر ، في هذه الحال ، ليس همّه غرضاً يعبِّر عنه ، ولكن لغة يثير فيها حيويتها الإبداعية ، حتى يكتمل له التشكيل الجمالي الذي يعادل نفسيته وفكره ومجتمعه الذي يحيا فيه .

إن اللغة << في الشعر ليست ألفاظا لها دلالة ثابتة جامدة ، ولكنها لغة انفعال مرنة >> [2] ، وهذا يفيد أن اللفظ لا يعني المعنى ذاته عند الشعراء الذين يوظفونه ؛ فهو يختلف بحسب ما يبثّـه الشاعر فيه من طاقة وعاطفة ، << فليست الألفـــاظ ، إذن ، في بساطتها أو جلالها هي المحكّ ، ولكن الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدّد قيمتها >> [3] .

---

[1] د. عبد المنعم تليمة : مدخل إلى علم الجمال ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط01: 1976 ، ص99.

[2] د. عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، عرض وتفسير ومقارنة ، دار الفكر العربي ، ط02: 1986، ص340 .

[3] اليزابيت دور : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ؟ ، ترجمة : د. محمد إبراهيم الشوش ، منشورات فرانكلين ، بيروت – نيويورك 1961 ، ص89 .

والقصيدة بوصفها تشكيلا لغويا له جمالياته في موقف ما ، ما هي سوى بنية لغوية مشكـّلة من بنيات جزئية تكوِّن ، في جملتها ، هذا التشكيل .

إن الشاعر الحق هو الذي يعمل على تحقيق نوع من الانسجام والتآلف بين هذه البنيات في القصيدة الواحدة ، انطلاقا من أنها وحدة فنية تتفاعل داخلها كثيـــــــــــــرٌ من المفردات ، وذلك من حيث هي كلّ قائم لا يتجزّأ . ولعلّ هدف هذا البناء إنما هو الموسيقى ، لأنها تمثـّـل بداية ما يصادفه المتلقي [1] .

ومن أهمّ ما تتباين به درجات الشعراء ومنازلهم ، في أداء معانيهم ، وبلوغ أغراضهم ، هو ذلك اللباس البياني ، وتلك الصورة اللفظية ، اللذان يصل ، من خلالهما ، الشاعر إلى لغته الشعرية التي تظلّ مكنونة في نفسه ، حتى يظهرها التعبير .

ولذلك فإن << لغة الشعر هي مادّة الشعر ، ومن أجل ذلك قلّ من يتقنها ويعرف أسرارهـــــــــــا >> [2] .

فالصورة التعبيرية هي أداة الأديب ، بعامة ، في نقل تجربته إلى الغير . وطالما عرفنا أن الشعر أحفل ضروب الأدب بالمشاعر أدركنا أن وظيفة التعبير في الشعر لا تكتفي بالدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات فقط ، بل بمؤثرات أخرى يكتمل بها الأداء الفني وأهمها : الدلالة النفسية والصور التي تبثـّها الألفاظ والعبارات والإيقاع ، وكذلك مذهب الشاعر في تعامله مع الكلمات والعبارات والتنسيق فيما بينها .

---

[1] انظر : د. عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، د.ت. ، ص ص63 ، 64 .

[2] د. إبراهيم السامرائي : لغة الشعر بين جيلين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط02: 1980 ، ص07 .

ومن ثمّ فإن اللغة << هدف مؤثر يرمي إليه الشاعر ، وينتقي منها ما هو جدير بإبداع مضامينه ، وبما فيه من إيحاءات تصويرية نفسية >> [1] .

وتمرّسه إنما هو << في ملاءمته الدقيقة بين ألفاظه ومعانيه ، بحيث لا يطغى فيها جانب على جانب ، فلا يصبح لفظا خالصا ، ولا يصبح رمزيا خالصا ، حتى لا يضحي بمعانيه على مذبح الألفاظ ولا على مذبح المجاز >> [2] .

ولا يخفى ما في اللفظ من أهمية ؛ إذ به تصير اللغة وسيلة الشاعر للتعبير والإبداع . ولذلك ظلّت هذه اللغة ولا تزال << منطلق القصيدة الشعرية ، بل الهيكل العاكس لتجربة الشاعر في مختلف المواقف >> [3] .

وإذا كانت اللغة في يد شاعر موهوب فهي قادرة << على بثّ الحرارة والحياة والإثارة في المألوف من كلمات الحياة التي تعيش في نفوسنا والتي لا تنبش عنها القبور في معاجم اللغة >> [4] . وذلك لأن الشّاعر << بإحساسه وسمعه اللغوي الدقيق ، يمدّ

---

[1] د. عز الدين منصور : دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت ، ط01: 1985 ، ص63 .

[2] د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط05: د.ت. ، ص113 .

[3] د. العربي دحو : بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية ، دراسة تاريخية فنية في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1986 ، ص141 .

[4] د. محمد زكي العشماوي : الأدب وقيم الحياة المعاصرة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت 1980 ، ص130 .

للألفاظ معانيَ جديدة لم تكن لها .. إن شاعرا واحدا قد يصنع للّـغة ما لا يصنعه ألف نحوي ولغوي مجتمعين >> [1] .

واللغة ، بعدُ ، هي أداة الشاعر في التعبير والإبانة ، وهي الوسيلة الأولى للتوصيل ، توصيل الآراء والأفكار ونقل الأحاسيس إلى الغير.

وهي ، بهذا المنظور ، حلقة الوصل بين الملقي والمتلقي ، فلا يتمّ بدونها خطاب ولا تواصـــــــــــــل .

ومن المفيد التذكير باختلاف لغة الشعر عن لغة النثر ، من حيث جمالها ووظيفتها في التعبيـــــــــــــر .

ولئن كان أصل الكلام منثورا ، حسبما جاء في كتاب " الممتع .. " للنهشلي [2] ، فإن العرب رأته << يندّ عليهم ويتفلّت من أيديهم ، ولم يكن لهم كتاب يتضمّن أفعالهم ، تدبّروا الأوزان والأعاريض ، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءهم مستويا ، ورأوه باقيا على مرّ الأيام ، فألفوا ذلك .. >> [3] .

وإذا كان الشعرُ ديوانَ العرب : << فيه قيِّدت مفاخرهم ، وإليه يرجع الفضـــــلُ

---

[1] د. نازك الملائكة : شظايا ورماد ، دار العودة ، بيروت 1971 ، ص07 .

[2] انظر : عبد الكريم النهشلي القيرواني ، الممتع في صنعة الشعر ، تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، د.ت. ، ص11 .

[3] نفســـــه : ص19 .

في تخليد ما لهم من فضائل قديمة .. >> [1] ، فإن النثر لا يقلّ عنه أهمية ، لأنه يفي بمتطلبات الحياة ، ويتحدّث ، في لغته ، عن السياسة والدين والعلم [2] .

والشعر ، فضلا عن هذا ، << ضرورة من ضرورات الحياة في طـــــــور من أطوارها ، فإذا انقضى هذا الطور أصبح الشعر عاجزا على أن يقوم بشيء من ذلك ، وأصبح النثر خليفته يصوِّر هذه الأشياء الجديدة .

والشعر الذي كان ضرورة ، أولا ، يصبح ، في الطور الثاني ، ضربا من التّرف والزّينة . والحياة لا تستطيع أن تستغني عن كليهما .. >> [3] .

هذا حول أسبقية الشعر عن النثر أو العكس . أما لغة الشعر ، كما أوعزنا إليه قبل حين ، فخاصّة ، لأنها تبتعد عن لغة النثر [4] .

ولا يكاد الغربيون [5] يختلفون مع ما ذهب إليه العرب قديمـــــــــــــــا :

فَ " كولردج " (Coleridge) (1772-1834) يعتقد أن << للشعر لغة خاصة ، وهذا مذهب يتبنّاه ويعدّ من أكبر دعاته ، ويخالف فيه " وردز ورث " مخالفة تامّـــة ،

---

[1] طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف بمصر ، ط11: 1975 ، ص22 .

[2] نفســـــه : ص22 .

[3] نفســـــه : ص22 .

[4] انظـــــر : لغة الشعر بين جيلين ، ص05 .

[5] ما عدا " وردز ورث " (Words worth) (1770-1850) الذي لا يرى أي فرق بين لغتي الشعر والنثر ، و " تشارلتن " (Tcharlton) الذي يذهب إلى أنه من أكبر الخطإ الاعتقاد بأن لفظا يصلح للشعـــــــر ولا يصلح للنثـــــــــر .

(حول تفاصيل ذلك ، يُطالع : د. محمد خلف الله أحمد ، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقـــــده ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ط02: 1970 ، ص ص72-89 .)

وينكر حججه ويفنّدها تفنيدا كاملا >> [1] .

وقريب من هذا الرأي ما ذهب إليه " جان كوهيـــــــن " (Jean Kohen) من أن الشعر نقيض النثر ، لأن الشعر << ليس مجرّد اختلاف عن النثر وحسب ، بل إنه يعارضه . فهو ليس " اللانثر " ، بل نقيض النثر >> [2] .

إننا نظفر ، في هذا الشّأن ، بتفريق دقيق لدى " جان بول سارتـــــــــــــــر " (Jean Paul sartre) ، انطلاقا من استخدام الأديب للغته ، ومؤدّاه : << أن ميدان المعاني إنما هو النثر ، فالشعر يُعدّ من باب الرسم والنحت والموسيقا ..

إنه (أي الشعر) لا يستخدم الكلمات بحال ، ولكنه يخدمها . فالشعراء قوم يترفـّعون باللغة عن أن تكون نفعية ..

وفي الحق ، إن الشاعر أبعد ما يكون من استخدام اللغة أداة . وقد اختار طريقه اختيارا لا رجعة فيه . وهو طريق فرضه عليه مسلكه الشعري في اعتبار الكلمات أشياء في ذاتها ، وليست بعلامات لمعانٍ ..

والكلمات للمتحدّث خادمة طيّعة ، وللشّاعر عصيّة أبية المراس لم تستأنس بعد ، فهي على حالتها الوحشية .

والكلمات للمتحدّث اصطلاحات ذات جدوى ، وأدوات تبلى قليلا قليلا باستخدامها ، ويطرح بها حين لا تعود صالحة للاستعمال ، وهي للشاعر أشياء طبيعية تنمو طبيعية في مهدها كالعشب والأشجار ..

---

[1] كولردج : سيرة أدبية (النظرية الرومانطيقية في الشعر) ، ترجمة : د. عبد الحكيم حسان ، دار المعارف بمصر 1971 ، ص 287 .

[2] C.F., Structure du language poétique , Flammarion, Paris,1966. p.91.

واللغة للشاعر مخلوق له كيانه المستقل . ولكنها للمتكلّم مجال نشاطه حيـــــن يستعين بالكلمات التي تمثّـل وحدة اللغات >> [1] .

يمكن لنا ، بعد هذا ، أن نطرح على أنفسنا أسئلة نقدية هامّة منها : ما مدى توفيق الشاعر في استعمال لغته استعمالا فنيا ؟ وإلى أي حدّ قلّد من سبقه أو جدّد ؟ وهل كانت هذه اللغة راقية بعيدة عن حديث الناس في حياتهم ، أم وضيعة تتّسم بالنبرة الخطابية والمباشرة وعدم القدرة على اختيار ألفاظها المناسبة ؟ ، وغير ذلك من الأسئلة التي قد تخطر على ذهن كل متلـــقٍّ .

إن من أخصّ خصائص الخطاب الأدبي ، عامة ، اشتماله على ظاهـــــــرة " الاختيار " (Sélection) التي تعني أن الأديب حينما يأتي باللفظ أو التركيب فإنه يقصدهما قصدا ، ولا يبغي عنهما بديلا للوصول إلى ضبط ماهية الأسلـــــــــوب التي << تمتـزج ، في بعض الأحيان ، بكل مقتضيات عملية الإبلاغ اللساني ، فلا تتميز بالسمة الإبداعية ، وتظلّ شعاعا لدائرة الحدث الخطابي عامّة >> [2] .

ويؤكـّد أغلب الأسلوبيين الغربيين هذا الرأي ، فالأسلوب عند " سبتـــــــزر " (Spetzer) << إنما هو الممارسة العملية المنهجية لأدوات اللغة >> [3] .

بينما يراه " ماروزو " (Marouzou) << موقفا يتّخذه المستعمل للغة ، كتابـــة أو مشافهة ، ممّا تعرضه عليه من وسائل >> [4] .

---

[1] جان بول سارتر : ما الأدب ؟ ، ترجمة وتقديم وتعليق : د. محمد غنيمي هـــــــــــلال ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، د.ت. ، ص ص13-15 .

[2] د. عبد السّلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، ط02: 1982 ، ص75 .

[3] نفســـــــــــه : ص76 .

[4] نفســـــــــــه : ص76 .

ويذهب " ڤابيلانتز " (Gabelentz) إلى أن الأسلوب << ينطوي على تفضيل الإنسان بعض طاقات اللغة على بعضها الآخر في لحظة محدّدة من لحظات الاستعمال >> [1] .

ومن هنا يتبدّى دور مقياس الاختيار في الدراسة الأسلوبية ، لأنه يكرّس في مرحلة درس الكلمة ، بوصفها مرحلة أساسة في الدراسة الأسلوبية ؛ إذ إنها تمدّ الباحث بالعون في التعرّف ، بشكل دقيق ، إلى خصائص الجملة التي تمثّل نموذجا أسلوبيا مركّبا من عديد كلمات .

نصل ، بعد هذا ، إلى طرح سؤال ملحّ وضروري ، يتعلّق بماهية خصائص المفردة ، كما هي في شعر هذه الدراسة ، انطلاقا من عدّة نماذج ؟ وبِمَ تتميز المفردة الشعبية ، على الأقل صوتيا ، عن الفصيحة ؟ وأخيرا ما هي الكيفية التي استعملت بها من قِبل الشاعر في خطابه ؟

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة ، يحسن بنا ، أولا ، الوقوف عند أنواع اللغة الشعبية عامة . فقد حُدِّدت بأنماط << ثلاثة وهي :

1. المتفاصح : والمقصود به اللهجة القريبة من الفصحى بقدر كبير .
2. العامي الخالص : والمراد به اللهجة الدارجة التي درج عليها الناس ، وهي تقترب من لغة التخاطب بين الجماهير الشعبية .
3. اللهجة البدوية : وهي المتداولة بين شعراء الملحون في البوادي ، وقاموسها مزيج من المتفاصحة ومن العامية >> [2] .

---

[1] المرجع السابق : ص76 .

[2] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص540 .

وعلى كل ، فإن العامية الجزائرية ، << وكل عامية أخرى في البلاد العربية ، لن تكفّ عن التزوّد من قاموس اللغة الفصيحة ، ولن تكفّ اللغة الفصيحة عن التأثّر بجوّ العامية وأساليبها >> [1] ، لأنها لغة مرنة ، ترتكز على قاعدة ثابتة << تجتذب اللهجات العامية كالمغناطيس ، لأن العامية في كل بلد عربي ليست لغة مستقلة ، وإنما هي فرع لغوي متحرّك دائما ، متغير بلا انقطاع ، يستعجم في عهود الانحطاط القومي والاجتماعي ، ويستعرب في عهود الصّعود القومي والاجتماعي .. >> [2] .

والقارئ لشعر هذه الدراسة يدرك ، دون عناء ، أن لغته << ليست فصيحة قطعا وليست بعيدة نهائيا عن الفصحى >> [3] ، وبعبارة أخرى فإن هذه اللغة << من الصعب وصفها أو تحليلها ، ولكنها على وجه القطع ليست عامية ، وعلى أساس الترجيح فصحى راعت السهولة في إنشائها >> [4] .

وربّما ساعدها على ذلك طابعها الدّيني الجادّ ، ما جعلها في منأى عن اللفظ السوقي والعبارة الموغلة في العامية ، القريبة من الحديث اليومي .

ولابن خلدون [5] رأي حول لغة الأدب الشعبي ملخّصه أن هذه اللغة مستقلّة بذاتها ، فهي في المشرق والمغرب وإفريقية والأندلس ، تعبّر عن حاجات مستخدميها ، وكل منهم يصل ، بلغته ، إلى تأدية مقصوده والإبانة عمّا في نفسه ، وهذا معنى

---

[1] أبو بثينة : الزجل العربي ، ماضيه .. وحاضره .. ومستقبله ، دار الهلال : يونيه 1972 ، ص13 .

[2] نفسه : ص15 .

[3] د. العربي دحو : الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس ، ج1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1989 ، ص195 .

[4] محمود ذهني : الأدب الشعبي العربي ، مفهومه ومضمونه ، دار الأدب العربي للطباعة 1972 ، ص81 .

[5] انظر : المقدمة ، 727/2 .

اللسان واللغـــة .

والألفاظ التي تستخدمها هذه اللغات لا تتّفق ، في نطقها ، مع لغة مضر ؛ إذ تتباين فيها طريقة نطق الأصوات ، وتغير الألفاظ باختصار الحروف أو إبدالها بغيرها أو تقديمها أو تأخيرها ، وهذا هو الذي يسمّى عند النحاة لحنا .

وهذه اللغات هي المسمّاة عندنا لهجات شعبية ، وأن بإحداها تشكّلت صناعة الأدب الهلاليـــــــــــــة .

واللهجات ، بعامة ، لا تقلّ أهمية عن اللغة حسب منظور ابن خلدون ؛ فالمتأخّرون << والكثيـر من المنتجين للعلوم (أي الحضر) لهذا العهد ، وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم (أي البدو) إذا سمعها ويمجّ نظمهم إذا أنشد ، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها ، وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم >> [1] ، وذلك لأن الإعراب هو المحكّ الذي يقوم عليه الخطـــــاب في الكلام الفصيح .

وعلى العكس من ذلك ، فإن لغة العامّة << لا تستعمل الإعراب ، بل تعتمد ، للتبليغ ، على قرائن الألفاظ التي هي ، في حدّ ذاتها ، نتيجة اصطلاح بين المتخاطبين ، وإنما يدلّ على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه ، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة >> [2] .

إن هذه القراءة التفسيرية هي التي مكّنت << ابن خلدون من تحطيم هالة القدسية التي بها عملت قوانين النّحاة على إحاطة اللغة العربية الفصحى (الكلاسيكية)

---

[1] المصدر السابق : ص465 .

[2] نفســـــــــه : ص465 .

دون اللهجات العامية >> [1] .

ومن قبلُ ، تقرّر أن << الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة ، ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه ، لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه ، وهم الناطقون باللغة ، فوجب اتباعهـم .

والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ما جرى مجراهما ، وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتّصفين بصفة الفصاحة والبلاغة ، ولهذا لم يكن اللحن قادحا في حسن الكلام ، ..

فتبيّنْ ، بهذا ، أنّه ليس الغرضُ من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته ، وإنما الغرض أمرٌ وراء ذلك >> [2] .

ولذلك فإن الأذواق في معرفة البلاغة ، كما يرى ابن خلدون [3] ، إنما تحصل لمن خالط لغة ما بالاستعمال الكثير والتخاطب بها مع أصحابها ، حتى تحصل له الملكة . فلا الأندلسي يشعر ببلاغة شعر المغربي ، ولا المغربي يدرك بلاغة شعر الأندلسي ، ولا المشرقي يتذوّق بلاغة شعر الأندلسي والمغربي ، لأن كل واحد من هؤلاء عارف ببلاغة لغته ، وذائق حسنات الشعر لدى بني جلدته .

ويضيف بأن سبب إنكار الكثير من الناس لهذا النوع من الشعر يعود إلى انعدام

---

[1] د. عبد الرحمن أيوب : من مقاله " منهجية ابن خلدون في تحليل الشعر البدوي الهلالي " ، الحلقة الأولى ، مجلة الفكر (التونسية) ، ع07 ، س29: أفريل 1984 ، ص95 .

[2] ابن الأثير (ضياء الدين) : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج1 ، قدّم له وحقّـقه وشرحه وعلّـق عليه : د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانـــــــــــــــة ، منشورات دار الرفاعي بالرياض ، ط02: 1983 ، ص ص69 ، 70 .

[3] انظر : المقدمة ، 790/2 .

الملكة النقدية عندهم . ولو حصلت لأحدهم << (أي الناقد الحضري) ملكة من ملكاتهم (أي الشعراء البدو) لشهد له بطبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظره ، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه >> [1] .

فبلاغة الشعر ، إذن ، سواء كان معربا أم شعبيا ، إنما تكمن في تأثير هذا الشعر في متلقّيه ، ومدى مطابقته لمقتضى حالهم . بل إن هناك رأيا يذهب إلى أنّه يوجد << في التعابير الشعبية من أنواع البلاغة ما لا يقلّ شأنا عن بلاغة اللغة الفصحى >> [2] .

ولا ينبغي أن يُفهم من هذا الكلام أننا نحاول الدفاع عن اللهجة الشعبية أو تفضيلها ، وإنما نريد بيان معيار نقدي ، نقرأ ، من خلاله ، نوعين من الشعر : أحدهما التزم بأدوات اللغة الفصيحة ، والآخر اتّخذ من اللهجة وسيلة للتعبير عنه . وكلاهما يحظى بمنزلته في إطاره الخاص به كفنٍّ إبداعي له خصائصه الجمالية .

****

وفيما يلي عرض لأهم خصائص المفردة ، بوصفها العنصر الأساس في اللغة الشعرية ، انطلاقا من بعض النصوص المتوافرة لدينا في هذا البحث ، والتي تهمّ كلا من تشكيل المفردة صوتيا وبنيويا ..

---

[1] المصدر السابق : ص758 .

[2] أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ج1 ، طبع لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة 1953 ، ص03 .

1. التّشكيل الصّوتي للمفردة

انطلاقا من أن << أهمّ ما يميِّز الصيغة الشعرية أنها صوتية ، فالشاعر لا يُنْطق شعره فحسب ، وإنما يحاول أن ينغِّمه ، ينغّم ألفاظه وعباراته حتى ينقل سامعيه وقارئيه من اللغة العادية التي يتحدّثون بها في حياتهم اليومية إلى لغة موسيقية ترفعهم من عالمهم الحسي إلى عالمه الشعري >> [1] .

انطلاقا من هذا فإن الحديث عن << جماليات التشكيل الصوتي يرمي إلى معرفة التفسيرات الأدبية التي وُفّقَ إليها نقادنا العرب المتقدّمون >> [2] .

وعلى خطى هؤلاء سار المحدثون ، ومنهم تمّام حسّان الذي يذهب إلى أن دراسة الكلمة - المفردة – تتحقّق وفق << الناحية الأصواتية عن طريق وصف مخارج أصواتها وطرق النطق بها وصفاتها ، فيقال ، مثلا ، إن الصوت الفلاني من أصوات هذه الكلمة يخرج من المخرج الفلاني وهو شديد أو رخو أو مركّب أو متوسِّط ، وهو مهموس أو مجهور ، مطبق أو مغور أو محلق >> [3] .

ويزيد على ذلك ، مشيرا إلى القصد الدلالي ، أن المقابلة << بين مجهور ومهموس ثمّ مفخم ومرقّق ثمّ صحيح وعلّة ، ثمّ شديد ورخو ومركّب ومتوسِّط ، ثمّ بين طويل وقصير ، وبين مخرج ومخرج آخر ، وبين النّبْر وعدمه ، وبين اللّحن الأوّل واللّحن الثّاني ، كل أولئك وما يتّصل به من فهم دلالة ، كل مقابل من هذه المقابلات هو الأساس الذي عليه علم التّشكيل الصّوتي >> [4] .

---

[1] د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ص113 .

[2] د. تامر سلّوم : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية (سورية) ، ط01: 1983 ، ص14 .

[3] مناهج البحث في اللغة : دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب 1974 ، ص57 .

[4] نفسه : ص112 .

نصل ، بعد هذا ، إلى أن الأساس الذي تقوم عليه الدراسة الصوتية للمفردة وتنطلق منه إنما هو المخرج ، ثمّ كيفية النطق المسمّاة بالصّفة [1] .

على أن الصوت الذي تتبني عليه المفردة يدخل إمّـــــــا :

1. ضمن الأصوات المجهورة وهي تسعة عشر حرفا : << ء ، ا ، ع ، غ ، ق ، ج ، ي ، ط ، د ، ز ، ظ ، ذ ، ب ، م ، و ، ض ، ل ، ن ، ر ، >> [2] .

وإمّـــــا :

2. في إطار الأصوات المهموسة وعدد أحرفها عشرة وهي : << " ت ، ث ، ح ، خ ، س ، ش ، ص ، ف ، ك ، هـ " ، ويجمعها قولـــــــــــــــــك : " حثّـه شخص فسكت " >> [3] .

---

[1] يبلغ عدد مخارج الحروف في اللغة العربية خمسة عشر مخرجا وهي : << المخارج الجوفية وعددها أربعة مخارج ، والمخارج اللسانية وهي تسعة مخارج ، والمخارج الشّفوية وهي مخرجان >> .
(عبد المنعم سيد عبد العال : معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس - ليبيا - ، ط02: د.ت. ، ص45)
بينما يصل عدد صفات الأصوات إلى ثلاث عشرة صفة وهي : << الجهر والهمس ، الشّدّة والرّخاوة والتّوسّط بينهما ، الإطباق والانفتاح ، الاستعلاء والانخفاض ، والصّمت ، الصّفير ، اللـّين >> .
(معجم الألفاظ العامية : ص43)

[2] نظرية اللغة والجمال في النقد العربي : ص16 .
الصّوت المجهور هو << حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النّفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصّوت >> .
(نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي : ص ص16 ، 17)

[3] معجم الألفاظ العامية : ص43 .
الصوت المهموس هو : << حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النّفس >> .
(نظرية اللغة والجمال في النقد العربي : ص17)

وقد توصّل الاستقراء إلى أن الغالب في الأصوات اللغوية إنما هي المجهورة ، ذلك << أن نسبة شيوع الأصوات المهموسة في الكلام لا تكاد تزيد على الخمس أو عشرين بالمائة منه ، في حين أن أربعة أخماس الكلام تتكوّن من أصـــــــــــوات مجهـــــورة >> [1] .

وسنتعامل ، الآن ، مع بعض النصوص محاولة منا للتطبيق عليها ، بوصفها سلسلة صوتية مشكّلة من أصوات مجهورة ومهموسة .

النص الأوّل :

يقول العليـــــــــــــــوي [2] في قصيدتـــــــــــــــــــــــــــــه

---

[1] إبراهيم أ نيس : الأصوات اللغوية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط03: 1961 ، ص22 .

[2] - هو << أحمد بن مصطفى بن محمد بن أحمد ، المستغانمي ، أبو العباس ، الشهير بالعلوي ، وبابن عليوة .. عُرف بعدائه الصريح للحركة الإصلاحية الإسلامية بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ..

من آثاره : " المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية " و " الأنموذج الفريد " و " القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول " و " لباب العلم في سورة النجم (تفسير) " و " دوحة الأسرار في معنى الصلاة على النبي المختار " و " نور الإثمد في سنة وضع اليد على اليد " و " الرسالة العلوية (منظومة في أصول الدين) " و " القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف " و " رسالة الناصر معروف في الذبّ عن مجد التصوف " و " ديوان " من نظمه >> .

(عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ، ص367)

- وقد تلقى تعليمه الديني على يد أستاذه البوزيدي الذي كان ينتمي إلى الطريقة الدرقاوية . وبعد وفاتـــــه عام 1909 ، هاجر ابن عليوة إلى الشرق الأدنى . وقد تنقّل بين مصر وسورية ، وإيران ، والهند ، وهي الرحلة التي دامت عشر سنين .

وبعد الحرب عاد إلى الجزائر ، وبدأ في نشر أفكاره ، فأوجد جريدة " البلاغ الجزائري " التي كانـــت من أكثر الجرائد العربية الأسبوعية انتشارا ، وقتئذ ، داخل الجزائر وخارجها ..

(انظر : - د. سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص ص417 ، 418) =

" أيَا مُريـــــــــدَ اللهْ " [1] :

أَيَا مُرِيدَ اللهْ نُعِيدْ لَكْ قَوْلَ اصْغَـــــــهْ

إِذَا تَفْهَمْ قَوْلِي بِهْ تُصـــــــــــــلِ للهْ

عَلِيكْ يَا مُرِيدْ بْخَمْرَة التَّوْحِيـــــــــدْ

وَإِنْ تَبْغ الْمَزِيدْ فَالْغِيرْ عَنْكَ انْسَـــــــاهْ

فَاذْكُرْ الاَسْمَ الاَعْظَمْ وَاطْوِ الْكَوْنَ تَغْنَـمْ

وَخُضْ بَحْرَ الْقِدَمْ فَذَاكَ بَحْـــــــرَ اللهْ

وَخُضْ بَحْرَ الأَنْوَارْ وَالْمَعْنَى وَالأَسْرَارْ

وَافْنَ هَذِي الدِّيَارْ يَبْلَغْ قَلْبَكْ مُنَـــــاهْ

وَلْتَفْنَ فَالْمَعْبُودْ تُذُقْ مَعْنَى الشُّهُـــودْ

إِذْ لَيْسَ ذَا الْوُجُودْ إِلاَّ مِنْ نُـــــورِ اللهْ

= - أسّس ابن عليوة زوايا في الجزائر وفي فرنسا . وقبل وفاته في 14 جويلية 1934 ، كان له أتباع في تونس ، والمغرب ، وليبيا ، واليمن ، وسوريا ، ..

(C.F.,Berque,Augustin : Un mystique moderniste le cheikh Benalioua . in R.A., Vol.79: 1936 , p692 .)

- أما معاصروه الجزائريون ، وخصوصا العلماء ، فقد أكّدوا أن ابن عليوة كان أميا ، وأن ما نُسِب إليه من كتابات كان من إنشاء أتباعه ..

(انظر : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص418)

- ومن حسناته أنه << شجب معاملة الفرنسيين للجزائريين كسلالة ناقصة ، واضطهادهم للنظم العربية . وقد هاجم كلا من البعثات التبشيرية المسيحية والشيوعية في الجزائر ، كما هاجم الحضارة الأوروبية المادية ، والخطّة الفرنسية لتجنيس الجزائريين >> .

(الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، ص419)

[1] ديوان العلاوي : المطبعة العلاوية بمستغانم ، ط04: د.ن. ، ص ص72 ، 73 .

الْمَلْكُ وَالْمَلَكُوتْ كَذَاكَ الْجَبَـــــرُوتْ

فَكُلُّهَا نُعُوتْ وَالذَّاتُ مُسَمَّـــــــــاهْ

فَغِبْ عَنِ الصِّفَاتْ وَافْنَ فِي ذَاتِ الذَّاتْ

هَذِي تَلَوُّنَاتْ مَصِيرُهَـــــــــا للهْ

إِلَيْهِ الْمُنْتَهَى وَمِنْهُ الْمُبْتَـــــــــدَا

وَالآنَ قَدْ بَدَا وَالْكَوْنُ فِي حُـــــــلَاهْ

لَهُ الْكَوْنُ مِرْآهْ وَمَظْهَرُ الصِّفَـــــاتْ

مُحَمَّدْ نُورُ الذَّاتْ عَلِيهْ صَلَّـــــى اللهْ

الْعَلَاوِي يَقُولْ قَوْلْ مَنْ مَقْبُـــــولْ

تَهِيمْ بِهِ الْعُقُولْ تَغِيبْ فِـــــي ذَاتِ اللهْ

النص الثاني :

يقول البوزيدي [1] من قصيدته " أيَا مُرِيدَ اللهْ " [2] :

أَيَا مُرِيـــــــدَ اللهْ نُعِيدْ لَكْ قَوْلَ اصْغَـهْ

إِذَا تَلَاحَظْ قَوْلِـــــي نُوصِيكْ لُـوَجْهَ اللهْ

كُنْ وَالَهْ تَايَـــــهْ مَسْرُورْ بْذِكْـــرَ اللهْ

فِي الإِسْمِ إِذَا تَفَنَّـــى تَصِلْ لْمُسَمَّـــــاهْ

إِذَا ذْكَرْتُه بَـــادَرْ بَالْجَدْ وَالْحَزْمَ مْعَـاهْ

كُـــــــنْ للهْ بَالله فِي اللهْ وَالْغَيْرَ انْسَاهْ

---

[1] محمد بن الحبيب : شاعر وشيخ طريقة من مستغانم . توفي عام 1909 .

[2] ديوان محمد البوزيدي : المطبعة العلاوية بمستغانم ، ط04: د.ت. ، ص ص123-125 .

إِذَا ذُكِرْتَ الْمَوْلَـى فَاهْتَزّ بْذِكْـــرَ اللهْ
جُلْ فِي مَعْنَى الْهَـــا وْحِـرْ فِي مُسَمَّـاهْ
غُصْ فِيمَنْ تَهْـوَى بَالْقَلْبْ وَالرُّوحَ امْعَاهْ
غِبْ فِي غَيْبَ الْغَيْـبْ تْغِيبْ عَمَّا سِـــوَاهْ
إِذَا ذُكِرْتُه بَالْجَـــدْ تَرَى مَا لَا تَـــرَاهْ
كُلَّ مَا تَهْـــــوَاهْ مَوْجُودْ فِي ذَاتِ اللهْ
كُنْ فَانِي عَنْـــكَ مَوْجُودْ بِهْ وِلِـــهْ
تْصِيرْ بَاقِي بِـــهْ مَحْفُوفْ بِلُطْفَ اللهْ
زُلْ مَنْكَ عَنْـــكَ لِتَبْقَـــاهْ
إِذَا تْحِيدْ نَفْسَـــكْ مَا تْجِـــدْ إِلَّا اللهْ
إِذَا قِيل لَـــكْ مَنْ تَهْـــوَى قُلَ اللهْ
أَنَا بِهْ وَالَـــهْ مَشْغُـوفْ بْحُبَّ اللهْ
مَنْ هُو قَرِيبْ لْذَاتِي مُحَالْ قَـلْبِي يَنْسَـــاهْ
قَرِيبْ مَنِّـي لِـــيَّ وَالْقُرْبْ خَافِي مَعْنَاهْ

النص الثالث :

يقول عدّة بن تونس [1] من زجل له [2] :

مَالَ الْحْبِيبْ رَاهَ اجْفَانِي
تَاجْ الاَقْطَابْ سِيدِي احْمَدْ يَا الاَخْـوَانْ

---

[1] شاعر وشيخ طريقة من مستغانم . توفي عام 1952 .

[2] ديوان عدّة بن تونس (ديوان آيات المحبين في مقامات العارفين) : المطبعة العلاوية بمستغانم ، ط03: د.ت. ، ص ص45-50 .

مَنْ حُبـُّه اسْكَنَ اكْنَانِـي

ظَنّيتْ فِيهْ مَوْلاَيَ غَالِي الشَّـــــانْ

عَنْدُه اعْـزِيزْ مَا يَنْسَانِي

لله يَا امَامَ اهْـــــلَ اللهْ بَرْكَاكْ امْنَ الْجْفَـا يَا سِيدِي

إِذَا دْنَبْتْ يَا غَـــوْثَ اللهْ أَنَـا ضْعِيفْ خُذْ بْيَـــــدِّي

أَجِينِي انْشُـــــوفَكْ لله رَانِي غْرِيبْ بَاقِي وَحْـــدِي

حُبَّكْ فَالصُّغْرَ امْلَكْـنِي

مَشْغُوفْ بِكْ قَلْبِي دَايَمْ نَشْـوانْ

بِينْ الْعْبَادْ بِكُمْ غَنِـــــي

نَارَ الْفْرَاقْ حَمْلَتْ مَـرَّه قَلْبِي اكْوَاتْ كَمْ مَنْ كِيَـــــه

تَحْكِي عِلِيهْ [1] وَلِّي جَمْرَه مَن نَـارْ حُبّْكُمْ اقْـوِيَـــه

رَانِي عْلِيلْ بَغِي نَظْـــرَه تَضْحَى جْوَارْحِي مَرْقِيَـه

النص الرابع :

يقول المنور بن يخلف [2] من قصيدته " يَا رَايَسْ الْوْلاَيَا " [3] :

يَا رَايَسْ الْوْلاَيَا ظَنّيتَكْ جَافِـــــي لله غِيثْنِي يَا قُطْبَ الصِّـــــلاَحْ

يَا شَجْرَةَ الدِّفَا لِكَ اسْنَدْتَ اكْتَافِـي فَالْجَاهْ جَبْتْ لَكْ مَنْ يَقْرُوا لَلْـــوَاحْ

ظَهْرُوا كْرَايْمَكْ يَا نَجْلَ الْمَصْطْفَى نَبْغِي اتْوَدِّنِي بَشْرَابَكْ نَرْتَـــــاحْ

---

[1] بمعنى تحسبـــــــــه .

[2] شاعر من ناحية مستغانم . توفي سنة 1921 .

(انظر: الكنز المكنون ، ص15)

[3] الكنز المكنون : ص ص15-19 .

رَبَّ الإِلَهْ هَبْ لَكْ بَالصَّاعَ الْوَافِي الأَمْطَارْ بِكْ تَنْزِلْ وَارْعدْ واريَاحْ

****

عَارِي عْلِيكْ يَا جَبَّارَ الْمَكْسُورْ يَا نَدْهَةَ الشَّدَايَدْ مُولَى بَغْدَادْ
قَالُوا عْلِيكْ كُنْتَ انْجِيبَ الْمَيْسُورْ وَاللِّي يْكُونْ طَايَحْ بِينْ الأَعْقَادْ
وَاللِّي اخْدِيمْ بَشْبُوبَكْ لَيْسَ يْبُورْ فْكُلْ يُومْ لِيهَ الرَّاتَبْ يَنْزَادْ
فَالْمَلْكْ وِينْ رُحْتَ انْصِيبَكْ مَذْكُورْ مَنْ فَاسْ لَلْعْجَمْ وبَرْ الأَكْرَادْ
سَاعَه جْمِيعْ مَا قَالُوا صُبْتُه زُورْ اللِّي يْتَبْعَكْ يَكْوِيهَ التَّنْهَادْ

بَهْوَاكْ عَايْرُونِي قَالُوا مَدَّاحْ

الْمَدْحْ صَنْعْتِي وانْتَ حَقَّ اكْتَافِي عَيْطَى[1] اجْبَاحْ عَمْرُوا مَنْكْ بَاصْلاَحْ
الْجُودْ شِيمْتَكْ غِيرَ ابْغِيتَ انْجَافِي قَصَّرْتْ فَاشْكَارَكْ قَلْبَكَ اقْسَاحْ

النص الخامس :

يقول الكلاعي [2] من قصيدته " كَانَ انْتُمَا زَيَّارْ " [3] :

كَانَ انْتُمَا زَيَّارْ لَلشَّرِيفْ الْقُطْبَ الرَّبَّانِي

بَسْلاَمِي عِيدُوهْ يَا صْحَابْنَا لَمْغِيثَ الْخُطَّارْ

قُولُوا لُه إِذَا انْسِيتْنِي ذَا الشِّي عَيْبَ اوْعَارْ

قُولُوا لُه عَيْبَ عْلَى اللِّي اهْدَى تَلْمِيذُه بَرَّانِي

مَجْهُولَ النَّسَبْ مَا يْكُون لُه فَالدَّنْيَا نَعَّارْ

---

[1] عامية : بمعنى كم الخبرية .

[2] من منطقة معسكر . توفي حوالي عام 1908 .

(انظر : الكنز المكنون ، ص176)

[3] الكنز المكنون : ص ص176 ، 177 .

اَقْبَلْنِي كِيمَا كُنْتْ لاَ اتْشَقِّي فِيَ عَدْيانِـــــــــــي

ولَو فَعْلِي مَذْمُومْ تَسْتُرُه سَرّاً وَجْهَـــــــــــــارْ

هِبَه ابْلاَ تَعْوِيضْ خُدّهَا وَاقْبَلْهَا وَارْضَانِـــــــي

مَسْتَدْرَكْ بَالشّرُوعْ كَافَـــه فَالذّاتْ اوْ الاَبْصَـــــارْ

مَانِي طَايَقْ وَاغْنِيتْ زَعْمَ دَسِّيتْ كَسْبَ الْفَانِـــــي

مَا نَكْسَبْ هَنْتُه لِكْ حَاضَرْ وَالْغَايَبْ حَوْزَ اخْتَـــارْ

مَا عَنْدِي مَثْلَكْ سِيدْ يَا قْوِيدَرْ غَوْثَ الشّقْفَانِـــــي

أَنْتَ نَدْهَه لَلِّي ايْكُونْ غَارَقْ وَسْطَ الْبْحَـــــــارْ

بِكَ اسْقَايَنْ غَرْقُوا اوْبِكْ سَلْكُوا بَادْنَ الْفُوقَانِـــــي

دَعْوَتَكْ مَسْتْجَابَه عَنْدْ رَبِّي كِيمَا نَخْتَـــــــارْ

سُلْطَانَ اوْ قُطْبَ اوْ غَوْثْ كَامْلَه فْجَمْلَةْ الاَرْكَـــانِ

تَتْصَرَّفْ كِحَبِّيتْ فَالْعْمَارَه وَارْضَ الْقْفَـــــارْ

تَحْتَ اقْدَامَكْ خَضْعُوا امْلُوكْ لْكَتَنْ [1] سَرَّكْ رَبَّانِي

شَلَّى [2] امْنَ الْعُلَمَا اعْلَى اخْصَالَكْ جَعْلُوا الاَسْقَـارْ

---

[1] لأنّ .

[2] كثير .

النص السادس :

يقول محمد بن يلس [1] من موشّحـــــــــــــــــــــــه

[1] << هو العارف بالله ، المستغرق في محبّة رسول الله ، ناصر لواء الشريعة ومعدن الحقيقة ، المرشد الكامل ، ذو الأخلاق الطاهرة والمحامد .
الولي الصالح : سيدي محمد بن الحاج علال بن بلحسن بن الحاج علي بن محمد يلس شاوش .
وُلِد سنة 1271هـ ، وتربّى يتيما في كفالة عمّه سيدي محمد بن يلس ، فقام بتربيته ، وأغدق عليه النعم ، وكان مرضيا مخلصا في طاعة ربه ، محبا لنبيه .
وكان من صغره يجتمع مع رفقائه في مكان لهم في حومة الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد السنوسي الشريف الحسب ، صاحب التوحيد بدرب الصوفية . وكانوا يحبون العلم والعلماء حتى اتصلوا بالعلامة العظيم الفقيه الجليل .. سيدي أحمد بن محمد الدكالي ، وأخذوا عنه العلم النافع من عربية وفقه وتوحيد وتصوف ، وكانوا يحضرون على غيره من علماء وقتهم ، كالعلامة النحرير .. سيدي محمد بن أحمد الحرشاوي المدرس في الجامع الكبير ، المتوفّى بتلمسان . والفقيه العلامة الناسك العابد سيدي محمـد ابن الشيخ بن دحمان : مدرس في سيدي إبراهيم ، دفيـن العباد ..
.. وهو أن الشيخ سيدي محمد بن يلس أخذ الطريقة عن العلامة الدكالي المذكور ، ودلّــه على شيخه العارف بربه .. محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن الجيلاني بن عبد الله بن عزّة بن الشريف الحسني .. ، فاجتمع به ولقّــنـه الذكر الخاص ، ونال ، بذلك ، السر المصون ، والعلم المكنون . وعند ذلك أذن له بإرشاد الناس لذكر ربهم ، والاجتماع عليه ، والقيام بدينه ، واتباع سنة حبيبه ورسوله . ثمّ سافر مع شيخه لأداء فريضة الحج سنة 1305 ، فرأى الكرامات الكثيرة ، ..
وفي يوم الاثنين 23 رمضان سنة 1317هـ انتقل إلى رحمة الله فضيلة شيخه سيدي الهبري .
بعدها سافر إلى بلاد الريف في المغرب الأقصى ، حيث بقي سنة ، ثمّ رجع لتلمسان فوجد الناس مشتاقة إليه ولدروسه وإرشاده ونصائحه ، فنهض بهم إلى الله بالعلم والذكر والمذاكرة ، وبعث فيهم روح الإخلاص والمراقبة ، حتى أصبحت تلمسان باديها وحاضرها ، كبيرها وصغيرها يلهجون بذكر الله والصلاة على رسول الله .
ثمّ اجتمع بالمربي .. العارف بالله الشريف الحسني الشيخ سيدي محمد بن حبيب البوزيدي المستغانمي ، وهو أخو شيخه في الطريق . وكانا أخذا (أي الشيخ الهبري والشيخ البوزيدي) الطريق وسرّهــــا =

" بَدْرَ الْكَمَالْ قَدْ لاَحْ " [1] :

بَدْرَ الْكَمَالْ قدْ لاَحْ مَعَ الصَّبَاحْ
هَذَا زَمَانُ الافْرَاحْ وَالزَّهْرْ فَاحْ
يَا سَاقِي الْخَمْرْ دَافَقْ بينَ الْغُرُوسْ
خَمْرَ الْقَدِيمْ سَابَقْ يَحْيِي النُّفُوسْ
انْظُرْ كَاسْهَا يَشْرَقْ بينَ الطُّرُوسْ
يَحْيِي الْوُجُوهَ الصِّبَاحْ إذَا اللَّيلْ رَاحْ
هَذَا زَمَانُ الافْرَاحْ وَالزَّهْرْ فَاحْ
يَا سَاقِي كُنْ لَبِقْ وَامْلاَ الْمُدَامْ

= عن شيخهما .. محمد بن قدّور الوكيلي دفين جبل كركر .

وختاما أذن الشيخ البوزيدي للشيخ صاحب الترجمة بإرشاد المريدين وتربيتهم ، ففتح الله على يديه قلوبا مقفلة ، وعيونا عميا ، وآذانا صمّا . وحصل لكل من صحبه الهداية والتوفيق والفتح المبين ..

ثمّ إنه هاجر سنة 1329هـ .. فخلفه المربي .. الشيخ سيدي الغوثي بغدادلي حتى توفّاه الله .

أما الشيخ سيدي الحاج محمد بن يلس فإنه هاجر لدمشق ، واختارها مقاما له لدعاء الرسول لها ، وإقامة كثير من الصحابة فيها ، ولِمَا امتاز به أهلها من كرم الأخلاق ، ومحبة اللاجئ إليهم ، مع جمع من الفقراء . وأقام فيها إلى أن انتقل إلى رحمة الله يوم الاثنين 11 جمادى الثانية سنة 1346 ، وكانت مدّة إقامته فيها سبعة عشر عاما ، فزادت شهرة بواسطته الطريقة الشاذلية ، وأخذ عنه الطريق كثير من أهل الشام ، .. وكان يجتمع ، رضي الله عنه ، مع كبار علمائها ، أمثال المحدّث الأكبر فضيلة الشيخ بدر الدين الحسني ، والشيخ الكبير صاحب الزاوية المشهورة الشيخ محمود أبو الشّامات ، وصاحب المؤلفات العديدة ، والقصائد الرائعة الشيخ يوسف النّبهاني ، والشيخ أمين سويد ، وغيرهم من العلماء والمحدّثين الأفاضل ، .. >> .

(مقدمة ديوان محمد بن يلس : مطبعة ابن خلدون ، ط02: د.ت. ، ص ص02-06)

[1] ديوان محمد بن يلس : ص ص24-26 .

مَنْ خَمْرَ الْعَتِيـــــــــقْ تَـشْـفَى السَّـــــــقَامْ

تَرَى فَالْقَـلْـــــوبْ رَاحَقْ لاَهْلَ الْغْـــــــــرَامْ

غْلَبْ حُبَّهَا اوْ بَاحْ فَلاَ اجْتَـــاحْ

هَذَا زْمَانَ الاَفْرَاحْ وَالزَّهْرْ فَاحْ

جدول بعدد الحروف المجهورة وفق كلّ نص :

النصوص / الحروف	ن1	ن2	ن3	ن4	ن5	ن6	المجموع
الهمزة	07	09	03	01	02	01	23
ألف المدّ	32	41	35	45	46	30	229
واو المدّ	22	19	09	22	26	07	105
ياء المدّ	22	24	41	45	36	16	184
الباء	11	24	17	23	24	09	108
الجيم	02	09	05	11	04	02	33
الدّال	11	11	07	19	13	03	64
الذال	12	08	03	01	07	04	35
الرّاء	17	18	11	26	34	17	123
الزّاي	01	04	02	03	02	09	21
الضّاد	02	00	01	00	04	00	07
الطّاء	01	01	01	04	06	01	14
الظّاء	02	01	02	02	00	01	08
القاف	09	11	07	06	08	12	53
العين	07	04	06	13	19	01	50
الغين	06	07	06	04	07	02	32
اللام	52	58	27	06	38	19	200
الميم	20	24	16	12	22	14	108
النون	21	16	25	23	34	10	129

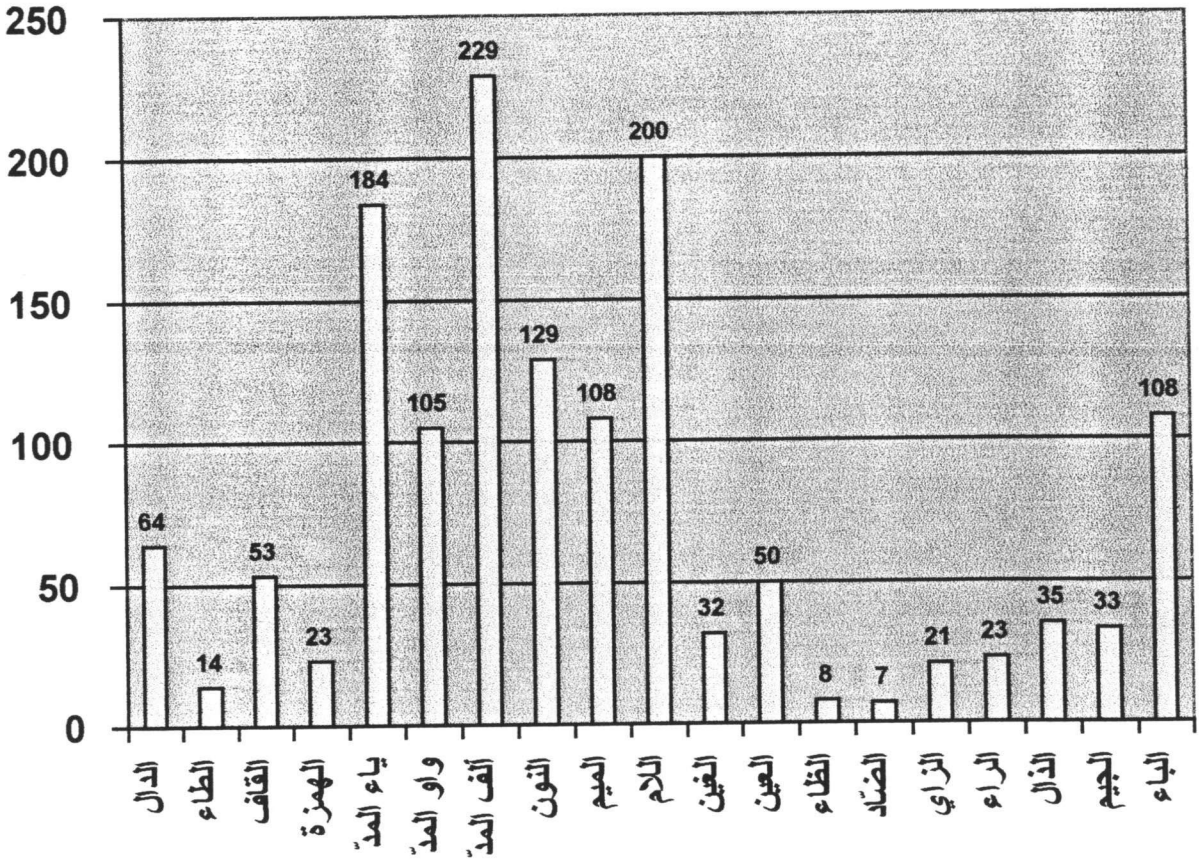

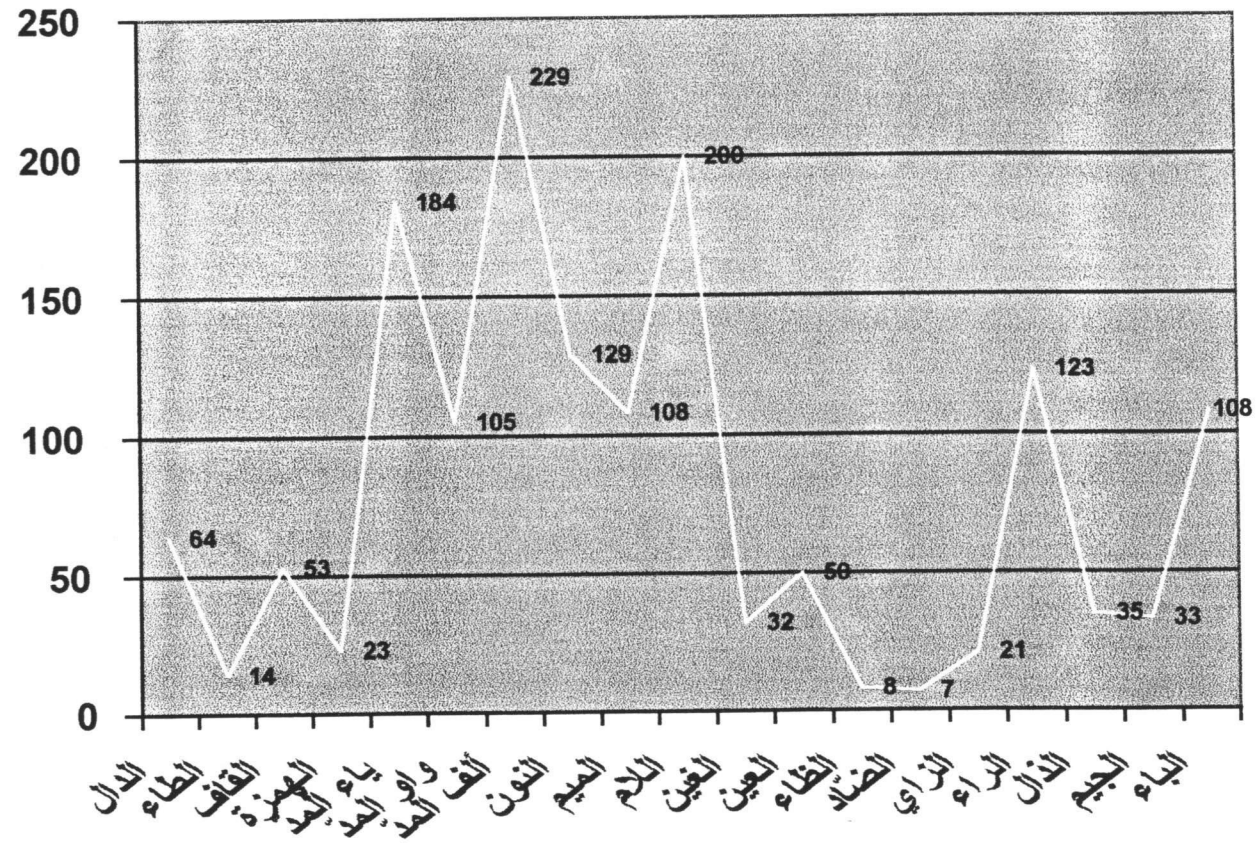

الشّكل البياني للحروف المجهورة

جدول بعدد الحروف المهموسة وفق كلّ نصّ :

النصوص / الحروف	ن1	ن2	ن3	ن4	ن5	ن6	المجموع
التّـــاء	24	19	07	23	19	03	95
الثّاء	00	00	01	01	04	00	06
الحاء	06	07	10	12	06	16	57
الخاء	03	01	02	01	03	03	13
السِّين	05	08	04	08	15	09	49
الشِّين	02	01	05	07	10	02	27
الصّاد	07	05	02	09	04	04	31
الفـاء	11	14	06	10	16	10	67
الكاف	13	14	13	26	24	03	93
الهاء	20	35	07	07	08	09	86

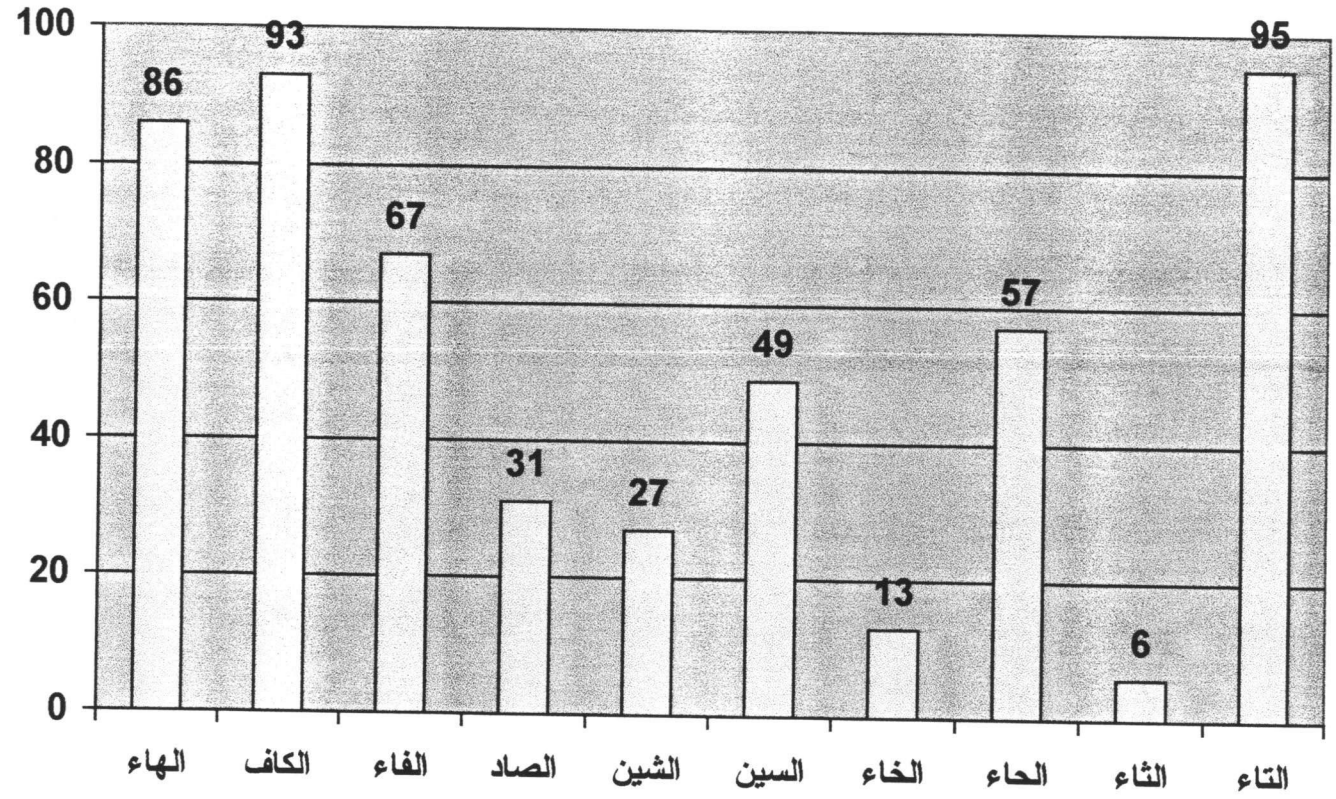

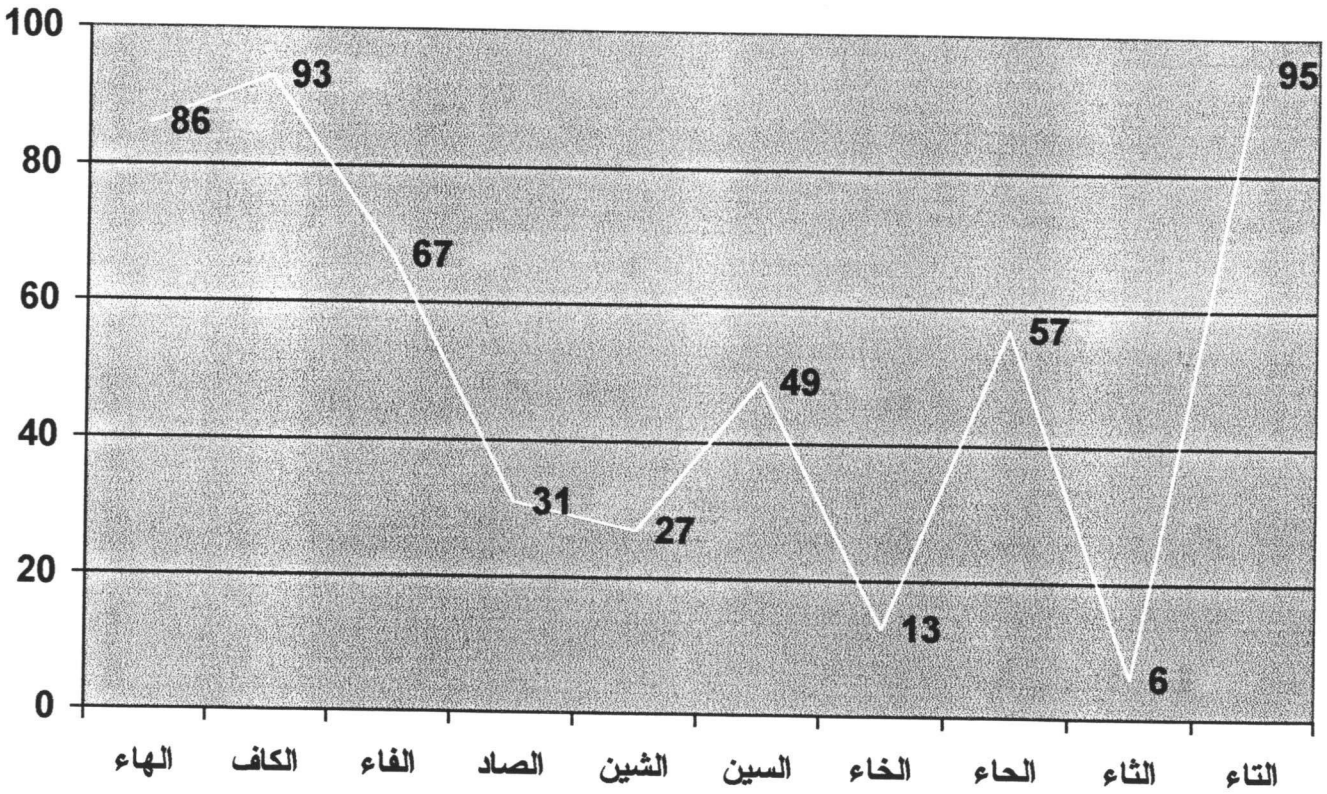

الشّكل البياني للحروف المهموسة

تحليل الجدولين :

يظهر ، من الجدولين السابقين ، أن هناك تقارباً عدديا بين أصوات اللـّين [1] والأصوات المتوسطة [2] .

وهي على التوالي :

أولا- ألف المدّ : 229 مرّة .

- واو المدّ : 105 مرّة .

---

[1] - التي تسمّى << حروف المدّ اللينة ، لأنها لانت مخارجها واتـّسعت . وأوسعهن مخرجا الألف ثم الياء ثم الواو >> .

(د. كاظم بحر المرجان : المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني ، ج1 (تحقيق) ، مخطوط رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة 1975 ، ص ص135 ، 136 .)

- والتي تسمّى أيضا << حروف العلـّة ، لأن من شأنها أن ينقلب بعضها إلى بعض ، وحقيقة العلـّة هي تغير الشيء في نفسه عن حالته الأصلية ، ولأن الحرف اللين هو أصل الإعلال >> .

(المقتصد في شرح الإيضاح : ج1 ، ص ص184 ، 185 .)

- وتُعرف لدى القدماء بالحركات وهي الفتحة والكسرة والضمة .

(انظر : ابن جني (أبو الفتح عثمان) ، الخصائص ، ج3 ، تحقيق : محمد علي النجـّـــــار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت. ، ص120 .)

- أما المدّ فهو << نـَفـَسٌ يمتدّ بعد مضي نفس الحرف ، ولذا فإنه يُعدّ بمنزلة حرف متحرّك >> .

(المقتصد في شرح الإيضاح : ج1 ، ص ص238 ، 239 .)

[2] وهي اللام والميم والنون والراء .

(انظر : مناهج البحث في اللغة ، ص104 .)

- وتُسمّى كذلك لأن منزلتها << بين تمام الانحصار وتمام الجري >> .

(معجم الألفاظ العامية : ص43 .)

- كما يُطلق عليها اسم " الحروف المعتدلة " ، وهي ما كان واحدها << بين الشدة والرخوة فهو حرف لا مفرط الصلابة ، ولا بين الضعف ، بل يكون على اعتدال بين الأمرين >> .

(المقتصد في شرح الإيضاح : ج1 ، ص225 .)

- ياء المدّ : 184 مرّة [1] .

ثانيا - الراء : 123 مرّة .

- اللام : 200 مرّة .

- الميم : 108 مرّة .

- النون : 129 مرّة .

من خلال الأعداد السابقة ، يمكن الوصول إلى الخصائص التالية :

I- وضوح النطق .

I.1- الأصوات اللينة أكثر بروزا من الأصوات الساكنة ؛ فقد لاحظ الصوتيون المحدثون أن صوت اللين أوضح بطبيعته من الصوت الساكن . وأصوات اللين نفسها ليست << ذات نسبة واحدة في الوضوح السمعي ، بل منها الأوضح ، فأصوات اللين المتّسعة أوضح من الضيقة ، أي أن الفتحة [2] أوضح من الضمة والكسرة >> [3] .

وهذه الظاهرة أكـّدها الإحصاء السابق ، وبخاصة في الألف المتـّسعة .

---

[1] تكرارها أقل ، إذا قيست بالصوتين الآخرين . ويعود ذلك إلى تعريتها من المدّ عند تحرّكها ، أو قلّة المدّ حالما انفتح ما قبلها .

(انظر : المقتصد في شرح الإيضاح ، ج1 ، ص 148 وص221 .)

[2] ليس من المستبعد أن يكون هذا هو رأي عبد القاهر الجرجاني الذي عدّ الألف << أخفّ الحروف وأعذبها جرسا ، وأمدّها نفساً >> .

(المقتصد في شرح الإيضاح : ج1 ، ص187 .)

[3] إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، ص27 .

I.2- الأصوات المعتدلة أو المائعة ، كما تُعرف في اصطلاح المحدثين [1] ، هي أكثر الأصوات الساكنة وضوحا مثل أصوات اللين ؛ إذ إن << اللام والميم والنون أكثر الأصوات الساكنة وضوحا ، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين ، ولذا يميل بعضهم إلى تسميتها " أشباه أصوات اللين " >> [2] .

ننتهي من هذا إلى أن أهمّ خصيصة غالبة في التشكيل الصوتي للمفـــــــــردة هي الوضوح .

II- خفـّة النـّطق وسهولته .

وذلك انطلاقا من الحروف المعتدلة الشبيهة بحروف اللين ، أو التي تضاهيها أحيانا .

وعلى كل ، فإن << أساس التقسيم مرجعه ، في آخر الأمر ، كيفية مرور النـّفَس في المجرى ، فكأن المجرى ينقسم إلى مناطق متميزة ، الفرق بينها لا يعدو أن يكون فرقا في درجة الاتساع ؛ فمنطقة ينحبس عندها النّفس وهي منطقة الأصوات الشديدة ، وأخرى يضيق فيها المجرى ضيقا تختلف نسبته . فهناك الضيق وهناك الأضيق ، ويكون هذا مع الأصوات الرخوة ، فإذا اتسع المجرى وخرج عن النسبة المعينة لهذه الأصوات الرخوة دخلنا إلى منطقة أصوات اللين التي تبدأ بالأصوات المتوسطة ، وتنتهي بالفتحة وألف المدّ ، ومعهما يكون المجرى أوسع ما يكون >> [3] .

أما السهولة في اللفظة فتتبدّى بعدم تنافر حروفها ، وجعلها سهلة النطـــــــق على اللسان ، وعذبة الوقع على الأذن ، الأمر الذي نصل ، من خلاله ، إلى أن كـُـــلاً من الأصوات اللينة والأصوات المائعة وسيلتان لتحقيق الخفّة والسّهولة .

---

[1] المرجع السابق : ص24 .

[2] نفســـــــــه : ص27 .

[3] نفســـــــــه : ص27 .

هذا ما يتعلـّق بخصائص التـّشكيل الصوتي للمفردة . أما تشكيلها البنيوي فذلك ما سنعرفه في الصّفحات الآتيـــــــة .

2. التشكيل البنيوي للمفردة

يستعمل المتكلّم ، بلغة معينة ، ما يملكه من مخزون لغوي تلقائي ، كونه راسخاً في معجمه الذهني الذي يمثّل ثروته المفرداتية المخزّنة .

والواقع ، إن الناس مختلفون ، في ذلك ، اختلافا بيّناً ، كلٌّ بحسب قدراته الذهنية واللغوية ، وحتى علاقاته الاجتماعية ، بوصفه كائناً اجتماعياً يأخذ ويُعطي للمجتمع الذي يعيش فيه .

ومن نافلة القول التذكير بعلاقة المجتمع باللغة ، فإن ذلك مبسوط في المؤلّفات [1] التي تناولت هذه العلاقة ، ما يجعلنا في غِنًى عن عرضها ومناقشتها ، ناهيك بأنها لا تدخل في صميم بحثنا .

ومهما يكن ، فإن ابن خلدون حدّد ، قديما ، مواصفات لغة التخاطب في الأمصار ، بشكل دقيق جدير بالنّظر فيه ، وذلك حين عدّ هذه اللغة << لغة أخرى قائمة بنفسها ، بعيدة عن لغة مضر ، وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا ، وهي عن لغة مضر أبعـــــد .

فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر ، يشهد له ما فيها من التّغاير الذي يُعدّ عند أهل صناعة النّحو لحناً . وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم ؛ فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب ، وكذا أهل الأندلـــــــس معهمـــــا ، .. >> [2] .

---

[1] أمثـــــال :
- اللغة والمجتمع للدكتور محمود السّعران ، دار المعارف بالإسكندرية ، ط02: 1963 .
- اللغة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي ، نهضة مصر 1971 .
- اللسان والمجتمع للوفيغر هنري ، ترجمة : د. مصطفى صالح ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بسورية 1983 .

[2] المقدمة : 727/2 .

إن بنية المفردة في لغة الشعر الملحون لا تختلف ، فيما نعلم ، عمـّا في لغة الشعر المُعْرب ؛ إنها ، على وجه العموم ، الأجزاء المشكـِّلة للـّغة المستعملة ، كالفعل والاسم والصِّفة والظّرف والحرف وما إلى ذلك ..

وكذلك ما يمسّ استخدامها ، إما بزيادة أو حذف أو قلب أو مدّ ، أو عدم تقيّد بالقواعد اللغوية المعيارية .

وفيما يلي بعض حالات التغاير الملاحظة على المفردة :

I- الاستغناء ، في النطق ، عن بعض الحروف الأصلية .

I.1- حذف الهمزة بعد المدّ :

كما في قول الكلاعـــــي [1] :

تَحْتَ اقْدَامَكْ خَضْعُوا مْلُوكْ لَكْتَنْ سَرَّكْ رَبَّانِـــــي

شَلَّى امْنَ الْعُلْمَا اعْلَى خْصَالَكْ جَعْلُوا الاسْفَارْ

وفي قول محمد بن يلس [2] :

بَحْرَ الْبْحُورَ الْعْمِيـــقْ هُوَ سُلْطَانْ الاَشْيَـــــا

وفي قول الطّاهر بن حوّاء [3] :

مَحْفُوظْ مَا تْرَى بَاسْ مَنْ يْرِيدُوا شَرَّكْ

مَضْمُونَ امْنَ الأَذَايَه أَهْلَ الصَّفَا ضَمَنْتُوكْ

---

[1] الكنز المكنون : ص176 .

صاحب البيت شاعر من منطقة معسكر . توفي حوالي عام 1908 .

(انظر : الكنز المكنون ، ص176 .)

[2] ديوان محمد بن يلس : ص09 .

[3] الكنز المكنون : ص52 .

صاحب البيت شاعر من أولاد سيدي بوزيد ، بالقرب من غليزان .

(انظر : الكنز المكنون ، ص52 .)

فالكلمات التي حُذِفت همزاتها بعد المدّ هي :

الْعُلَمَا- الأَشْيَا – الصّفَا .

I.2- الاستغناء عن نطق التاء والهاء في آخر الكلمة .

كما في قول عدّة بن تونس [1] :

نَارَ الْفُرَاقْ حَمْلَتْ مَـرَّه قَلْبِي اكْوَاتْ كَم مَّنْ كِيَّـه

تَحْكِي عِلِيهْ وَلَى جَمْـرَه مَن نَّارْ حُبّْكُمَ اقْـوِيَّـــه

رَانِي عْلِيلْ بَغِي نَظْـرَه تَضْحَى جْوَارْحِي مَرْقِيَّه

وفي قول البوزيدي [2] :

إِذَا ذْكَرْتُـه بَالْجَدّْ تَرَى مَا لَا ثْرَاهْ

كُلّْ مَا تَهْـــوَاهْ مَوْجُودْ فِي ذَاتَ اللهْ

وفي قول الكلاعي [3] :

مَا عَنْدِي مَثْلَكْ سِيدْ يَا قْوِيدَرْ غَوْثَ الشّنْـقَـانِي

انْتَ نَدْهَه لَلّي يْكُونْ غَارَقْ وَسْطَ الْبْحَـارْ

فالكلمات التي تمثّـل استغناء النطق فيها عن حرفي التاء والهاء هي :

مَرَّه - كِيَّه – جَمْرَه – قْوِيَّه – نَظْرَه – مَرْقِيَّه – ذْكَرْتُه – نَدْهَه .

---

[1] ديوان عدّة بن تونس : ص46 .

[2] ديوان البوزيـــدي : ص123 .

[3] الكنز المكنون : ص176 .

II- إثبات حرف الهمزة في غير موطنه الأصلي .

1.II- إثباته قبل الاسم الموصول .

كما في قول المنور بن يخلف [1] :

سَاعَه جْمِيعْ مَا قَالُوا صُبْتُه زُورْ

أَللِّي يْتَبَّعَكْ يَكْوِيهَ التَّنْهَادْ

فكلمة " أَللِّي " ، كما هو واضح ، همزتها مثبتة قبل الاسم الموصول .

2.II- زيادته في بداية الكلمة .

مثلما في قول عدّة بن تونس [2] :

أَجِينِي اتْشُوفَكْ لَلّهْ رَانِي غْرِيبْ بَاقِي وَحْدِي

ولعلّ الاهتمام بالهمزة إنما يعود إلى ما لها من مزايا صوتية دون غيرها [3] ، ومن أهمها أن لها << حكما خاصا يخالف جميع الأصوات الأخرى ؛ لأنها صوت ليس بالمجهور ولا المهموس ، وهي أكثر الأصوات الساكنة شدّة ، وهي محقّقة من أشقّ العمليات الصوتية ؛ لأن مخرجها فتحة المزمار التي تنطبق بها ثمّ تنفتح فجأة فنسمع ذلك الصوت الانفجاري الذي نسمّيهِ بالهمزة المحقّقة >> [4] .

ومن المفيد التذكير بأن العرب القدامى أشاروا إلى الحالات التي تطرأ على الهمزة ، مثلما فعل السيوطي ؛ فقد تحدّث عن نقل الهمزة أثناء تحقيقها ، وبيّن مسالك العرب في التخلّص من هذا النقل ، في قوله : << لما كان الهمز أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا ، تنوّع العرب في تحقيقه بأنواع التّخفيف ،

---

[1] المصدر السابق : ص16 .

[2] ديوان عدّة بن تونس : ص45 .

[3] انظر : د. العربي دحو ، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية ، ج1 ، ص205 .

[4] د. إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط03: 1965 ، ص21 .

وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفا ، .. >> [1] .

ومهما يكن ، فإن << المتعارف لدى أكثر العرب هو تحقيق الهمزة الساكنة للمتحرّك ما قبلها ، لا فرق بين حركة وأخرى ؛ فيقولون : رَأسٌ وبئرٌ ولُؤْمٌ ، وهذه لهجة تميم ، ولكن قريشا تميل إلى تخفيف هذه الهمزة بإبدالها حركة طويلة من جنس ما قبلها فيقولون : رَاسٌ وبيرٌ ولـُومٌ >> [2] .

بينما ثبت عن الحجازيين تسهيل الهمزة ، فلا ينبرون إلا إذا أرادوا محاكاة التميميين في تحقيقها استلطافا لهذه الصِّفة واستحسانا [3] . ومن ذلك قرئت الآيات الآتي ذكرها بتخفيف همزاتها في كلمة " الذئب " :

- " .. وَأخَافُ أَن ياكُـلَـه الذِّيبُ .. " (يوسف : من 13)
- " قَالُوا لَـئِنَ اَكَـلَـهُ الذِّيـــــبُ .. " (يوسف : من 14)
- " .. وَتَـرَكْـنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَـاعِنَا فَـأَكَـلَـهُ الذِّيبُ .. " (يوسف : من 17)

كما قرئت بتحقيقها .

III- تخفيف أسماء الإشارة .

III.1- هـــــــــــذا ،

كما في قول العليـــــوي [4] :

ذَا سَـــرٌّ مَصُـــــونْ قَـدْ أَعْجَزَ غَيْـــــرِي

---

[1] جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ج1 ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، د.ت. ، ص98 .

[2] إبراهيم محمد نجا : اللهجات العربية ، مطبعة السعادة 1972 ، ص ص87 ، 88 .

[3] انظر : د. صبحي صالح ، دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط08: 1980 ، ص84 .

[4] ديوان العليوي : ص25 .

وفي قول البوزيـــــدي [1] :

اذْكُرْهُ ذَكْرَ الْقَلْبِ ذَا مَقَامْ أَهْلَ الشَّرْبِ

تَعْلَمْ جَمِيعَ الْغَـــيْبِ تَصِيرْ لَكَ الشُّهُــودْ

بيد أن الإكثار من " ذا " ، هو ممّا عابه القاضي الجرجانـــــــي (ت: 392هـ) على المتنبي في شعره ، على نحو ما جاء في قوله [2] :

قد بلغت الذي أردت من البــرّ ومن حقِّ ذا الشَّريفِ عليكا

وإذا لم تسِرْ إلى الدّار في وقْــ تِكَ ذا خفتُ أن تسيرَ إليكــا

وفي قوله أيضـــــــا [3] :

من ذا الذي حُرم الليوث كماله يُنْسي الفريسة خوفهُ بجمالِهِ

يقول القاضي الجرجاني عن المتنبي في ذلك : إنه << أكثر الشعراء استعمالا لذا التي هي للإشارة ، وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على التكلف .. ، ولو تصفّحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكرت من هذه الإشارة ، وأنت لا تجد منها في عدّة دواوين جاهلية حرفا ، والمحدثون أكثر استعانة بها ، في الفرط والنّـــــدرة ، أو على سبيل الغلط والفلتة >> [4] .

---

[1] ديوان البوزيدي : ص132 .

[2] ناصف اليازجي : العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1 ، دار بيروت للطباعة والنشر 1981 ، ص416 .

[3] نفســـــــــه : ج2 ، ص52 .

[4] الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح : أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، القاهرة ، ط04: 1966 ، ص ص96 ، 97 .

III.2- ذِي ،

كما في قول البوزيدي [1] :

اذكُـرْهُ يَـا مُرِيدْ يَا طَـالَـبَ الْمَزِيـدْ

ذِي حَضْرَة التَّقْرِيدْ مَخْصُوصَه لَـلْأُسُودْ

وفي قول العليوي [2] :

إنّـنِي وَاحِدْ فِي ذِي الْمَشَاهِدْ لَسْتُ بِجَاحِدْ عَنْ مُرِيدَ اللهْ

IV- الاسم الموصول الخاص [3] " اللّـي " .

وهو الذي يُستخدم في اللهجة الشعبية << كاسم موصول ليدلّ على الواحد والواحدة ، والاثنين والاثنتين ، وجماعة الذكور وجماعة الإناث ، وتكاد تتّفـــــق ، على استعماله بهذه الصّفة ، معظم اللهجات العربية الحديثة ، إن لم تكن كلّـهـــــا ، في جميع أنحاء الوطن العربي ، فنسمعه في السعودية ، وفي الكويت وفي غيرهـــا من دول الخليج العربي ، ونسمعه في مصر وما يليها من بلدان المغرب العربي >> [4] .

ومن ذلك ما نجده في قول عدّة بن تونس [5] :

يَا رَبِّ وَفَّـقْنِي نَـفُـوزْ بَالرِّضَـا مَثْـلَ اللّـي فَـازُوا

---

[1] ديوان البوزيدي : ص132 .

[2] ديوان العليوي : ص66 .

[3] وهو ثمانية ألفاظ وهي : الذي والتي ، واللذان ، واللتان ، واللذين ، واللتين ، والذين ، واللاتي أو اللائي أو اللواتي .

أما المشترك فألفاظه خمسة وهي : مَنْ ، ما ، أي ، ذو ، ذا . وهي بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .

(انظر : علي رضا ، المرجع في اللغة العربية نحوها وصرفها ، ج1 ، دار الفكر ، د.ت. ، ص ص47 ، 48 .)

[4] معجم الألفاظ العامية : ص ص100 ، 101 .

[5] ديوان عدّة بن تونس : ص ص52 .

وفي قول الكـلاعـــــي [1] :

احْفَظْنِي يَا سِيدِي وَالذُّرَارِي وَاهْلِي وَاخْوَانِي

وَاهْلَ الْمَحَبَّه كَافـَّه وَجْمِيعَ اللـِّي حُضَّـــارْ

وفي قول المنور بن يخلف [2] :

سَاعَه جْمِيعْ مَا قَـالُوا صُبْتُـه زُورْ

أَللـِّي يْتَـبَّـعَـكْ يَكْوِيهَ التـَّنْـهَادْ

وفي قول العليـــــوي [3] :

اطْوَاوْا اطْوَاوْا ذَا الْحْجُبَ اللـِّي تـْرَاوْا

صَعْدُوا وَاعْـــــلَاوْا جَالْ بِهُمْ سْمَـــاوي

يظهر ، من خلال الأمثلة السابقة ، أن " اللـِّي " وردت بصيغة واحدة ، في الجمع والمفرد ، وهو ما أشرنا إليه سابقا .

وليس من المستبعد أن يكون أصل " اللـِّي " هو " ألْ " بمعنى " الذي " ، مثـل قولهم : << " الْـقائم عندك زيدٌ " أي الذي ، كما تكون في المؤنث بمعنى " التي " مثـــل : الْـقائمة عندك هندٌ >> [4] .

---

[1] الكنز المكنون : ص177 .

[2] نفســـــــه : ص16 .

[3] ديوان العليوي : ص74 .

[4] الرّمّاني (أبو الحسن علي بن عيسى) : معاني الحروف ، تحقيق وتعليق وتقديم : عبد الفتاح إسماعيـــــــل شلبي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت. ، ص67 .

هذا عن اتصالها بالاسم ، أما اقترانها بالفعل فجاء في قـــــــــــــــــول الفرزدق (ت:114هـ) [1] :

ما أنت بالحكم التُّرْضَى حكومته ولا الأصيل ولا ذي الرّأي والجدل

والألف واللام في " الترضى " بمعنى الذي أيضا .

وتدلّ " اللـّي " على العاقل وغيره [2] ، وهي من بقايا اللهجات السبئية [3] .

وبعد ، فإن الأسماء التي ذكرناها ، وبصيغها المختلفة تتفق مع اللغة المُعْرَبة ، كونها تسبق المشار إليه . وهذا الاتّفاق ، في هذه المسألة وفي غيرها ، ورَّث اللهجة الملحونة الكثير مما في اللهجة المُعْرَبة ، << فانتقلت السيادة والشرف من الشعر الفصيح إلى الشعر الملحون في القرون المتأخرة لدينا >> [4] .

---

[1] قاله في هجاء رجل من بني عذرة ، كان قد فضّل جريرا عليه وعلى الأخطل في مجلس عبد الملك ابن مروان .

(انظر : ابن هشام (أبو محمد عبد الله) ، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، د.ت. ، ص16 .)

[2] انظر : عبد الرحمن بن علي المكودي ، شرح المكودي على ألفية ابن مالك ، دار العهد الجديد للطباعة والمكتبة التجارية لمصطفى محمد ، مصر ، د.ت. ، ص24 .

[3] انظر : أحمد حسين شرف الدين : لهجة اليمن قديما وحديثا ، مطبعة الجيلاوي 1970 ، ص61 .

[4] د. العربي دحو : الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة 1955-1962 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1988 ، ص125 .

V- أسماء الاستفهام .

V.1- آشْ ، واشْ ، بمعنى أي شيء ؟

متلما في قول العليـــوي [1] :

يَوْمَ الْحْسَابْ آشْ هَذَا الدَّاهْيَه لَوْ كَانَ اتشُوفْ مَا يْصِيرْ

وفي قول عدّة بن تونس [2] :

عَلاَّوِي عْزِيزَ امْخَيَّـــرْ فُوقْ الاقْطَابْ نَجْمُه زَاهِي

قَدْرَاعْظِيمْ وَاشَ انْشَنِّـي

وكلمة " واش " من لهجة عربية وسطها ياء ساكنة " أيْـش " ، حسبما وردت لدى بعض العرب << والمراد : أي شيء ؟ فحذفوا تخفيفا >> [3] .

يقول العليـــوي [4] :

الْقُرْبُ فِيكَـا وَالْوَصْلْ إلَيْكَـا

أَيْشُ نُرِيكَـــــا انْظُرْ لَـكَ فِيكَ تَصِيبْ

ويقول أيضـــا [5] :

قَالَ الدَّهْرَ الْحْرِيجْ كَفَّ امْنَ التَّعْوِيجْ

أَيْش هَذَا اللّْهِيجْ بَالَغْ فَلْجَاجُو

---

[1] ديوان العليوي : ص79 .

[2] ديوان عدّة بن تونس : ص47 .

[3] ابن يعيش (موفّق الدّين بن علي النّحوي) : شرح المفصّل ، ج4 ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د.ت. ، ص76 .

[4] ديوان العليوي : ص54 .

[5] نفســـــــه : ص75 .

و" أيش " تُنْطَقُ في بعض جهات لبنان " إيش " ، وهو تصحيف ، وصوابه الفتح [1] .

بينما تُنْطَقُ " آش " في تيطوان بالمغرب الأقصى ، وقد تُمَالُ الهمزة نحو الكسر فتصير " إيشْ " ، وقد تُشبع الكسرة فتحور ياءا : " إيشْ " [2] .

V.2- " بَاشْ " : بمعنى بِأي شيء ؟

كما في قول البوزيدي [3] :

وْمَنْ يَعْرَفْ قْدَرْهَا وْكَانْ مَنْ حَزْبْهَا

رُوحُه بَاشْ يَكْفِيهَا مَهْرْهَا لَيْسَ مَعْدُودْ

V.2- " اعْلاشْ " : بمعنى لماذا ؟

نحو ما في قول عدّة بن تونس [4] :

اعْلاشْ شَوّرْ [5] سِيدِي وَارْتَاحْ نُورْ الآلْمَاحْ اعْلاَشْ خَلَّى بَصْرِي طَمَّاحْ

من خلال ما تقدّم من نصوص ، وضمن حالات التّغاير التي تمسّ المفردة ، تبيّن لنا أن هذه الحالات تشكّل جملة خصائص مميزة لها منها : الوضوح والخفّة من حيث التشكيل الصّوتي ، والاختزال ، أوما يُمكن أن نسمّيَه بالنّحت ، من حيث التشكيل البنيوي .

بعد هذا نصل إلى محاولة استكشاف طبيعة المفردة ، والوقوف عند أنماطها ..

---

[1] انظر : أحمد رضا (الشيخ) ، قاموس ردّ العامّي إلى الفصيح ، مطبعة العرفان ، صيدا 1952 ، ص96 .

[2] انظر : عبد المنعم سيد عبد العال ، معجم شمال المغرب ، تطوان وما حولها ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة 1968 ، ص150 .

[3] ديوان البوزيدي : ص141 .

[4] ديوان عدّة بن تونس : ص53 .

[5] ذهب ، والمقصود توفي .

3. طبيعة المفردة

نحاول أن نجيب ، في هذا المبحث ، عن جملة أسئلة منها : ما طبيعة المفردة المنتقاة في لغة الشعر الملحون الصّوفي ؟ وما الفلك الذي تدور فيه ؟ وهل نجح صاحبها في اختيارها ؟ وما إلى ذلك ..

وقد رأينا أن نستعين ، في ذلك ، بالمنهج المعتمد في الأسلوبية ، وخاصّة في بداية أمرها ، على التّعامل مع المفردة على أنها كلمة مستقلّة منعزلة ، تتردّد بنِسَبٍ متفاوتة في النّصّ الواحد . وكلّما تردّدت المفردات بصيغها الاسمية والفعلية ، أو بمترادفاتها ، أو بتركيب يؤدّي معناها ، شكّلت حقلا أو حقولا دلالية .

إن مرشدنا إلى فهم وتحديد هوية أي نصّ هو المعجم ، بوصفه وسيلة نميِّز بها بين أنماط اللغة الشّعرية ، وبين خطابات الشعراء . وفي هذا المعجم كلمات نبحث عنها هي مفاتيح النّصّ ، وإن كان << بناء معجم لفظي للتواتر في العمل الأدبي يفترض أن معنى الكلمات يبقى ثابتا من موقع إلى آخر >> [1] .

وإذا كانت تقنية المنهج الأسلوبي تعتمد على الإحصاء ، انطلاقا من عزل الكلمات عن سياقها الكلامي ، والتعامل معها منعزلة عن تراكيبها التي وُضِعت فيها ، فإنها لا تقودنا إلى نتائج مسلَّمٍ بها ؛ فعلى << الرّغم من أنّه لا جدال فيما تقدِّمه الإحصائيات إلا أنها لا يمكن أن تقود إلى حقائق نهائية >> [2] ؛ << فإحصاء التواتر للمفردات يسمح لنا بحصر المفردات الهامّة في النص ، ولكنّه لا يتعدّى هذه الفائدة >> [3] .

---

[1] C.F.,Jean(P.Richard) : L'univers imaginaire de Malarmé , E.d. 1961 , p.25.

[2] Op.cit , p.25 .

[3] د. عبد الكريم حسن : الموضوعية البنيوية ، دراسة في شعر السياب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط01: 1983 ، ص16 .

للمفردات يسمح لنا بحصر المفردات الهامّة في النص ، ولكنّه لا يتعدّى هـــــــــذه الفائـــــــدة >> [1] .

ومع ذلك ، فإن تردّد المفردات من شأنه أن يضع أيدينا على المحاور التي يدور عليها الشّعر .

ولرصد طبيعة المفردة في شعر المرحلة المدروسة ، رأينا أنه من المفيد الاستعانة بمنهج الإحصاء الذي يقدّم لنا نِسَباً قد تنير لنا الطّريق في الاستنتاجات ذات البعد المتعلّــق بالمعنى .

وفيما يلي بعض النصوص محاولة منا للتّطبيق عليها :

---

[1] د. عبد الكريم حسن : الموضوعية البنيوية ، دراسة في شعر السياب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط01: 1983 ، ص16 .

النص الأول :

يقول قدّور بن عاشور [1] في قصيدته " أدركت منيتي " [2] :

نَبْتَدِي بَاسْمَ الْغَوْثِيَه يَا الْحُضَّـــــــــارْ
نَلْتْهَا بَالْكَدْ لِيلِي مْعَ نْهَـــــــــارِي
جَاتْنِي الْبُشْرَى مَنْ عَنْدَ النّبِي الْمُخْتَـارْ
جَا يْخَبَّرْنِي فِي مْكَانِي فِي وَسْطْ دَارِي
صَرْتْ غَوْثَ الْجَنَّه سْمَا وَارْضْ وَالنَّارْ
جَاتَ جْمِيعْ الاَشْيَا تْطُوفْ بَاوْكَـــارِي

---

[1] << هو الشيخ قدور بن أحمد بن قدور بن محمد بن علي بن الطيب بن أحمد بن الهادي بن المهدي بن منصور ابن عبد الحق بن سليمان بن سعيد بن وكيل النور بن المعطي بن داود الخيار بن عبد الجبار بن عيسى ابن خير الدين بن عيسى بن سليمان بن المزوار بن حيدر بن محمد العاشر بن إدريس بن إدريس ، .. وهو حفيد السيد قدور بن عاشور الزّرهوني الذي كان خليفة باي وهران بدائرة ندرومة ..

ولد الشيخ قدور في ندرومة سنة 1850م بالتقريب ، ونشأ ودرج للتعلم قبل دخوله معترك الحياة ، .. ثمّ مال ، اعتبارا من سنة 1900 ، إلى طلب المعرفة متفرّغا كليا للزهد والتعبّد ، ثمّ انتقل إلى حاضـــرة تلمسان ، حيث مكث مقيما من سنة 1926 إلى سنة 1930 ، وبعد ذلك عاد إلى مسقط رأسه وموطـــن أسلافه حيث توفي .. في يوم الاثنين 6 يونيو 1938 ..

اقتداءا بالشيخ الرّمعون صاحب رائعة " يا اللايمني فـْليعتي " تعاطى قدور بن عاشور الشعر كرياضـة فكرية وأدبية على سنة الأدباء الشعبيين في عصره ، ثمّ كوسيلة للتعبير عن خلجات صدره ومشاعـــره للاتصال مع غيره تارة ، وتارة أخرى للإدلاء بدلوه في أغراض كان الناس يقبلون عليهـــــــا وخاصة منها الغزل ووصف الطبيعة والفخر والمديح النبوي والأذكار والمواعظ ، كما تعاطـــــى العزف والغناء في مجالس الطّرب الشعبية التي تُقام بمناسبة الأعراس والولائم ، .. >> .

(مقدّمة ديوان قدّور بن عاشور ، جمع وتحقيق وإعداد : محمد بن عمرو الزّرهونـي ، إصدارات المكتبة الوطنية " الأدب الشّعبي " ، ط01 : 1996 ، ص ص13 ، 14 و ص19 .)

[2] ديوان قدّور بن عاشور : ص ص161-163 .

سَلَّمَتْ الاَقْطَابْ وْالاَبْدَالْ وْجَمْعْ الاَبْرَارْ
عَرَّجْتْ فِي الْمَلَكُوتْ وَحْدِي فِي طْيَارِي

دْخَلْتْ عْلَى رَبِّي وَكْشَفْتْ جَمْعْ الاَسْتَارْ
قَال لِّي اخْتَصِّيتَكْ لَبِّيكْ يَا الْبَارِي

يَا اهْلَ اللهْ افْوَاجْ افْوَاجْ يَا الزِّيَّارْ
سَارْعُوا فِي مْجِيكُمْ تَسْتَنْشْقُوا اسْرَارِي

******

كْفَانِي رَبِّي الْكَرِيمْ نَبْدَا الْمْقَامْ فِي تَشْهَارْ
قْبَلْ صْلاَتِي وَصْيَامِي طُولَ الاسْحَارْ

قُلْتْ مَنَ انَا فَلاَ انَا مَا تَعْتْنَى بَانْكَارْ
يَدِّي طْوِيلَه عْلَى كُلَّ عْنِيدْ جَبَّارْ

إِذَا بْغِيتْ تَاخُدْ حَقِّي وَالثَّارْ
كُنْ فَيَكُونْ فِي جْمِيعْ الاقْطَارْ

سُبْحَانْ مَنْ اغْنَانِي مُولاَيَ الْغَفَّارْ
كُلّْ وِلِي مَا يَتْكَوَّنْ فِي مَلْكْ الاَقْدَارْ

نْكُونْ عَارَفْ بْتَكْوِينُه فِي افْكَارِي
إِذا بْغِيتْ نْسَهَّل لُّه فِي جْمِيعْ الاَوْعَارْ

وِذَا كَانْ شَقِي حَالُه يُقْلَبْ فِي انْظَارِي
فِي كُلّْ دِيوَانْ أَنَا سَابَقْ بِينْ الاَخْيَارْ

مَا يْكُونْ حَلَّ اوْ رَبْطَ اَلاَّ بَاخْبَارِي

كُلّ حَاصَلْ [1] مَتْوَسَّلْ تَحْتْ الاَضْـــرَارْ
ثغِيتْ حَالُه ولْو يْكُـونْ فِي جْمَـــــارِي

كُلّْ مَن نَّادَانِي طَالَبْ خِيرْ وَامْطَـــارْ
سْعِيتْ فَالإِغَاثَه وْلاَ يْكُـــــــونْ دَارِي

يَا اهْلَ اللهْ افْوَاجْ افْوَاجْ يَا الزُّيَّـــارْ
سَارْعُوا فِي مْحِيكُمْ تَسْتَنْشْقُوا اسْـــرَارِي

******

نَلْتْ ذَا الْفَضْلْ بَمْحَبَّتِي فَالنَّبِي الْمُخْتَارْ
صَلَّى اللهْ عْلِيهْ رَبَّنَا الْكَرِيمَ الْقَدِيـــــرْ

هُوَ اللِّي اعْلَمْنِي بَالْبْشَارَه نْدِيـــــرْ
مَا لِي صَدْرَ احْنِينْ هُوَ الوَلِي النَّصِيـــــرْ

صَحْتْ مَنْ وَجْدِي بَالتَّهْلِيلْ وَالتَّـكْبِيرْ
دْخَلْتْ لَلْحَضْرَه وَانَا لَلْحَقّ بْصِيـــــرْ

اَعْطَانِي رَبِّي هُوَ اللَّطِيفَ الْخْبِيرْ

جَاتْنِي الاَكْوَانْ ثْبَايَعْ شُبَّانْ وَاكْبَـــارْ
صَوْتْهُمَ الْحْنِينْ يَشْبَهَ انْغَامَ اهْـــــزَارِي

سْنِينْ وَانَا فَالذَّكْرْ وَالْعَيْنْ فَاسْهَـــارْ
كُلّْ شِي قَيَّدتُه مَكْتُوبْ فِي اسْطَـــــارِي

أَمْرَ امْغَيَّبْ مَا يُدْرَكْ بْحَسّْ وَافْكَارْ
مَا يْطِيقَ اعْلِيه اَلاَّ مَنْ طْوَى ادكَـــــارِي

---

[1] كل واقع في مأزق أو مشكل .

إِذَا بْغِيتْ نـوَرِّي لـكْ مَا فِي وَسْطْ لـبْحَارْ

كـنْ كِمُوسَى فِي حالـه مْعَ الْخْضَـــــاري [1]

كُلّْ مَنْ كـذَبْ فـهَذَا يْرِيبْ يُكـسَـــــارْ

فَمْنَـافـعُه نـخَبّْرُه لِيكُونْ فِي حْـــــذَاري

يَا اهْلَ اللهْ افْوَاجْ افْوَاجْ يَا الزُّيَّـــــارْ

سَارْعُوا فِي مْجِيكُمْ تَسْتَنْشْقُوا اسْـــرَاري

******

يَا فَرْحِي لـبَسْت التَّاجَ الْمِنِيـــــــــرْ

لَا بَعْدِي وْلَا قَبْلِي مَا لَبْسُوهْ الاَحْـــــرَارْ

صَرْتَ انـَّاجِيهْ وَيْنَـاجِينِي الْفَرْدَ الْكْبِيرْ

عَرَّجْتْ فَالْمَلْكُوتْ مَا مَنْعَتْنِي سْـــوَارْ

اسْهَالْ واتَّطْوَى كُلَّ امْرَ اعْسِيـــــرْ

صَرْتْ نْطُوفْ بِينَ الشَّمْسْ وَالقْمَـــــرْ

هَذَا الْمْقَامْ السَّامِي مَا دَرْكُه بْشَـــرْ

دْخَلْتْ فَاهْلَ الْحَضْرَه وَاعْطِيتْ جَمْعْ الاَنْظَارْ

جَاوْنِي الاَوْلِيَا سَجْدُوا فِي جْـــــوَاري

كُلّْ أَمْرَ عْرَفْتُه وكَشْفْتَ جْمِيعْ الاَسْـــــرَارْ

وَدّْنِي إِلَهي بْكُلّْ شِي جَـــــــارِي

أَنَا صَاحْبَ الْوَقْتْ [2] أَج عَنْدِي وْخُذَ الثْمَـــــارْ

نَعْطِيكْ مَا تْحُبّْ يَهْدِيكَ اللهْ يَا الْقَـــــاري

---

[1] هو الخِضْر صاحب موسى عليه السّلام .

[2] يقصد أنه هو هادي الأمة ومرشدها .

شُفْ كْرَامْتِي يَا مَنْ بْغِيتْ تَكْـــــــــــــرَارْ

تَوْجَدْنِي فْكُلّْ مْكَانْ كِمَا فِي اشْعَـــــاري

رَاهْ تَصْرِيفِي يَبْقَى بْدُونْ تَوْخَـــــــــــارْ

كُلّْ تَلْمِيذْ مَتْأَنّي وِينْ سَـــــــــــارِي

يَا اهْلَ اللهْ افْوَاجْ افْوَاجْ يَا الزُّيَّـــــــــــارْ

سَارْعُوا فِي مْجِيكُمْ تَسْتَنْشْقُوا اسْـــــرَاري

******

أج تْزُورْنِي تَاخُذَ الْوْرِيقْ [1] وَالتَّبْـــــــــرْ

وَ أْمُورَكْ تَنْقْضَى يَا صَاحْبَ النِّيَه الْمَنْصُورْ

عْلِيكَ امَانَ اللهْ تَوْجَدْ السِّرّْ وَالْوْقَـــــــــارْ

يَخْضَارَ اجْنَانَكْ بْالَانْوَارْ وَالزّْهُـــــــــورْ

تَعْرَفْنِي مَا نَنْسَاكْ فْهَذَا الْبْـــــــــــرَارْ

تَرْبَحْ رَبْحَ كْبِيرْ عَجْلاً فُـــــــــــورْ

فِي رَمْشَ مْنَ الْعَيْنْ نَقْطَعْ الَارْضْ وَالْبْحُورْ

هَكْذَا يَا رَاوِي حَوَّسْتَ [2] جْمِيعْ الَاقْطَـــــــارْ

ادْرَكْتْ نَعْمَه مَنْ عَنْدَ اللهْ فِي اشْهَـــــــاري

صَرْتْ الْغَوْثْ الَاعْظَمْ مَا نَعْتْنَى بَقْـــرَارْ

وَالرّْوحْ خَافْقَه فَالْعَالَمْ تَعْطِي لْكُلّْ شَـــاري

ادْرَكْتْ مَنْيْتِي وَاطَّلَعْتَ عْلَى جْمِيـــعْ الَادْوَارْ

حَبَّنِي الْإِلَهْ اعْطَانِي قْبُولْ عَـــــــاري

---

[1] هي الورَق : الفضّة .

[2] جلت وسحت .

قَدّورْ رَايَسْ الْحَضْرَه قَالْ سَرّْ وَجْهَـــــارْ

بَنْ عَشورْ مَا يْعَاتَبْ نَاسْ بَاشْـــــــــــرَاري

سَاكَنْ فِي نَدْرُومَه لِهْ جَاهْ وَوْقَـــــــارْ

حْبِيبْ مُحَمَّدْ وَضَّحْ لُه تْكُونْ جَـــــــاري

يَا اهْلَ اللهْ افْوَاجْ افْوَاجْ يَا الزُّيَّـــــــارْ

سَارْعُوا فِي مْجِيكُمْ تَسْتَنْشْقُوا اسْـــــــرَاري

النص الثاني :

يقول محمد بن يلس في قصيدته " يا من تريد الطّريق " [1] :

يَا مَنْ تْرِيدَ الطَّرِيـــقْ وْشُرْبَ كُؤُوسَ الرَّحِيـــقْ

فَاتِ لَنَا بَالتَّصْدِيـــقْ تَشْرُبْ مْدَامَ الْوَاصْلِيـــنْ [2]

يَا مَبْتْغَى هَذَا الْمْـــدَامْ صَرْفاً وْمَزْجاً بَالتّمَـــامْ

تَجِدْ عَنْدَنَا الْمْـــرَامْ بَالْفَضْلْ وَاللهْ الْمْعِيـــنْ

يَا طَالْبِينْ هَذَا الشَّرَابْ رَفْعَ سْتُورَ الْحْجَـــابْ

وَالْجْلُوسْ مْعَ الاَحْبَـابْ وْرُؤْيَتْهُمْ كُلّ حِيـــنْ

فَيَا عَاشْقِينَ الْمْـــلاَحْ مَنْ وْجُوهْهُمْ صْبَـــاحْ

فْحُسْنْهُمْ مَثْلَ الصّبَـاحْ وْهُمْ شْمُوسَ الْعَالْمِيـــنْ

يَا سَاقِي ادِرَ الْكْـؤُوسْ وَاعْطِ آدَابَ الْجْلُـــوسْ

لاَنَ بِينْهُمَ عْـــرُوسْ فَاقَ الْوْرَى فِي جَمْعَ الدِّينْ

قَدْ طَلَعْ بَدْرَ الْبْـــدُورْ وَانْغْلَقْ عَنَ الدّهْـــورْ

---

[1] ديوان محمد بن يلس : ص ص19-21 .

[2] المقصود بها الخمر الصّوفية .

رْفَع عَنْ قَلْبِي السّتُورْ ... وْصَرْتَ مْنَ الْمَحْبُوبِينْ

فَجْذَبْنِي مَحْبُوبِي ... رْفَع عَنّي حُجْبِي

فَلَمّا صَفَا مَشْرُوبِي ... فَطَابَ وَقْتِي بَالْمْبِينْ

فَيَا قَتِيلَ ذَا الْغْرَامْ ... فْنِيتْ فِيكْ يَا هْمَامْ

فَأَنْتَ هُوَ بَدْرَ التّمَامْ ... انْتَ قَبْلَةَ الْعَاشْقِينْ

يَا سَاقِي امْلَا الآقْدَاحْ ... قَدَ اسْفَرْ وَجْهَ الصّبَاحْ

مَنْ جَمْعْ حُسْنَ الْمْلَاحْ ... ضَاءَ الْمْحَيَّا وَالْجْبِينْ

يَا حَادِي [1] احْدَ بَالْجْمَالْ ... وْبَمْحَاسَنَ الْكْمَالْ

لَا تَبْلَغَ الْحَدَّ بْحَالْ ... تْوَفِّي دْهُورَ الدّاهْرِينْ

فَيَا نْدِيمْ ذِي الْبْدُورْ ... وْهُمْ شْمُوسْ وَزْهُورْ

افْنَ فِيهُمْ تَلْقَ السّرُورْ ... تَسْمُ مْقَامَ الْعَارْفِينْ

امْلَا الْكْؤُوسْ بَالْخْمُورْ ... وَاشْرَبْ عْلَى مَرّ الدّهْورْ

وَانْظُرْ لْذَوَاتَ الْخْدُورْ ... وَاجْنِ ثْمَارَ الْبْسَاتِينْ

خَمْرْنَا لَيْسَ بْمَعْصُورْ ... سْكَرْنَا بِهَا وَالْبْدُورْ

أَقْطَابَ الْحَضْرَه الْبْحُورْ ... شْرَبْنَاهَا فِي عَزّ الدّينْ [2]

هَذِي الْكْنُوزْ تْفَتّحُوا ... لْقَلْبْ لَا يَبْرْحُوا

بْوَجْهَ الْحْبِيبْ يَفْرْحُوا ... دَوْماً عْلَى مَرّ السّنِينْ

فَهَذِه الْخَمْرَه الْوَهْبِيَه ... فْتَاهُوا فِيهَا الأَوْلِيَا

وْحَارْ فِيهَا عَقْلِيَا ... فَزَدْنِي مَنْهَا يَا مْتِينْ

---

[1] الحادي ، في المعجم الصّوفي ، هو السّاقي .

[2] هو مسجد في دمشق ، مدفون فيه أحد الأولياء يقال له عزّ الدّين .

فَهَذَا السِّرّْ نَادَانِـــــي يَا بَنْ يَـلَـسْ فَالْأَوَانِـــــي
وَافنْ فِي بَحْرَ الْمْعَانِـي مْنَ الْجِهَاتِ أَجْمَعِيـــــنْ
صَلِّ وَسَلَّمْ أَبَـــــدَا يَا رَبِّ عَـلَـى أَحْمَـــــدَا
وَالْآلِ وَمَنِ اهْتَـــــدَى وَالاَصْحَابِ وَالتَّابْعِيـــــنْ

النّصّ الثّالث :

تقول " خيرة السّبساجية " [1] في قصيدتها " مُولَى الْمِيدَه " [2] :

مُولَى الْمِيدَه وَالطِّرِيقَ ابْعِيدَه قُبَّـه بَيْضَا وَالزِّنيـــــنَ اوْرَاهْ !
اعْيِيتَ انْدَاوِي مَا نْفَعْنِي وَالِي دْوَايَ غَالِي عَنْدْ مُولَى الْكَـــــافْ
الطِّيرَ الْعَالِي سَاكَنَ الرَّفْرَافْ
مْقَامَ الْغَالِي فُوقْ وَهْرَنْ بَانِـــي
قَصْرُه عَالِي سَاكَنْ الْكُدْيَـــاتْ
يَا بَنْ سِيدِي اُمِّيمْـتِي وْمَّاتْنِي قُولِي لْسِيدَكْ كَانْ هُوَ نَـــــافْ
يَبْرِينِي مَنْ ذَا الضُّرَّ الْقَـــوِي حَنَّ اعْلِيَ يَا قُطْبْ الاَشْـــرَافْ
مُولَى الْمِيدَه وَالطِّرِيقْ ابْعِيـدَه قُبَّـه بَيْضَا وَالزِّنِيـــــنَ اوْرَاهْ
سْبِيبَ الْعَوْدَه يَا حْرِيرَ الْفَانِـي تَشْكُرْ خَيْرَه اعْلَاشَ تْخَـــــافْ
مَاهِيشَ امْرَا ذِيكْ فَرْسَ الْغَالِـي تَشْكُرْهَا خَيْرَه اعْلَاشَ تْخَـــــافْ

---

[1] يذكر محمد الحلفاوي عنها أنها شاعرة ومغنية وهران ومستغانم ، كما يشير إلى أنه في عام 1973 ، استطاع أن يجمع لها قسما كبيرا من ديوانها .
توفيت حوالي 1940 .
(C.F., Littérature orale : " Actes de la table ronde ", juin1979, O.P.U., Alger1982,p.24.)

[2] نفســـــــه : ص ص29 ، 30 .

سْبِيبَ الْـعَـوْدَه يَا حْرِيرَ الْفَـانِي ...

تَمَشْطَـهْ وَتْخَبَّلَـهْ بَالْعَانِـــــي وْتَطَـلْقَهْ ثَعْبَانْ فُوقَ الْحَـــــــافْ

الصَّنْدَلْ وَالْغَالِيَه وَاحْنَانِـــــي وْعَطْرَ الْوَرْدَ ارْوَايْحُه بَالـــــــزَّافْ

عَيْنِيهَا تُوتَاتْ فِي تَمْثَالِـــــي فْنَاجِيلَ حْصِينْ فِـــــــي الآزْرَافْ

رَقْبَتْهَا بَيْضَا بْرُوقْ تْشَالِـــــي شَمْعَه تَقْدِي بِينْ زَوْجَ اجْـــــرَافْ

بْزِيمَ احْمَرْ رَاشْقَاتُه عْلَى الصَّدْرْ عَيْنِينَ نْمَرْ ، خَاوْتِي ، مَا اصْفَـــــاهْ

مَاهِيشَ امْرَا ذِيكْ فَرْسَ الْغَالِـــي شَكْرَتْهَا خَيْرَه اعْلَاشَ تْخَـــــــافْ

مُولَى الْمِيدَه وَالطَّرِيقْ ابْعِيـــدَه قُبَّـه بَيْضَا وَالزِّينِيـــــــــنَ اوْرَاهْ

وفيما يلي إحصاء للمفردات الواردة في النصوص الثلاثة السّابقة ، متمثّلة في الأسماء والأفعال ، بوصفها وحداتٍ معرفتُها تفضي إلى حصر الخصائص اللسانية العامّة لنسيج الخِطاب [1] :

---

[1] انظر : د. عبد المالك مرتاض ، بنية الخطاب الشّعري ، دراسة تشريحية لقصيدة " أشجان يمنية " ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط01: 1986 ، ص37 .

النصوص نوع اللفظة	النص 1	النص 2	النص 3	المجموع	النسبة المئوية
الأسماء	185	111	80	376	%70,54
الأفعال	104	40	13	157	%29,45
المجموع	289	151	93	533	%99,99

يتضح من الجدول السّابق أن الكفّة الرّاجحة في النصوص المعروضة كانت للأسماء لا للأفعال :

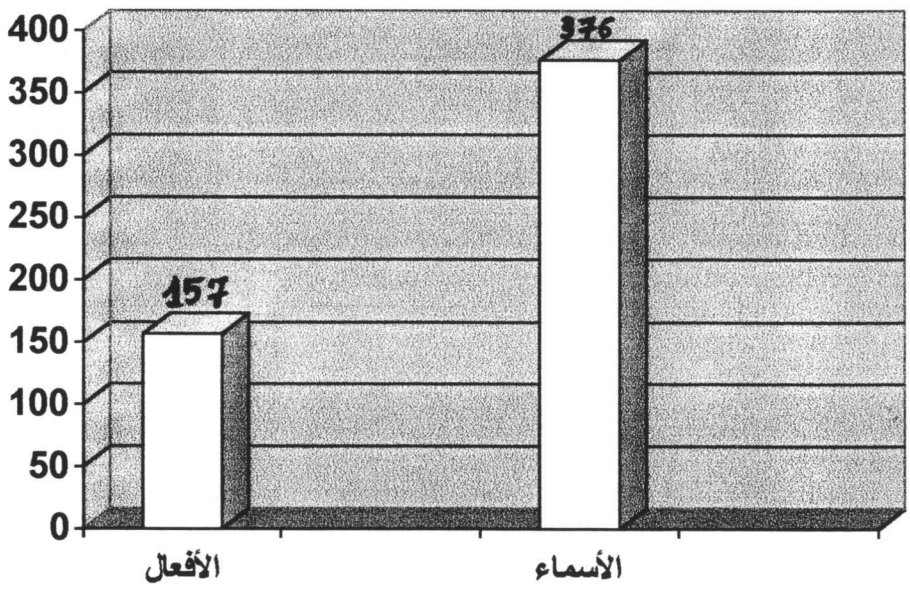

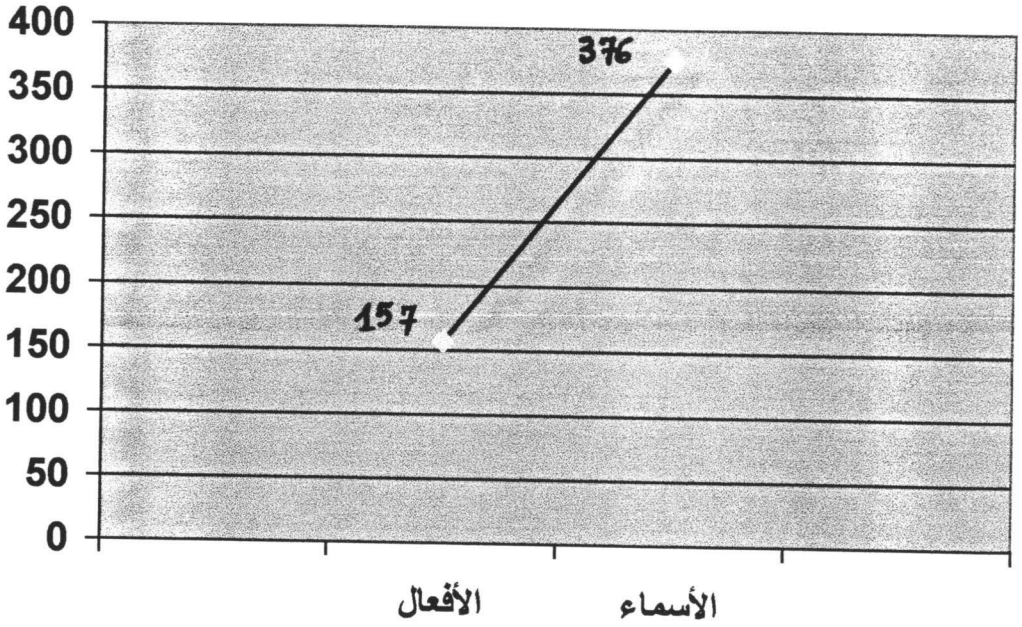

الشكل البياني

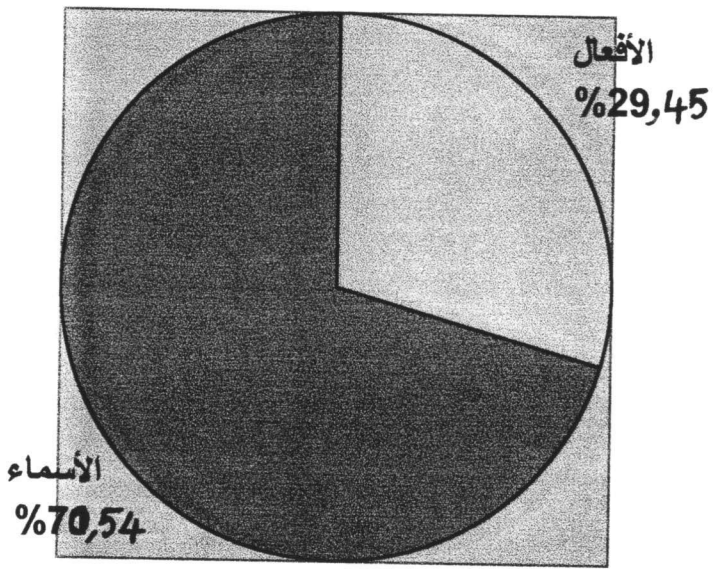

الشكل (1)

* الأفعال الواردة في النصوص الثلاثة حسب صيغ أزمنتها على نحو ما نجـــده في الجدول الآتي :

النصوص / الصيغة	النص 1	النص 2	النص 3	المجموع	النسبة المئوية
الماضي	33	16	06	55	%42,96
المضارع	32	10	10	52	%40,62
الأمـــــر	11	10	00	21	%16,40
المجموع	76	36	16	128	%99,98

* بدايات الأبيات بحسب توزيعها من حيث صيغ الأفعال كما يبيِّنه الجدول التالي :

عدد الأبيات	42	34	18	94 بيتاً
النصوص / بدايات الأبيات	النص1	النص2	النص3	مجموع أفعال النصوص الثلاثة ونسبتها المئوية
الأبيات المبتدئة بالماضي	13	05	01	:19 %54,28
الأبيات المبتدئة بالمضارع	03	03	02	:08 %22,85
الأبيات المبتدئة بالأمر	02	06	00	:08 %22,85
مجموع أفعال كلّ نصّ ونسبته المئوية	:18 %51,42	:14 %40,14	:03 %08,57	:35 %99,98

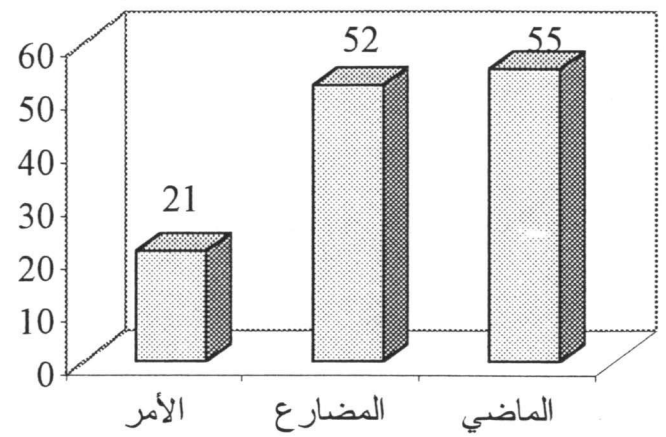

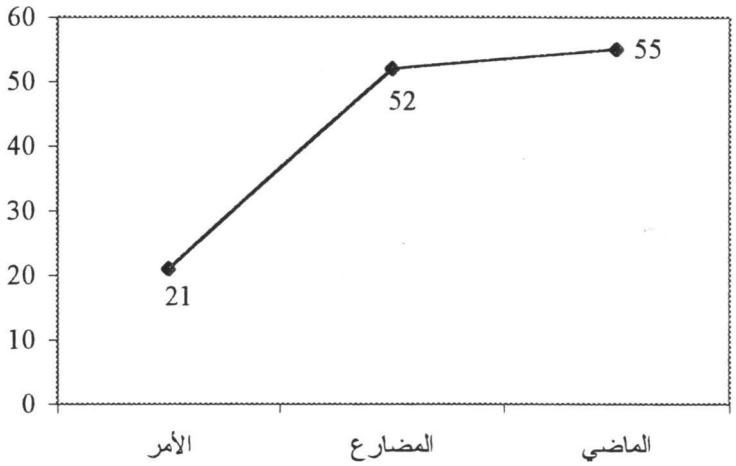

الرسم البياني

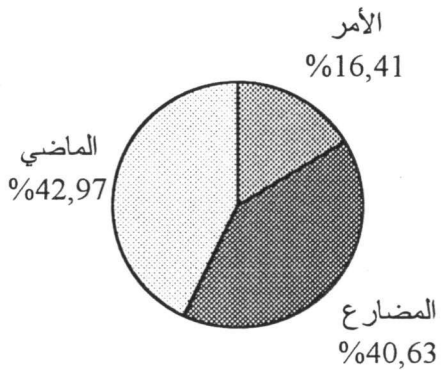

الشكل – 2 –

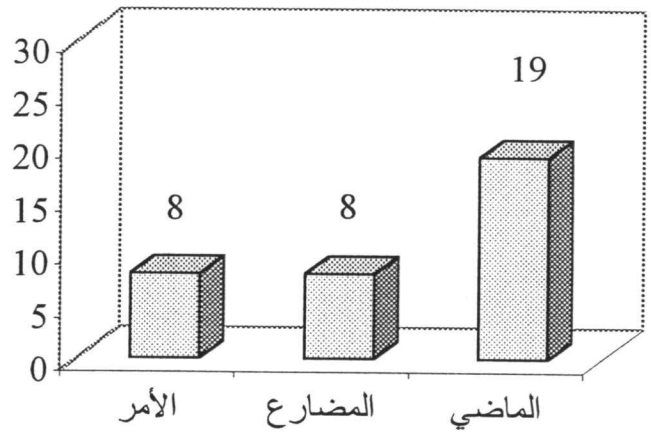

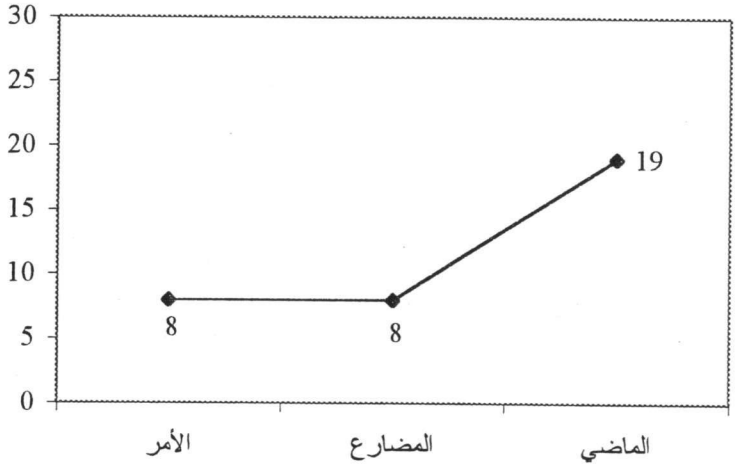

الأبيات المبتدئة بصيغ الماضي و المضارع و الأمر

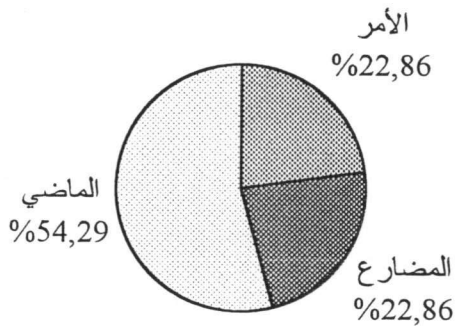

الشكل – 3 –

بعد ضبط هذه الجداول وتمثيلها بيانياً ، يمكن الخروج ببعض الملاحظات المبدئية التالية :

أولا- غلبة الأسماء على الأفعال ، ما يجعل الخطاب [1] اسميا ، تصدر الأحاسيس فيه من القلب إلى العقل .

ففي قصيدة قدّور بن عاشور إخبار من الشّاعر عن بشراه النّبوية بنيله درجة " الغوث " العالية . ولا غرو أن يكون الحديث صادقا محبّرا بصدق العاطفة وحرارة المحبّة .

وفي قصيدة محمد بن يلّس يتوجّه الشّاعر إلى مريده بالخمر الصّوفية يغريه بها ، لأنها تؤدّي بشاربها إلى الكشف ، بوصفه أحد الأهداف السّامية التي ينشدها المتصوّف .

ولا عجب كذلك ، ألا يصدر مثل هذا الكلام إلا من قلب صادق يريد الوصول إلى إقناع سامعه بالعقل أولا ، وبالقلب ثانيا .

---

[1] << هو اللغة كما يمارسها المتكلّم ، .. هو الوحدة التي تساوي الجملة أو تعلو عليها لأنها تختلف كمّاً ، فتنطوي على الجملة الواحدة كما تنطوي على عدد كبير من الجمل . يرتبط الخطاب من هذا السياق بعملية التلفظ فيصبح مركزا لمركبات متلاحقة تصوغ الرسالة وتضع لها علامات في البداية وأخرى في النهاية ..

الخطاب هو كل ملفوظ يضمّ عددا من الجمل ، ويسهر على الترابط بينها من حيث التلاحق بين الجمل ، ومن حيث طريقة الترتيب والقرن .. >> .

(د. كمال عمران : من مقاله " في تحديد مفهوم الخطاب " ، المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ع28 ، س14 : مارس1995 ، ص63)

أمّا قصيدة خيرة السبساجية فخطابها كان إلى الولي الصّالح عبد القـــــادر الجيلاني [1] (ت:561هـ) ، تتمنّى فيه زيارة ضريحه بشوق ولوعة صادرين من قلب محبّة والهة .

يتبدّى مما سبق أن تقديم وغلبة الاسم على الفعل يدلان على إرادة الشاعر ، أيِّ شاعر ، في جعل الاسم محورا أساسا في الحديث ، وما عداه تعليق عليه .

وإن كان أحد الباحثين يرى أنه << ليس للاسم مزية على الفعل في اللغة العربية ، اللّـهمّ إلا المزية الذاتية أنه اسم . ولذلك يمكن ، في اللغة العربية ، الابتداء بالاسم والتأثير بواسطته على المتلقّي ، كما يمكن الابتداء بالفعل والتأثير بواسطته على المتلقّي أيضا >> [2] .

ثانيا- غلبة بداية الأبيات بصيغة الماضي .

لقد شكّلت هذه الغلبة ، كما عرفنا قبل قليل ، نسبة 54,28 % . في حين تقاسمت صيغتا المضارع والأمر بداية أبيات القصائد المقترحة فجاءت نسبتهما المئوية متساوية مقدّرة بـِ 22,85 % .

ويُفسَّرذلك بأن الإنسان << ينطلق في التفكير الذي يجسّده إلى خطـــــــاب من حاضره ، ثمّ كثيرا ما يعود إلى الماضي لأنه جزء منه ، ومرتبط بحياته ، وخزّان لذكرياته .. >> [3] .

---

[1] حول ترجمته ، ينظر : د. حسن عيسى عبد الظاهر ، من مقاله " عبد القادر الجيلاني .. " ، مجلة التوحة ، ع116 : أغسطس 1985 ، ص ص20-26 .

[2] عدنان بن ذريل : اللغة والبلاغة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب 1983 ، ص103 .

[3] بنية الخطاب الشعري : ص40 .

بعد ما تعرّفنا إلى طبيعة المفردة من حيث أنماطها وصيغها ، من خلال تقنية الإحصاء المختارة ، فمن نافلة القول المفيد التذكير بأن المفردة العامية نسْبة إلى العامّةِ ، عامّةِ الناس في مقابل النّخبة أو الخاصّة ، كما كان يُطلق عليها قديماً .

واللغة العامية هي << لغة الحديث التي تُستخدم في الشؤون العادية . ويجري بها الحديث اليومي في البيت والسوق والشارع ، وهي لا تخضع لأية قوانين لغوية ضابطة ، لأنها تلقائية ، ومتغيرة تبعاً لتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم . ومن أبرز مميزاتها خلوها من ظاهرة الإعراب >> [1] .

وهي ، أي العامية ، من المنظور اللغوي القديم << تحريف غير مقصود للعربية الفصحى ، وليست لغة مختلفة عن اللغة الفصحى اختلافا جذريا >> [2] .

ولذلك انصبّ اهتمامهم على تتبّع اللّحن ، يظهرونه في مصادر مختصّة [3] ، حفاظا على العربية الفصيحة ، وخدمة للتراث الثقافي .

ومع ذلك ، فإن للعامية بلاغة كأختها في اللغة الفصيحة ، لا تقلّ عنها أهمية في التأثير ؛ فالأدب الشعبي << ضرورة وجدانية لا غنى عنها ، لأن التحدّث

---

[1] د. رابح تركي : من مقاله " علاقة العامية بالفصحى " ، مجلة الأصالة ، ع25 ، س04 : ماي- جوان 1975 ، ص68 .

[2] نفسه : ص69 .

[3] ومنها : " ما تلحن به العامّة " للإمام الكتّاني (ت:189هـ) ، و " ما تلحن به العامّة " لأبي العبّاس أحمد ابن يحيى ثعلب (ت:291هـ) ، و " لحن العامّة " لأبي بكر بن محمد المازني (ت:248هـ) ، و " لحن العامّة " لأبي عبيدة (ت:209هـ) ، و " لحن الخاصّة " لأبي هلال العسكري (ت:395هـ) ، و " إصلاح ما تغلط فيه العامّة " لأبي منصور بن أحمد البغدادي المعروف بابن الجواليقي . وقد أشار إلى هذا الكتاب ابن الأثير في : المثل السائر ، ج1 ، ص181 .

إلى عامّة الشعب بلهجتها وأسلوبها ، هو مناط التأثير فيها ، والانفعال بها والتجاوب معهـــــا >> [1] .

بل إن وجود << لغة عليا للفكر والأدب مع لهجات محلية للتعامل ، ظاهرة طبيعية عرفتها العربية من قديمها الجاهلي ، وتعرفها الدنيا في سائر اللغـــــات الحيـــــة >> [2] .

ثمّ << إن التعبير بالعامية فنّ ، كالتعبير بالفصحى سواء بسواء ، فليس كل ناطق بالعامية ، أو محسن للعربية مستطيعا أن يكتب أدبا في تعبير فني ، وكما أن الكتابـــة بالفصحى موهبة ودُربة ، كذلك الكتابة بالعامية . ولا بدّ لكلّ منهما أن تتوافر لهـــا خصائص التأثير والإبلاغ . وطبيعي أن تتفاوت الدرجة فيهما بين كاتب وكاتب ، حتـى يسمو التعبير إلى ذروة الرّوعة والإبداع >> [3] .

ولذلك لا عجب أن نجد في بعض الشعر الملحون صوراً << رائعة آيـــــة في الجمال ، وقيمة تعبيرية ثقيلة في ميزان الفنّ >> [4] .

إن اللغة العربية تمتاز بالمرونة ، بارتكازها على قاعدة ثابتة ، فهي << تجتذب اللهجات العامية كالمغناطيس ، لأن العامية في كلّ بلد عربي ليست لغة مستقلّة ، وإنما هي فرع لغوي متحرّك دائما متغير بلا انقطاع .. >> [5] .

---

[1] د. عائشة عبد الرحمن : لغتنا والحياة ، دار المعارف بمصر 1971 ، ص212 .

[2] نفســـــــه : ص93 .

[3] أحمد يوسف أحمد : فنان الشعب ، محمود بيرم التونسي ، دار النهضة العربية ، ط01: 1962 ، ص273 .

[4] أحمد عبد الغفور عطّار : قضايا ومشكلات لغوية ، الكتاب العربي السّعودي ، تهامة ، جدّة ، ط01: 1982 ، ص39 .

[5] أبو بثينة : الزجل العربي ، .. ، ص15 .

الفصل الثاني : البُنَـى التركيبية

I- مقياس التوزيع

II- الألفاظ والتراكيب واستخدامهما :

II.1- بحسب الاستعمال

II.2- بحسب الترتيب والبنية الأساسة

يهتم هذا الفصل ، من خلال بعض النصوص ، بمعرفة المقاييس الفنيـــــة والتقنيات اللسانية التي كان يستعملها الشاعر الشعبي لصياغة تراكيبه وأساليبه .

والمنهج المتّبع ، في ذلك ، يقوم على دراسة النظام التركيبي الذي يمكن أن يردّ إليه أسلوب شعراء العهد المدروس ، وذلك لأن أي جهد في وضع تعريف لماهية الأسلوب لا يعدّ دقيقا في نظر البعض ما لم ينصبّ على الجانب البنيوي [1] .

وما نقصده ببنية التراكيب إنما هي الكيفية التي صبّ بها الشاعر ألفاظه ومفرداته في قوالب أسلوبية معيّنة ، لأن التكلم ليس تكوين جملة ، وإنما هو نموذج أسلوبي من النماذج والألفاظ التي تقدّمها لي الذاكرة [2] .

ولكن ماهي بنية الكلام أو النص ؟

يقول " هلمسليف " (Hjelmslev) ، على هدي ما ذهب إليه " سوسور " :

<< نستطيع أن نقصد ببنية لعبة ما مجموعة القواعد التي تحدّد عدد قطع اللعبة والطرق التي بواسطتها يمكن لكل قطعة أن تتحرّك إزاء القطع الأخرى ، ولكي نصف الكيفية التي تستعمل بها قطع اللعب ، يجب إعطاء معلومات ، ليس عن إمكانية لعبنا بهـــذه

---

[1] C.F., Jean Kohen : Structure du language .., p.112.

[2] وذلك انطلاقا من أن اللغة ، في أحد تعاريفها ، هي << نسق عضوي منظم من العلامات Signes >> .

(زكرياء إبراهيم : مشكلة البنية ، دار مصر للطباعة 1976 ، ص48 .)

بينما تشبه العلاقاتُ بين عناصر اللغة المنظمة القواعدَ التي تتحكّم في لعبة الشّطرنج وتجعل منها نظاما قال عنه " سوسور " (Saussure) : << إنني لو عمدت إلى استبدال قطع الشطرنج الخشبية بقطع أخرى عاجية ، لما كان لهذا التغيير أي أثر على نظام اللعبة نفسها . وأما إذا عمدت إلى زيادة عدد القطع أو إنقاصها فلا بدّ أن يكون من شأن هذا التغيير المساس بنظام اللعبة وقواعدها في الصّميم >> .

(مشكلة البنية : ص51 .)

واللغة التي هي نظام أو نسق ، في نظر سوسور ، صارت تسمّى فيما بعد " بنية " ، على إثر انعقاد المؤتمر الأول لحلقة " براغ " اللسانية سنة 1929 .

الكيفية ، بل عن الكيفية التي نلعب بها في العادة ، أي التي تمّ بها اللعب حتّـــــــى الآن .. >> [1] .

فبنية النص ، من خلال هذه الوجهة ، هي مجموعة من العناصر اللغوية ، علامات وقواعد ، والمختارة بشكل خاص ، حتى يتمّ خضوعها لتركيب معيّن .

بينما يقول " تودوروف " (Todorov) : << ليس العمل الأدبي إلا تجلياً لبنية مجرّدة عامّة ، إنه ليس سوى أحد تحققاتها الممكنة >> [2] .

وما هذه البنية ، على حدّ رأي " تودوروف " ، إلا مجموعة القواعد العامّـــــة التي يعدّ النص الأدبي نتاجا لها ، ويمكن استنباطها من داخل النص .

ولذلك فإن دراسة النص هي ، إلى حدّ ما ، البحث عن بنية ثـنائيـــــــــــة : بنية النص " الخاصة " وبنية النص " العامّة " التي هي ، بدورها وقبل كل شيء ، البحث عن أدبية النص .

على أن البنية الخاصّة لا تختلف ، حسبما يظهر ، عن الأسلوب ، كما يقـــول " تودوروف " نقلا عن " باختين " (Bakhtine) ، إذ << إنّ كل عضو في جماعة ناطقة يجد نفسه أمام كلمات مسكونة بأصوات الآخرين ، ويتلقاها بأصوات الآخرين ، منطوية على أصوات الآخرين ، كل كلمة في نصّه تأتي من نصّ آخر ، مطبوعة بطابع غيره ، فكرته لا تلاقي إلا كلمات قد استعملت سابقا >> [3] .

---

[1] C.F., Girand (Pierre) : Essais de stylistique, problèmes et méthodes, Paris, Klincksieck. 1969 , p.50.

[2] Qu'est ce que le Structuralisme, Edits.seuil. Paris1968, p.19.

[3] Ibid : p.44.

وما يهمّ من ذلك كله هو الكلمة بوصفها لبنة من لبنات صياغة الأسلوب بطريقة يختارها صاحبه . ولذلك سنولي اهتمامنا للبنية التركيبية للألفاظ ، من أجل استخلاص نموذج الأسلوب المعتمد في القصيدة الملحونة الصّوفية .

ولكن قبل ذلك ، من المجدي التذكير باستكشاف الجهود اللسانية الحديثة لمقاربتين أساستين تتعلّقان بعناصر تشكيل الأسلوب .

يقول " برنارد بلوخ " (Bernard Blookh) عن المقاربة الأولى :

إن << أسلوب خطاب ما هو إلا الرسالة المحمولة بواسطة توزيعات التواتر والاحتمالات الانتقالية لسماته اللغوية ، وبالخصوص من حيث تختلف هذه التوزيعات وهذه الاحتمالات عن تلك التي تختصّ بها اللغة ككل >> [1] .

بينما تؤكّد المقاربة الأخرى، على لسان " آرشيبالد.هيل " (Archibeld.Hill) << أن الأسلوب هو الرسالة المحمولة بواسطة العلاقات بين العناصر اللغوية الواقعة في نطاق أوسع من الجملة ، أي في النصوص أو في خطاب ممتدّ >> [2] .

على أن المفضّل من المقاربتين هو ما ذهب إليه " أرشيبالد.هيل " ، لأن تحليل الأسلوب بواسطة المقاربة الأولى يفيد الدارس في التعرف إلى أسلوب فرد بعينه ، بينما يفيده ، اعتمادا على المقاربة الثانية ، في التعرف إلى أسلوب جنس معين .

لذلك سنركز اهتمامنا ، في درسنا ، على العلاقات القائمة بين العناصر اللغوية للنصوص الشعرية التي سنوردها ، بحسب ما يتطلّبه تنظيم التركيب المسمَّى عنـــد

---

[1] سمويل. ر. ليفن : البنيات اللسانية في الشعر ، ترجمة : الولي محمد والتوزاني خالد ، منشورات الحور الأكاديمي ، مطبعة فضالة ، المغرب 1989 ، ص18 .

[2] نفســـــــــه : ص18 .

الأسلوبيين بالتوزيع (Distribution) [1] ، وهو القائم على تمييز المؤلفات اللغوية من خلال لفظ العناصر المحيطة بكل منها في سياق الكلام ؛ إذ يصل هذا التمييز إلى تحديد الفئات التي تنتمي إليها عناصر الجمل ، ثمّ وصف الجمل بواسطة تتابع الفئات المُشكّلة لها .

فالتحليل التوزيعي لجملة : " أقبل الرجل " هو الآتي : فعل + تعريف + اسم

ولذلك فإن " سوسور " هو أول من لفت الانتباه إلى أن اللغة ، أية لغة ، هي كل منظّم من العناصر ، يُنْظر إليه ، على أساس كونه يعمل مجموعا كأنه شيء واحد ، فلا يصل أي عنصر منه إلى أية دلالة معينة إلا عندما يرتبط بالعناصر الأخرى للتنظيم .

وانطلاقا من هذا التوجه المنهجي ، توصّلت اللسانيات إلى مفهوم " الاستبدال " (Sélection) [2] الذي نستطيع ، من خلاله ، تمييز عناصر اللغة التي لها طواعية الاستبدال فيما بينها .

---

[1] مصطلح يُقْصد به تنظيم التركيب وفق ما تقتضيه قواعد النحو ، وما تسمح به مجالات التصرف والعلاقات الناتجة عن رصف المفردات وتركيبها ، وهي المسمّاة بالعلاقات الرّكنية ، بوصفها تخضع لقانون التجاوز . ودلالاتها رهينة الأركان القائمة في تتابعها ، لذلك أطلق عليها أيضا " محور التوزيع " (L'Axe de distribution) << لأن تنظيمها هو بمثابة رصف لها على سلسلة الكلام ، وتتميز العلاقات الركنية بكونها حضورية ، أي يتحدّد بعضها ببعض بما هو موجود >> .

(د. عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ، ص140 .)

[2] << مصطلح يدخل في تعريف عملية الكلام ذاتها . ويُقصد به مجموعة الألفاظ التي يمكن للمتكلم أن يأتي بأحد منها في كل نقطة من نقاط سلسلة الكلام ، ومجموعة تلك الألفاظ القائمة في الرصيد المعجمي للمتكلم ، والتي لها طواعية الاستبدال فيما بينها . ولذلك تسمّى بمحور الاستبدال L'axe de Sélection >> .

(الأسلوبية والأسلوب : ص ص138 ، 139 .)

ومن ثمَّ فإن انتقاء المفردات لا يكون مجديا ما لم يُحكم توزيعها على مستويين اثنين وهما : الحضوري والغيابي .

إن هذه المفردات تتوزّع ، ضمن سياقها ، على امتداد خطي ، ويكون لتجاوزها تأثير دلالي وصوتي وتركيبي ، ما يجعلها تدخل في علاقات ركنية .

كما تتوزّع غيابيا كتداعيات للمفردات التي تنتمي للجدول الدلالي ذاته ، فتدخل في علاقات استبدالية ، ما يصل بنا إلى أن يصير الأسلوب بمثابة شبكة تقاطع للعلاقات الركنية بالعلاقات الاستبدالية .

فالمتكلّم إذا رغب في التعبير عن حالة أو موقف ما ، فإنه ينتقي ، أولا ، مادّتـــه من رصيده اللغوي ، ثمّ يتبع ذلك بتوزيع هذه المادّة توزيعا محكما ، وفقا لما تقتضيه تأدية المعنى .

وهذا هو مؤدّى التوزيع الذي سنحاول بواسطته ضبط التراكيب التي تكوِّن أسلوب شاعر الملحون المعني بهذه الدِّراسة من خلال سوق النصوص الثلاثة الآتية :

I- مقياس التوزيع .

النص الأول :

يقول قدّور بن عاشور في قصيدته " اعْطَفْ بَالْغُفْرَانْ " [1] :

صَعْدَتْ لِكْ رُوحِي مْخَفّـقَـه
يَا نَعْمَ السّـلْطَـــــــــــانْ
وَحْوَاسَّ الْبَاطَنْ مْقَـلّقَـــه
تَطْلُب الْأَمَـــــــــــانْ
وْجُودَكْ جْزِيلْ عَيْنَ الْبْـقَـا
اعْطَفْ بَالْغُفْـــــــــرَانْ
نْرِيدْ مَنّـكَ الْجْزَ اللّـــقَـــا
مَنْ غِيرْ هَجْـــــــــرَانْ
بْكَاتْ عْيُونْ دَمْعَه مْدَفّـقَـه
وَالْجْوَى [2] ضَمْـــــــــآنْ
كْئِيبْ عَنْ فَقْدَكْ مَزْهْقَـــه
مَنْ حَرّ الْكَتْمَـــــــــانْ
أَنْتَ هُوَ الرّخْ [3] وَانَا الَعَنْقَـا [4]
بْحُبّكْ نَشْـــــــــوَانْ

****

---

[1] ديوان قدّور بن عاشور : ص ص221 ، 222 .

[2] حرقة القلب ، والمقصود داخل النفس .

[3] الليث ، والرّخ كلمة معرّبة من كلام العجم . (انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ج3 ، تحقيق : نخبة من الدّارسين ، دار المعارف ، د.ت. ، ص1616 .)

[4] طائر كبير غير العقاب . (انظر : لسان العرب 3136/4 .)

أَنْتَ شَمْسَ الشُّمُوسْ نُورْ قَـــوي

عْظِيمَ السَّطْـــــــــــوَه

وَانْتَ الذَّوَاتْ جَمْعٌ مَحْتْـــــوَى

مَا لَكَ الْقُـــــــــــدْوَه

إِمَامَ الأُمَّه فَرْدْ مَعْنَـــــــــوِي

كَاشَفْ الْبْـــــــــلَاوِي

خْلِيفَةَ رْسُولَ اللهَ الْعَلْـــــــوِي

يَدَّ أَهْلَ النَّجْـــــــــوَى

الْغَوْثَ الْمْغِيثْ سَيْفٌ سَمَـــــاوِي

عْظِيمَ السَّطْـــــــــوَه

سَاقِي السَّقَاهْ طَبِيبٌ مْـــــدَاوِي

بَابُهُ زَهْـــــــــــوَه

****

هُوَ الْبَابَ الْمَفْتُوحْ لِمَنْ يُغْلْقَـــــا

لْأَهْلَ الْوَجْـــــــــدَانْ

شَفِيقٌ عَنْـــه الْمَلْقَـــــــــــى

مُقَوِّي الإِيمَـــــــــانْ

أَعَزٌّ مْنَ الأَبْ وَالأُمِّ الشَّفُوقَـــــه

كَثِيرَ الإِحْسَـــــــــانْ

قَرِيبَ الْعَهْدِ مْنَ اللهْ ذَوْقَـــــــا

يَا مَنْ هُوَ غَفْـــــــــلَانْ

فَاعْتَبَرْ يَا أَيُّهَا الْمُسْتَدْرِقَـــــــا
بَحْجُـــــــــبْ وزَّانْ
فَالْتَمَسَ الْخيرِ مَنْ غَوْثْ سُكَّـــــرَه
خُذْ مَنـُّـه مِيـــــــــزَانْ

****

خُذُوا مَنـُّـه أَيُّهَا الْفُقَـــــــــرَا
أَسْرَارَ اوْ نُـــــــــورْ
وْغِيبُوا فِي حَضْرَتُهْ سُكَـــــارَى
هِيمُوا فِي بُحُـــــــــورْ
تَجِدُوا فِي غِيْبَتُهْ مَذْكَـــــــرَه
مَنْ غِيرْ شُعُـــــــــورْ
تَصِيرُوا فِي أَنْفُسْكُمْ مْطَهَّـــــرَه
يَعْلُوها السُّـــــــــرُورْ
غَابَتْ شَائِقَاتٌ طَائِـــــــــرَه
وَالْكُؤُوسْ تْـــــــــدُورْ
مَنْ فَضْلَ الأُسْتَاذْ أَمِيرَ الْأُمَـــــرَا
بَاللهْ مَنْصُـــــــــورْ
هَذِي حَضْرَه لِهْ مَعْتَبْـــــــرَه
هْدِيَّة قَـــــــــدُّورْ

****

الْحَبِيبَ وْمَحْبُوبْ حَقّاً حَقَّـــــــا
مَالَكَ الزَّمَـــــــــانْ

سِيدِي وَاسْنَادِي لِي رْفِيقَـــــــا
أَنَا بِهْ نَشْـــــــــــوَانْ
الْعَلْوِي الدَّرْقَاوِي الْمْحَقّـقَـــــا
قَاهَرَ الأَنْسْ وَالْجَـــــــانّ
أَنَا الْوَالَعْ بِهْ مْشَوّقَـــــــــا
فِي كُـــــــــلَّ الْأَوَانْ
دَامَتْ لِيَ مْحَبّـتُه مَنْطَبْقَـــــــه
شْهُودَ اوْ عِيـــــــــانْ
إِنِّي قُطَبَ الْقُطْـبَا السّابِقَـــــا
عَنْدْ أَهْـــلَ الدّيـــــوَانْ
قَدّوْرْ عَبْدَ الْقَادَرَ الصّعِيقَـــــا
نَشْوَانَ اوْ سَكْـــــــرَانْ

النص الثاني :

يقول محمد بن يلس في قصيدته "يَا مُرِيدَ الْحَقّْ " [1] :

يَا مُرِيدَ الْحَـــــقّْ نْقُولّْكْ قَوْلَ الصـّدْقْ
مَنـُّه الْخَمْرَ ادّفّـــقْ افْنَ فِي ذَكْـــرَ اللهْ
إِذَا تَشْخَصَ اسْمُـــه الْقَلْبْ بِهْ يَنْمُـــــو
اجْوَارْحَكْ يَغّنْمُـــو تَعْرَفَ كْلاَمَ اهْلَ اللهْ
إِذَا نْطَقْـــتْ بَاللهْ اعْرَفْـــتَ اللهْ بَاللهْ
تعود تفعـــل باللهْ فالكون بجهـــد [2] اللهْ

عْلِيكْ بَسْمْ الاَعْظَـــــمْ
في الْخَلْقْ بِهْ تَحْكُـــمْ
مْقَامَكْ الاَفْخَـــــــمْ
بَاللهْ وَمْـــــنَ اللهْ
بِهَ الْهْمُومَ يْزُولُـــــوا
وَالذّاكِرِينَ يْصُولُـــوا
الاَوْهَامْ بِهَ يْحُولُـــــوا
لاَ كَايَنْ غِيـــــرَ اللهْ
بَالْحُبّْ مْعَ الاَشْـــــوَاقْ
اذّكْرُوا يَا عُشـّـــاقْ

---

[1] ديوان محمد بن يلس : ص ص22-24 .

[2] أي بقوته وعونه .

ايْمَدّكُـــــــــــمْ بْالاَذْوَاقْ [1]

الْقُرْبْ وَالْوْصُولَ مْعَاهْ

إِذَا ذْكَرْتُمْ بَالْحَمْـــــــــدْ

وَالْحَزْمَ وْ كُلَّ الْجَـــــدّْ

انْعَايْمَ اللهْ تَمْتَـــــــــــدّ

لْكُمْ بْفَضْـــــــــلَ اللهْ

فَتُبْ وَاذْكُـــــــــرَ اللهْ

يَغْفَرَ ذْنُوبَكْ جَمْلَـــــه

ادْعُوهْ وْقُـــــــــلَ اللهْ

احْوَايْجَكْ يَقْضِـــي اللهْ

سِرْ للهْ بـــــــــــاللهْ

في اللهْ فَمْـــــــنَ اللهْ

فَتَمّْ وَابْدَ بـــــــــاللهْ

الْمَنْتْهَى إِلَـــــــى اللهْ

فَمْتْ عَنْكَ بَالْحَـــــــقّْ

وَاحْيَا بْرَبّي الْخَالَـــقْ

تَعْرَفَ طْرِيقَ اهْلَ الصّدْقْ

سَادَاتْنَا أَهْـــــــلَ اللهْ

---

[1] جمع ذوق : << نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه ، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره .. وأول التجليات الذوق ، ثمّ الشّرب >> .

(د. عبد المنعم الحفني : معجم مصطلحات الصوفية ، دار المسيرة ، بيروت ، ط01: 1980 ، ص104)

اذْكُرُوا بَاللِّسَـــــانْ

يَذْكُرْكُم بَالْجَنَـــــانْ

اذْكُرُوا بَالإِيمَـــــانْ

تَفْنَاوْا فْحُـــــبَّ اللهْ

ذَكْرَ الْمَوْلَى بَالْقَلْـــــبْ

يَرْفَع عنَّكَ الْحجُـــبْ

ايْقرّبَكْ قُـرْبَ الْقُـــرْبْ

الظَّـرْفْ لَيْـــسَ للهْ

اذْكُرُوا بَالتَّـعْظِيـــــمْ

يَذْكُرْكُمْ بَالتَّـكْرِيـــمْ

كَاسَ الْخَمْرَ الْقَـدِيـــمْ

هُوَ الْغِيبَه فِـــــي اللهْ

اذْكُرُوا بَالصَّفَـــــا

يَذْكُرْكُمْ بَالْوَفَـــــا

النَّفْسْ مَنَّكْ تَفْنَـــــى

تَصِيرْ بَاقِي بـــَـاللهْ

مُحَمَّدْ بَنْ يَلَّـــــسْ

بَوَّابْ حَضْرَةَ الْقُـــدْسْ

مُقِيمْ فِي بَابَ الأُنْـــسْ

مَنْسُوبَ لْأَهْـــلَ اللهْ

النص الثالث :

يقول محمد البوزيدي في قصيدته " أيا مريد اللهْ " [1] :

أَيَا مُرِيـــــدَ اللهْ نْعِيدْ لَكْ قَوْلَ اصْغَـهْ
إِذَا تـلَاحَظْ قَوْلِـــي نوُصِيكْ لْوَجْـــهَ اللهْ

كُنْ وَالَهْ تَايَـــهْ مَسْرُورَ بْذَكْـــرَ اللهْ
فِي الاَسْمِ إِذَا تَفْنَـــى تَصِلَ لْمُسَمَّـــــاهْ

إِذَا ذْكَرْتُه بَـادَرْ بَالْجَدّْ وَالْحَزْمَ امْعَـاهْ
كُـــــنْ للهْ بَالله في اللهْ وَالْغِيرَ انْسَـاهْ

إِذَا ذْكَرْتَ الْمَوْلَى فَاهْتَزّْ بْذَكْـــرَ اللهْ
جُلْ فِي مَعْنَى الْهَـــا وْحِرْ فِي مُسَمَّـــاهْ

غُصْ فِيمَنْ تَهْوَى بَالْقَلْبْ وَالرُّوحَ امْعَـاهْ
غِبْ فِي غَيْبَ الْغَيْـبْ تْغِبْ عَمَّا سِـــوَاهْ

إِذَا ذْكَرْتُه بَالْجَـدّْ تَرَى مَا لَا تَـــرَاهْ
كُلّْ مَا تَهْـــوَاهْ مَوْجُودْ فِي ذَاتَ اللهْ

كُنْ فَانِي عَنْـكَ مَوْجُودْ بِهْ وْلِـــهْ
تَصِيرْ بَاقِي بِـــهْ مَحْفُوفْ بْلُطْـفَ اللهْ

زُلْ مَنّْكْ عَنّـــكْ لِتَبْقَـــاهْ
إِذَا تْحِيدْ نَفْسَـــكْ مَا تْجِـــدْ إِلاَّ اللهْ

إِذَا قِيل لَـــكْ مَنْ تَهْوَى قُـــلَ اللهْ
أَنَا بِهْ وَالَـــهْ مَشْغُوفَ بْحُـــبّ اللهْ

---

[1] ديوان محمد البوزيدي : ص ص123-125 .

مَنْ هُوَ قَرِيبَ لـذَاتِي مُحَالْ قَلْبِي يَنْـــــسَاهْ
قَرِيبْ مَنـّي لِـــــيَّ وَالْقُرْبْ خَافِي مَعْنَـاهْ

إِذَا عْرَفْتَ الْمَعْنَـى فِي الْحَسّْ لَاحَظْ سَنَـاهْ
فَالْكُلّْ قَايَمْ بِـــــهْ مَوْجُودْ بِمَنْ تَهْـــوَاهْ

إِذَا عْرَفْتَ الْخَالَـقْ تَرْتَاحْ عَمَّـا سِـــوَاهْ
وِيذَا جْهَلْتُـه فِينَـــا مُحَالْ عَيْنَكْ تَـــرَاهْ

نَحْنُ احْبَابْ رَبِّـــي وَالْحُبّْ فِينَا مَنْشَـــاهْ
فَلْذْ بِنَا تَحْظَـــى وْشَمّْ فِينَا شَـــذَاهْ

اَسْمِي ابْنَ الْبُوزِيدِي مُقِيمْ فِي بَـــابَ اللهْ
بَوَّابْ حَضْرَةْ رَبِّـــي مَنْسُوبْ لْـــذَكْرَ اللهْ

مَن لَّا عْرَفْ مَا بِنَا مَعْذُورْ وَالْحَقّْ امْعَـاهْ
مَن لَّا قْرَبْ مَا جَـرَّبْ مَا شَافْ مَنْ شَافَ اللهْ

مَن لَّا عْرَفْ مَقْصُودُه مَسْكِينْ جَاهَلْ مُـــولَاهْ
مَن لَّا يْشَاهَدْ مُـــولَاهْ بْعِيدْ مَنْ لَّا يَـــرَاهْ

النصوص	عدد الجمل الاسمية	عدد الجمل الفعلية	عدد أشباه الجمل
النص الأول	31	16	06
النص الثاني	14	14	05
النص الثالث	13	12	02

فيما يلي رسم بياني للجدول السابق (1)

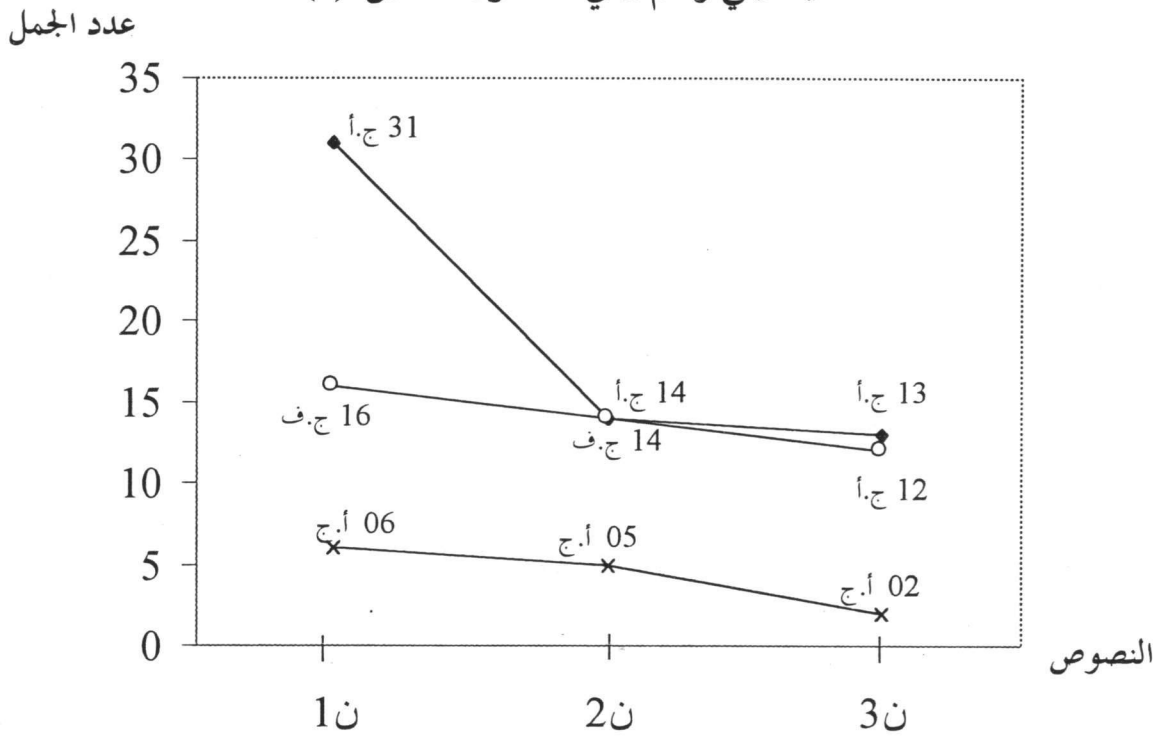

---

(1): مفتاح الرسم البياني:

ن: النص – الجمل الاسمية: ج.ا – الجمل الفعلية: ج.ف. – أشباه الجمل: أ.ج.

* عدد الجمل في النص الأول : 31 + 16 + 06 = 53

عدد الجمل الاسمية : 31 ———— %58,49

عدد الجمل الفعليـة : 16 ———— %30,18

عدد أشباه الجمـل : 06 ———— %11,32

* عدد الجمل في النص الثاني : 14 + 14 + 05 = 33

عدد الجمل الاسمية : 14 ———— %42,42

عدد الجمل الفعليـة : 14 ———— %42,42

عدد أشباه الجمـل : 05 ———— %15,15

* عدد الجمل في النص الثالث : 13 + 12 + 02 = 27

عدد الجمل الاسمية :13 ———— %48,14

عدد الجمل الفعليـة : 12 ———— %44,44

عدد أشباه الجمـل : 02 ———— %07,40

من خلال ما سبق من إحصاء يمكن الانتهاء إلى ما يلي :

1. غلبة الجمل الاسمية في النص الأول على الجمل الأخرى ، لاقتضاء المقام ، بوصف الشّاعر يمدح أحد شيوخ الطّرق الصّوفية . وتعداد المناقب يتطلّب منه إكثار الجمل الاسمية لما يحمله الاسم من استمرارية واستقرار .
2. شبه توازن عددي في النصين الثاني والثالث ؛ فعدد الجمل الاسمية هو تقريبا عدد الجمل الفعلية ، وذلك لأن الشّاعرين بصدد إسداء نصائح وتوجيهات للمريد ، والموقف يتطلّب منهما خطابه مباشرة باستعمالهما الفعل ، لما يتّسم بـــــه من حركة وحيوية .
3. قلّة عدد أشباه الجمل في النصوص الثلاثة ، لعدم الحاجة إليها ، ولأنّ الأصـــل في الكلام إنما هما نوعان من الجمل : الاسمية والفعلية .

بعد هذه النّظرة العامّة للجمل ، من خلال إحصاء أنواعها ومحاولة الوصـــول إلى ما يشبه النتائج ، نركـّز اهتمامنا ، الآن ، على بعض البُـنَى التركيبية ممَّـــا جاء في النصوص السابقة ، محاولة منـّا للتّطبيق الذي نحن بصدده .

- يقول محمد بن يلس من قصيدته " يا مريد الحقّ " [1] :

انْـعَـايَـمَ اللهْ تَـمْـتَـدّ لْـكُـمْ بْفَـضْـلَ اللهْ

البيت ، كما هو واضح ، مؤلّف من بنية تركيبية هي :

" انْعَايَمَ اللهْ تَمْتَدّ لْكُمْ بْفَضْلَ اللهْ " .

وتتشكـّل من عناصر ثلاثة أساسة مقابل ألفاظ مخصوصة حسب الجدول الآتي :

العنصر الأول	العنصر الثاني	العنصر الثالث
انْعَايَمَ اللهْ	تَمْتَـدّ لكُمْ	بْفَضْلَ اللهْ

ولتفسير جملة هذه البنية نحاول تجزيء عناصرها حسب بنائها الأسلوبي فنخرج بالآتـــــــي :

1. انْعَايَمَ اللهْ ـــــــــ مبتدأ + مضاف إليه .
2. تَمْتَدّ لْكُـمْ ـــــــــ جملة فعلية (خبر المبتدأ) + متعلـّق بها .
3. بْفَضْلَ اللهْ ـــــــــ حرف جرّ + اسم مجرور + مضاف إليه (متعلـّقة بالعنصرين الأولين . وهي تفسيرية يمكن الاستغناء عنها : بمعنى أنها لا تمثـّل ركناً من أركان البنية)

---

[1] ديوان محمد بن يلس : ص23 .

فبنية هذا الأسلوب ، وفق سياقها العامّ ، جعلت كلّ عنصر منها يرتبط بالمناسب له ارتباطا عضويا ؛ فـ " انْعَايَمَ اللهْ " لا تمثّـل شيئاً ، لأنها غير مكتفية بنفسها ، فهي مبتدأ يحتاج إلى إخبار عنه تجلّـى في الجملة الفعلية " تَمْتَدّ لَكُمْ " .

على أن العنصر الثالث " بْفَضْلَ اللهْ " ورد نافلة وأفاد توضيحاً . ولكن يمكن الاستغناء عنه ، كما ذكرناه قبل حين ، دونما إخلال بالمعنى .

وعلى الرغم من التنظيم الذي سلكه الشّاعر في :

" انْعَايَمَ اللهْ تَمْتَـدّ لَكُمْ بْفَضْلَ اللهْ "

فإنه يمكن تغيير هذا التنظيم من خلال التحوّلات الخاضعة لمقياس التوزيع ، ليصير كما يلـــــــي :

1. انْعَايَمَ اللهْ ، بْفَضْلَ اللهْ ، تَمْتَدّ لَكُمْ ـــــــ ع1 + ع3 + ع2 .
2. تَمْتَدّ لَكُمْ انْعَايَمَ اللهْ بْفَضْـــلَ اللهْ ـــــــ ع2 + ع1 + ع3 .
3. تَمْتَدّ لَكُمْ ، بْفَضْلَ اللهْ ، انْعَايَمَ اللهْ ـــــــ ع2 + ع3 + ع1 .
4. بْفَضْلَ اللهْ ، انْعَايَمَ اللهْ تَمْتَدّ لَكُـمْ ـــــــ ع3 + ع1 + ع2 .
5. بْفَضْلَ اللهْ ، تَمْتَدّ لَكُمْ انْعَايَـمَ اللهْ ـــــــ ع3 + ع2 +ع1 .

إن التحوّلات الخمسة يتألف كلّ تركيب فيها من ثلاثة أجزاء هي :

1. " انْعَايَمَ اللهْ " : ويُرمز له بـِ " أ " .
2. " تَمْتَدّ لَكُمْ " : ويُرمز له بـِ " ب " .
3. " بْفَضْلَ اللهْ " ويُرمز له بـِ " ج " .

إن الشّاعر ، في تحويله التركيبي الذي اختاره له ، قدّم " أ " على " ب " ، لأنه أراد التركيز على " انعايم اللهْ " ، لما تمثّـله في اعتقاده وروحه من ميزة ، فهي نقطة الارتكاز في البيت ، والعنصر الأساس الذي يقوم عليه العنصران الآخران .

وإذا عدنا إلى المسلّمة النّحوية التي تزعم أن الأصل في الجملة العربية أن يُبتدأ بالفعل ، فإن التحولين التركيبيين الثاني والثالث وردا على غير أصلهما .

ومع ذلك فإن << كل تأثير أسلوبي ليس بالضرورة خروجا عن القاعدة أي عدولا عن النمط في التعبير ؛ فكلّ ظاهرة أسلوبية لها سياق يتضمّن تقابلا >> [1] .

إن تعدّد التحوّلات التركيبية ومحاولة إدراجها في النص الشعري يكسبان الأسلوب شاعرية أكبر ، ما يجعلنا أمام ظاهرة أسلوبية تتمثّـل في مفهوم " الاتساع " الذي يعرّفه " ريفاتار " (Riffaterre) << بكونه انزياحا عن النمط التعبيري المتواضع عليه ، ويدقق مفهوم الانزياح بأن يكون خرقا للقواعد حينا ، ولجوءا إلى ما ندر من الصيغ حينا آخر .

فأما في حالته الأولى فهو من مشمولات علم البلاغة فيقتضي ، إذن ، تقييما بالاعتماد على أحكام معيارية ، وأما في صورته الثانية فالبحث فيه من مقتضيات اللسانيات عامّة والأسلوبية خاصّة >> [2] .

إن هذه التحوّلات التركيبية ما هي في حقيقة الأمر سِوى ظاهرة التقديم والتأخير وما يترتّب عليها من دلالات تنبّـهنا << إلى عظم شأن النظم .. وإن أي تغير في النظام التركيبي للجملة يترتّب عليه بالضّرورة تغير الدلالة وانتقالها من مستـــــــــــوًى إلى آخر >> [3] .

---

[1] عبد السلام المسدّي : النقد والحداثة مع دليل ببليوغرافي ، ص50 .

[2] الأسلوبية والأسلوب : ص103 .

[3] د. محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب 1984 ، ص250 .

- ويقول محمد البوزيدي من قصيدته " أَيَا مُرِيدَ اللهْ " [1] :

كُنْ وَالَهْ تَايَـهْ مَسْرُورَ بْذَكْرَ اللهْ

فِي الاَسْمِ إِذَا تَفْنَى تَصِلْ لْمُسَمَّـاهْ

البيت ، كما يظهر ، مشكّل من بنيتين تركيبيتين هما :

الأولى- كُنْ وَالَهْ تَايَـهْ مَسْرُورَ بْذكرَ اللهْ

الثانية- فِي الاَسْمِ إِذَا تَفْنَـى تَصِلْ لْمُسَمَّـاهْ

وبينما تتألف الأولى من أربعة عناصر مقابل ألفاظ حسب الجدول التالي :

العنصر الأول	العنصر الثاني	العنصر الثالث	العنصر الرابع
كُـنْ	وَالَـهْ تَايَـهْ	مَسْـرُورَ	بْذكرَ اللهْ

فإن البنية الثانية تتركب من أربعة عناصر مقابل أربعة ألفاظ وفق الجدول الآتي :

العنصر الأول	العنصر الثاني	العنصر الثالث	العنصر الرابع
فِي الاَسْمِ	إِذا تَفْنَى	تَصِلْ	لْمُسَمَّـاهْ

[1] ديوان محمد البوزيدي : ص123 .

*** تفسير جملة البنية الأولى :**

يشكّـل هذه البنية البيت الآتي نصُّه :

كُنْ وَالَهْ تَايَهْ مَسْرُورَ بْذَكْرَ اللهْ

بعد تجزيء عناصرها حسب تركيبها الأسلوبي نصل إلى التالي :

1. كُـــــنْ ـــــــ فعل أمر ناقص + اسم فعل الأمر الناقص (ضمير مستتر)
2. وَالَهْ تَايَـهْ ـــــــ خبر فعل الأمر الناقص الأول + خبر فعل الأمر الناقص الثاني
3. مَسْـــرُورْ ـــــــ خبر فعل الأمر الناقص الثالث
4. بْذَكْرَ اللهْ ـــــــ حرف جرّ + اسم مجرور + مضاف إليه

إن جزئية " بْذَكْرَ اللهْ " متعلقة بـِ " مَسْرُورْ " ، حيث وضّحتها وبرّرتها ، بمعنى أن السّرور متعلـّق بذكر الله وليس بشيء آخر كما جرت عادة غير الصّوفية .

وقلب الذاكر غير عامر سوى بهذا الذكر ، فلا يأتيه السرور إلا به ومنه [1] .

ولذلك فإن " بْـذَكْرَ اللهْ " تعدُّ عنصرا أساساً على الرّغم من تعلـّقه بغيره ..

ولن نخوض ، كما فعلنا من قبل ، في أهمية كل عنصر وما يمثـّله ، بترابطه مع غيره ، من أهمية ، لأن ذلك في غِنًى عن البيان . ولكن المهمّ أيضا هو الإشـــــــارة إلى إمكانية تغيير التنظيم الذي اتّـبعه الشّـاعر في بيتـه :

كُنْ وَالَـــهْ تَايَـــهْ مَسْرُورَ بْـذَكْرَ اللهْ

وذلك بواسطة التحوّلات التّركيبية حسب مقياس التوزيع ، ليحور إلى ما يلي :

1. كُنْ وَالَهْ تَايَهْ ، بْذَكْرَ اللهْ ، مَسْرُورْ ـــــــ ع1 + ع2 + ع4 + ع3
2. وَالَهْ تَايَهْ كُنْ ، بْذَكْرَ اللهْ ، مَسْرُورْ ـــــــ ع2 + ع1 + ع4 + ع3
3. وَالَهْ تَايَهْ كُنْ مَسْرُورَ بْذَكْـــرَ اللهْ ـــــــ ع2 +ع1 + ع3 + ع4
4. بْذَكْرَ اللهْ مَسْرُورْ ، كُنْ وَالَهْ تَايَـهْ ـــــــ ع4 + ع3 + ع1 + ع2

---

[1] يمكن ، في هذا الشأن ، مراجعة ما ورد في الباب الثاني من هذا البحث ، ص 181 وص ص226 ، 227 .

5. بْذَكْرَ اللهْ ، كُنْ وَالَهْ تَايَهْ ، مَسْرُورْ ـــــــ ع4 + ع1 + ع2 + ع3

6. مَسْرُورَ بْذَكْرَ اللهْ ، كُنْ وَالَهْ تَايَـهْ ـــــــ ع3 + ع4 + ع1 + ع2

7. مَسْرُورْ ، كُنْ وَالَهْ تَايَهْ ، بْذَكْرَ اللهْ ـــــــ ع3 + ع1 + ع2 + ع4

لا يخفى ما في هذه التّحولات السبعة من معان متداولة ، وإن كان في البعض منها من الغموض ما يجعلنا أمام مغالق معنوية تحتاج إلى بعض التّأويل .

والمسألة متعلّقة ، أولا وأخيرا ، وكما أشرنا سالفا ، بظاهرة التّقديم والتّأخير التي تتحكّم ، إلى حدٍّ ما ، في ضبط معنًى معين .

لنقرأ ، مثلا ، التحوّلين التّركيبيين الثّالث والسّابع :

- وَالَهْ تَايَهْ كُنْ مَسْرُورَ بْذَكْرَ اللهْ ـــــــ ع2 + ع1 + ع3 + ع4

- مَسْرُورْ كُنْ وَالَهْ تَايَهْ بْذَكْرَ اللهْ ـــــــ ع3 +ع1 + ع2 + ع4

ففي التحوّل التركيبي الثالث (ع2+ع1+ع3+ع4) بُدئ بالخبر الأول فالثاني ، ثمّ فعل الأمر الناقص . وتقديم الخبرين على فعلهما الناقص ، ممّا لم يتعوّد عليه السّامع ، فيقع فهمه ، حينئذ ، فيما يشبه الغموض .

بينما تعدّ " مسرورْ " خبرا ثالثا لِ " كنْ " . وموضعها من السياق ، وحسب القاعدة طبيعي لا لبس فيه .

على أن " بْذَكْرَ اللهْ " متعلّقة ب " مَسْرُورْ " كما بيّناه قبل قليل .

وفي التحوّل التركيبي السّابع (ع3+ع1+ع2+ع4) شُرع بالخبر الثالث ، ثمّ فعل الأمر الناقص . وبعده ورد الخبران الأول والثاني ، وهو موضعهما العادي . وأخيرا تأخير " المتعلّق " بالخبر الثالث .

ولكن عندما نقرأ هذا التحوّل :

" مَسْرُورْ كُنْ وَالَهْ تَايَهْ بْذَكْرَ اللهْ " ، وخاصّة العنصر السّابع منه ، قد تختلط علينا تبعيته ، من حيث إنه تابع ، بمعنى التعلّق ، للخبر الثالث الذي تصدّر به التّحوّل ،

أم أنه متعلـّق بالخبرين الأول والثّـاني بحكم " القرب في الذكر " المـُعبَّر عنه نحوياً بـِ " أقرب مذكور " ؟

إن هذه الكيفية في ترتيب العناصر هي التي تحدّد ، إذن ، المعنى المقصـــــــود من حيث تقديمها وتأخيرها ومدى التركيز على أحدها دون الآخر .

*** تفسير جملة البنية الثـّانية .**

تتمثـّل هذه الجملة ، كما وقفنا عليها قبل حين ، في البيت التالي :

فِي الاَسْمِ إِذَا تَفْنَـى تَصِلْ لِمُسَمَّـــــاهْ

بعد تجزئ عناصر هذا البيت وفقا لتركيبه الأسلوبي ننتهي إلى الآتي :

1. فِي الاَسْمِ ـــــ جار ومجرور
2. إِذَا تَفْنَـى ـــــ أداة شرط + فعل مضارع
3. تَصِـــلْ ـــــ فعل مضارع (جواب الشرط) + فاعل (ضمير مستتر)
4. لِمُسَمَّـاهْ ـــــ حرف جرّ + اسم مجرور + مضاف إليه

الحقيقة ، إن ما يهمـّنا في هذا التركيب المختار من قِبَـل الشاعر هو بدايته بالعنصر " فِي الاَسْمِ " لما يحمله من بعد صوفي ؛ فالمقصود بالاسم هنا هو اسم الجلالة " الله " . وفكرة الفناء ، كما هو معروف ، مرتبطة به، بوصفه المحورَ الذي تدور فيه .

وكما فعلنا مع جملة البنية الأولى ، نعيد الكرّة مع هذه فيما يتعلـّق بإمكانية تغيير التركيب الذي اصطفاه الشاعر لنفسه انطلاقا من مقياس التوزيع للوصول إلى التحولات التركيبية الآتيـــــة :

1. فِي الاَسْمِ ، تَصِلْ لِمُسَمـّاهْ ، إِذَا تَفْنَـى ـــــ ع1 + ع3 + ع4 + ع2
2. تَصِلْ لِمُسَمـّاهْ إِذَا تَفْنَى فِي الاَسْـــمِ ـــــ ع3 + ع4 + ع2 + ع1
3. تَصِلْ ، إِذَا تَفْنَى فِي الاَسْمِ ، لِمُسَمَّـاهْ ـــــ ع3 + ع2 + ع1 + ع4
4. إِذَا تَفْنَى فِي الاَسْمِ تَصِلْ لِمُسَمَّـــاهْ ـــــ ع2 + ع1 + ع3 + ع4
5. إِذَا تَفْنَى ، تَصِلْ لِمُسَمـّاهْ ، فِي الاَسْـمِ ـــــ ع2 + ع3 + ع4 + ع1
6. لِمُسَمـّاهْ تَصِلْ فِي الاَسْمِ إِذَا تَفْنَـــى ـــــ ع4 + ع3 + ع1 + ع2
7. لِمُسَمـّاهْ ، فِي الاَسْمِ إِذَا تَفْنَى ، تَصِلْ ـــــ ع4 + ع1 + ع2 + ع3
8. لِمُسَمـّاهْ ، إِذَا تَفْنَى فِي الاَسْمِ ، تَصِلْ ـــــ ع4 + ع2 + ع1 + ع3

إن هذه التحوّلات وغيرها تدلّ على أهمية المفردة واختيار تقديمها أو تأخيرها ، كما تدلّ على تنوّع الصّيغ وإمكانية استخلاص معانيها بحسب تراكيبها .

بيد أن الذي لا شكّ فيه هو أن بعضها عصيّ على الفهم ، إن لم يكن غامضا ومغلقا بالمرّة . تماما كما هو جليّ ، مثلا ، في التحوّلين الخامس والسابع ، بوصفهما يشكّلان بنيتين مشوّشتين انطلاقا من توزيع ألفاظهما .

بعدما عرضنا لتوزيع المفردة واختيارها ، ومدى تأثير ذلك في تشكيل البنية بعامّة ، حاولنا ، من خلال إمكانية تغيير تنظيم التركيب الذي انتقاه الشاعر لنفسه ، أن نستنبط جملة من التحوّلات ، كان الهدف منها تسليط الضّوء على أهمية توزيع المفردة للوصول إلى معنًى معيّن .

بقي لنا الآن التّعامل مع هذه المفردة للوقوف عند قواعد استعمالها ، حتى لا نقول قواعد نحوها ؛ لأن ذلك ممّا لا يدخل في اللهجة الشّعبية ، وإن استخدمت كلمة النحو ومصطلحاته فتجوّزاً فقط .

ثمّ الوقوف ثانية لدى الترتيب والبنية الأساسة للتركيب ..

II- الألفاظ والتراكيب واستخدامهما :

1.II- بحسب الاستعمال

من المفيد جدّاً التذكير بأن الاستعمال المشار إليه لا يعني أبدا النحو وما يرتبط به من قواعد معيارية نقيس بها اللغة الفصيحة . ولكنه يعني جملة من الضّوابط تواضع عليها الناس في مُدَدٍ زمنية متعاقبة ، قد تتغيّر وفقا للتّطوّر اللغوي الذي قد يمسّ هذا الاستعمال ضمن لهجة شعبية معيّنة وفي إطار اجتماعي خاصّ . على عكس ما نجده من واحدية هذه الضّوابط في اللغة المعيارية المسمّـــــاة بالفصيحة أو الرّسمية أو المدرسية ..

ولذلك فإن استخدامنا لبعض مصطلحات النحو ، مما عرفناه سابقا ، وممّـا سنقف عنده لاحقا ، إنما هو استخدام منهجي لتيسير التفسير والاستنباط .

ولكن هذا لا يعني أنْ ليس هناك نقاط تقاطع بين اللغة الفصيحة واللهجة الشّعبية ، وبخاصّة في ترتيب المفردات ورصفها ، وما تؤدّيه من معان بحسب السيـــــــاق : فالفاعل ، مثلا ، يبقى فاعلا وإن اختلف حكمه ، والمفعول كذلك ، وهكذا دواليك ..

ومن أهمّ ما يميّز الشعر الملحون ، بعامّة ، تسكين المتحرّك في الغالب الأعمّ . ويعود ذلك ، فيما نظنّ ، إلى طلب الخفّـة في نطق المفردة ، ناهيك بابتغاء الجرس الموسيقي المؤدّي إلى المتعة الفنية .

ومن ذلك ما جاء في قول قدّور بن عاشور من قصيدته " أدركت منيتي " [1] :

نَبْتَدِي بَاسْمَ الْغَوْثِيَه يَا الْحُضَّـــــــــارْ

نَلْتَهَا بَالْكَدّْ لِيلِي مْعَ نْهَـــــــــــاري

---

[1] ديوان قدّور بن عاشور : ص161 .

جَاتْنِي الْبُشْرَى مَنْ عَنْدَ النَّبِي الْمُخْتَـــارْ

جَا يْخَبَّرْنِي فِي مْكَانِي فِي وَسْطْ دَارِي

صَرْتْ غَوْثَ الْجَنَّه سمَا وَارْضْ وَالنَّارْ

جَاتَ جْمِيعْ الاشْيَا تطُّوفْ بَاوْكَـــارِي

سَلَّمَتْ الاَقْطَابْ وْالاَبْدَالْ وَجْمِيعْ الاَبْرَارْ

عَرَّجْتْ في الْمَلْكُوتْ وَحْدِي فِي طْيَارِي

وما ورد في قول العليوي من قصيدته " رُوحَ وْرَيْحَانْ " [1] :

رُوحَ وْرَيْحَـــانْ	مَا بِينَّ الْخَلَّانْ	جَنَّةْ رَضْوَانْ	فِي حَضْرَتْنَا
حَضْرَةَ الْقَـــدُّوسْ	مَحْيَا لَلنُّفُوسْ	جَنَّةَ الْفَرْدُوسْ	تَحْتَاجْ إِلَيْنَـــا
مَنْ خَمْرَ الْعَرْفَـانْ	سْقِينَا كِيسَانْ	مَنْ يَدْ وَلْـــدَانْ	مُخَلَّـــدِينَـــا
أَهْلَ الْحَقَائِـــــقْ	بِينَ الْحَدَائِقْ	عَلَى نَمَـــارِقْ [2]	مُتَّكِئِينَـــــا

من الواضح أن الألفاظ :

الْحُضَّارْ- بَالْكَدّْ- الْمُخْتَارْ- وَسْطْ- ارْضْ- النَّارْ- جْمِيعْ- تْطُوفْ- الاَقْطَابْ- الاَبْدَالْ- الاَبْرَارْ- الْمَلْكُوتْ ، وهي من نصّ قدّور بن عاشور ،

وأن الألفـــــــــاظ :

رَيْحَانْ- الْخَلَّانْ- رَضْوَانْ- الْقَدّوسْ- لَلنُّـفُوسْ- الْفَرْدُوسْ- الْعَرْفَانْ- كِيسَانْ- وَلْدَانْ- الْحَقَائِقْ- الْحَدَائِقْ- نَمَارِقْ ، وهي من نصّ العليوي ،

وردت ساكنة ، وأصلها أن تُحرَّك . ومرجع ذلك ، كما ذكرناه ، إلى نشدان الموسيقى

---

[1] ديوان العليوي : ص63 .

[2] مفردها نُمرق ونُمرقة ونِمرقة : الوسادة .

(انظر : لسان العرب 4547/6 .)

الخارجية ، << مراعاةً لاستقامة الوزن والانسجام الموسيقي >> [1] .

ولكن هذا لا يعني أن ألفاظ هذه النصوص غير عربية؛ فهي فصيحة، كما يظهر، غير أن التصرّف فيها،بتسكينها أو بتغيير صيغها،هو الذي أضفى عليها الصِّبغة الشّعبية .

إن لغة الكثير من النصوص تقترب ، إلى حدّ كبير ، من اللغة الفصيحة ، ونطقها هو الذي يطبعها بالطّابع العامي [2] .

وكأن الشاعر الشعبي ، على الرغم من تصرّفه في لغته ، لم يستطع البعاد عن الأساليب العربية الشعبية القديمة ، والقريبة جدّا من الأساليب الرّسمية ، كما هو الشّأن بالنسبة للشّعراء : المنداسي وابن التريكي وابن مسايب وغيرهم ، .. ما يدلّ على أنه رُزق بذاكرة قوية اختزنت الكثير من أشعار هؤلاء وسواهم .

وذلك ما جعل شاعر الملحون << الذي يملك حصيلة ثقافية متينة ، ومارس الأسلوب العربي يغدو من الصّعب عليه أن يعبِّر بلهجة عامية دون أن يظهر أثر الأسلوب العربي في تراكيبه وألفاظه وطريقة تفكيره >> [3] .

قلنا ، قبل قليل ، إن استخدامنا للنحو هو مجرّد استخدام إجرائي ليس إلا ، لأننا أمام شعر شعبي من أخصّ خصائصه أنه << يختلف عن الشّعر الفصيح في لغته الشعبية ، وهي حضرية أو قروية أو بدوية ، وفي أوزانه .. ، وفي مواضيعه >> [4] .

---

[1] أحمد صادق الجمّال : الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، الدر القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط01: 1966 ، ص146 .

[2] انظر : الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص495 .

[3] دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945 ، ص413 .

[4] د. عثمان الكعاك : العادات والتقاليد التونسية ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط02: 1981 ، ص62 .

ومع ذلك ، فإن شاعر الملحون لا يلتزم ببعض القواعد دونما سبب نحـــــوي أو صرفي لأن ذلك يعود ، كما أسلفنا الذكر ، إلى طلبه النغم والموسيقى .

ومن هذه القواعد :

1. تسكين آخر الكلمة : يعدّ ظاهرة لغوية عامّة غالبة. ومن خلالها تفقد الكلمـــــة إعرابها .

ومن أمثلة ذلك قول البوزيدي من قصيدته " أيا مريد اللهْ " [1] :

كُنْ وَالَهْ تَايَهْ مَسْرُورَ بـذَكْرَ اللهْ

فتسكين أخبار " كُنْ " والمضاف إليه ، ليس له مبرّر نحوي .

وقول المنور بن يخلف من قصيدته " يَا رَايَسَ الْوْلَايَا " [2] :

وَاللّـي اخْدِيمْ بَشْبُوبَكْ لَيْسَ يْبُورْ

فْكُلّ يُومْ لِيهْ الرَّاتَبْ يَنْـــــزَادْ

فتسكين الضّمير المتّصل والفعل المضارع والمضاف إليه والمبتدأ والفعل المضارع ، ممّا ليس له أية علّة نحوية أيضاً .

2. حذف نون الأفعال الخمسة :

مثلما جاء في قول محمد بن يلس [3] :

بِهَ الهْمُومَ يْزُولُـوا وَالذَّاكْـرِينَ يْصُولُـوا

فنون الفعل المضارع " يْصُولُـوا " حُذفت دونما علّة نحوية .

---

[1] ديوان البوزيدي : ص123 .

[2] الكنز المكنون : ص16 .

[3] ديوان محمد بن يلس : ص23 .

وفي قول الطـّاهر بن حواء من قصيدته " يا من درى آشْ من نهارْ " [1] :

محفوظٌ مَا ثرَى بَاسْ مَنْ ايْرِيدُوا شَرَّكْ

مَضْمُونَ امْنَ الأذايَه أهْلَ الصـّـفـَا ضَمْنُوكْ

فنون الفعل المضارع " يريدوا " حُذِفت بدون سبب نحوي أيضاً .

3. رفع المجرور ونصبه وتسكينه :

كما في قول عدّة بن تونس من زجله " مال الحبيبْ " [2] :

تَاجْ الاَقْطَابْ سِيدِي احْمَدْ يَا الاَخْـوَانْ

مَنْ حُبُّه اسْكَنَ اكْـنَـانِي

وفي قول الكلاعي من قصيدته " كَانَ انْتُمَا زَيَّارْ " [3] :

تَحْتَ اقْدَامَكْ خَضْعُوا امْلُوكْ لَكْتَنْ سَرَّكْ رَبَّانِـــي

شَلـَّى امْنَ الْعُلَمَا اعْلَى اخْصَالـَكْ جَعْلُوا الاَسْفَارْ

وفي قول المنور بن يخلف من قصيدته " يَا رَايَسَ الْوْلاَيَا " [4] :

فَالْمَلْكْ وينْ رُحْتَ انْصِيبَكْ مَذْكُورْ

مَنْ فَاسْ لَلْعْجَمْ وْبَرّ الاَكْـرَادْ

4. حلول حروف بدل أخرى : وهو كثير في الشعر الملحون [5] ؛

ـ كحلّ الهاء محلّ التاء ؛ مثل قول العليوي من قصيدته " يا رجال غابوا " [6] :

---

[1] الكنز المكنون : ص52 .

[2] ديوان عدّة بن تونس : ص45 .

[3] الكنز المكنون : ص176 .

[4] نفسه : ص16 .

[5] وفي الكلام الفصيح ، بعامة ، مثلما نجده في سورة الحاقة .

[6] ديوان العليوي : ص51 .

قُلُوبْ خَائِضَهْ فِي رَحْمَةِ اللهْ أَسْرَارْ فَائِضَهْ وَاللهْ وَاللهْ

- وكإثبات الواو محلّ الهاء نحو قول عدّة بن تونس من زجله " مَالَ الْحَبِيبْ " [1] :

ظَنِّيتْ فِيهْ مُولاَيَ غَالِي الشَّانْ

عَنْدُو عْزِيزْ مَا يَنْسَـــــانِي

[1] ديوان عدّة بن تونس : ص45 .

II.2- بحسب الترتيب والبنية الأساسة .

لا بأس من التذكير بأن اللغويين يقسمون الكلام ، عادة ، إلى جمل ، وأن هذه الجمل يفرّعونها إلى ما يمكن تسميته بالأركان المؤسسة لها ، مثل المسند والمسند إليه ، كالاسم والفعل والحرف والمفردات المستهلكة في ذلك ، و<< كل ما زاد على جزأي الجملة هو منطقة فضول أو زيادة يمكننا أن نحدّد موضعها أو نفصلها عن الجانب الأساسي في البناء النحوي للتركيب أو الجملة >> [1] .

فالكلام ، إذن ، يقوم على وحدات جزئية تمثّل أصواتاً مشكّلة لِوَحدة كلامية تكتسب دلالات معينة حين تجتمع هذه الوحدات بعضها إلى بعض . ولذلك فإن صاحب أي تشكيل لغوي << يؤلّف بين وحدات لغوية صغرى بهدف بناء مكوّنات أكبر فمركبات ، فجمل إلى غير ذلك ..

وعملية التأليف هذه تنتظمها رتب تختلف في اللغة الواحدة ، وتختلف من لغة إلى لغة أخرى أحياناً .. >> [2] .

عرفنا ، من خلال دراستنا لبعض البُنَى التركيبية ، الإطار العامّ الذي يحدّده الكلام بواسطة جمله المشكّلة له ، وفق الرتبة التي تقوم عليها المفردة ، والبنية الأساسة التي تؤدّي المعنى المراد .

وأصل الرتبة أو الترتيب في العربية يتمثّل فيما يلي :

1. الفعل والفاعل والمفعول به ؛

كما في قول محمد بن يلس من قصيدته " الكُؤُوسَ اليَلَسِيَة " [3] :

خُوضُوا بَحْرَ الْمَعَانِي تَشْهَدُوا الْبَدْرَ التَّمَامْ

---

[1] د. تامر سلّوم : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، ص ص120 ، 121 .

[2] د. عبد القادر الفاسي الفهري : اللسانيات واللغة العربية ، منشورات عويدات ، بيروت ، د.ت. ، ص130 .

[3] ديوان محمد بن يلس : ص34 .

فجملة " خُوضُوا بَحْرَ الْمَعَانِي " مشكّلة ، بالترتيب ، من الفعل " خُوضُوا " والفاعل " واو الجماعة " والمفعول به " بَحْرَ " .

2. المبتدأ والخبر ؛

مثلما في قول العليوي من قصيدته " يَا خِلِّي فَاشْطَحْ " [1] :

سَرَّكْ لَامَعْ وَالْحَقّْ سَاطَعْ

وَالشُّرْبْ نَافَعْ هُوَ لِكْ مَنْكَ قَرِيبْ

فَ " سَرَّكْ لَامَعْ " مبتدأ وخبر ، وكذلك " الْحَقّْ سَاطَعْ " و" الشُّرْبْ نَافَعْ " .

3. الموصوف والصفة ؛

نحو قول قدّور بن عاشور من قصيدته " انْشَقّْ فَجْرَ الصّْبَاحْ " [2] :

أَهْلَ الْجُودَ النَّاصَحْ مَنْ جَحْدُوهُمْ جَاحُوا أَهْلَ التَّصْنِيفْ شُرَّاحْ

مَن اقْرَاوْا الْوَاحُه

فِيهُمْ رْجَالَ امْلَاَحْ وَالبَعْضَ اقْبَاحُوا يَجِبْ لَنَا السَّمَاحْ

فَالرَّحْمَه نَرْتَاحُوا

فَ " الْجُودَ النَّاصَحْ " وَ" رْجَالَ امْلَاَحْ " ممّا يدخل في الموصوف والصّفة مرتّبين .

وإذا لم يُلتزم بالترتيب في التركيبات السّابقة ، فإن ثمّة غموضاً قد يكتنفها ، ما يستدعي التّوسّل بالتّأويل لشرح ما يُراد قوله .

وقد وصلنا إلى ذلك ، قبل حين ، عندما حاولنا الانتهاء إلى بعض التحولات التركيبية ، انطلاقاً من مقياس التوزيع .

---

[1] ديوان العليوي : ص54 .

[2] ديوان قدّور بن عاشور : ص219 .

في ضوء ما سبق ذكره ، نرى أن البُـنَـى التركيبية التي وقفنا عندها سمحت لنا بالتعرّف إلى أن تسلسلا منطقيا ، في ترتيب الألفاظ ، هو الذي ساد للوصول إلى معنى ما . وإن أي خرق لهذا التسلسل من شأنه إضفاء عنصر التأويل على النص ، ما يجعله عصيّاً على الفهم إلى حدٍّ ما .

كما سمحت لنا هذه البُـنَـى بالوقوف على البساطة في التركيب ، وهو أمر مقصـــــود في الشعر الملحون إلا ما ندر . والألفاظ هي المادّة الأساسة التي تكوّن ، في جملتها ، أسلوباً معيّـناً ، واختيارها لا بدّ أن يتوافق مع المعنى المراد من قِبَـل الشّـاعر .

الباب الثاني : دراسة في المضمون

* مدخـــــــــــل

الفصل الأول : المريديـات

الفصل الثاني : مدح الشيوخ

مدخـــــــــــل :

من بواكير الشعر الديني المتعلق بالجانب الوعظي ، خاصة ما كان يجـــــري على بعض الألسنة من ذكر للحياة والموت ، ما رُوي عن معاوية أنه تمثّل ، عند موته ، بهذا البيـــــــــت [1] :

هُوَ الْمَوْتُ لاَ مَنْجَى مِنَ الْمَوْتِ وَالذِي

نُحَاذِرُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَنْكَى وَأَفْظَـعُ

وما رُوي عنه أيضا أنه لما حضرته الوفاة قال [2] :

إِنْ تُنَاقِشْ يَكُنْ نِقَاشُكَ يـــــــا رَ

بِّ عَذَاباً ، لاَ طَوْقَ لِي بِالْعَذَابِ

أَوْ تَجَـــــــاوَزْ فَأَنْتَ رَبٌّ رَؤُوفٌ

عَنْ مُسِـــــيءٍ ذُنُوبُهُ كَالتُّرَابِ

وما جاء في معرض حديث الفرزدق عن توبته وإقلاعه عن الهجاء والشتم ؛ إذ يوقن أن الموت ملاقيه ، فيستعد له بالفرار إلى الله ، وذلك في قولـــــه [3] :

أَلَمْ تَرَنِي عَاهَدْتُ رَبِّي ، وَأَنَّنِـــي

لَبَيْنَ رِتَاجٍ قَائِمٍ وَمُقَـــــــــامِ

عَلَى قَسَمٍ لاَ أَشْتِمُ الدَّهْرَ مُسْلِمـــاً

وَلاَ خَارِجاً مِنْ فِيَّ سُوءُ كَـــلاَمِ

---

1 ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج3 ، تحقيق : محمد سعيد العريان . مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط2: 1953 ، ص115 .

2 ابن رشيق : العمدة ، ج1 ، حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان ، ط5: 1981 ، ص35 .

3 ديوان الفرزدق ، مج2 . دار بيروت للطباعة والنشر:1980 ، ص ص212 ، 213 .

أَطَعْتُكَ يَا إِبْلِيسُ سَبْعِينَ حِجَّـــةً،

فَلَمَّا انْتَهَى شَيْبِي ، وَتَمَّ تَمَامِـــي

فَرَرْتُ إِلَى رَبِّي ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّنِـــي

مُلَاقٍ لِأَيَّامِ الْمَنُونِ حِمَامِـــــي

وكانت الموعظة تبلغ مبلغها ، عندما تُبكي الموعوظ ، إلى درجة الغشيـــــان :

<< دخل سابقٌ البربري على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : عِظْنِي يا سابقُ وأوجزْ ، قال نعم يا أمير المؤمنين وأبْلِغُ إن شاء الله ، قال : هات . فأنشده :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى

وَوَافَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَـــدْ تَزَوَّدَا

نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ شِرْكَتَـهُ

وَأَرْصَدْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ مَا كَانَ أَرْصَدَا

فبكى عمر حتى سقط مغشيا عليه >> [1] .

ومما يتصل بالشعر الديني أيضا ، الحكمة الدينية التي تعتمد على النظرة المتفحصة للحياة ؛ فالإنسان مآله إلى الزوال ، ومستقرّه دار أخرى . فَفِيمَ تكالبـــــه على الدنيا ، واقترافه الآثام ؟ !

يقول أبو الأسود الدؤلي [2] :

أَيُّهَا الْآمِلُ مَا لَيْسَ لَـــــهُ

رُبَّمَا غَرَّ سَفِيهاً أَمَـــلُـهْ

---

1 أبو نعيم الأصفهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج5 . دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط2 : 1967 ، ص318 .

2 العقد الفريـــد : 126/3 .

رُبَّ مَنْ بَاتَ يُمَنِّي نَفْسَـهُ

حَالَ مِنْ دُونِ مُنَاهُ أَجَلُـهْ

وَالْفَتَى الْمُخْتَالُ فِيمَا نَابَـهُ

رُبَّمَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ حِيَلُـهْ

قُلْ لِمَنْ مَثَّـلَ فِي أَشْعَارِهِ

يَهْلِكُ الْمَرْءُ وَيَبْقَى مَثَلُـهْ

نَافِسِ الْمُحْسِنَ فِي إِحْسَانِهِ

فَسَيَكْفِيكَ سَنَاءً عَمَلُـــهْ

ويرى ابن حطّان أن المقبلين على الدنيا أشقياء ؛ لأنها مجرد سحابة صيف سرعان ما تتجدّد ، وذلك في قولـــــــــــه [1] :

أَرَى أَشْقِيَاءَ النَّاسِ لاَ يَسْأَمُونَهَا

عَلَى أَنَّهُمْ فِيهَا عُرَاةٌ وَجُـوَّعُ

فَإِنْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُحَبّ فَإِنَّهَـــا

سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ

وإلى جانب هذا ، شارك الرجز في العصر الأموي شعر التدين موضوعاته كثيرا ؛ فقد تضمّن الحكمة الدينية ، التي نحن بصددها ، وهي لا تخرج عن النظرة الدينية للحياة والموت .

قال الراجـــــــز [2] :

---

[1] حلية الأولياء : 6/373، 374 .

2 الجاحظ : البيان والتبيين ، ج3 ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون . مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ط2 : 1960 ، ص146 .

مَنْ عَاشَ دَهْراً فَسَيَأْتِيهِ الْأَجَلْ

وَالْمَرْءُ تَوَّاقٌ إِلَى مَا لَمْ يَنَـــلْ

الْمَوْتُ يَتْلُوهُ وَيُلْهِيهِ الْأَمَلْ

وقال أبو النجم العجلي[1] :

فَلَوْ تَرَى التُّيُوسَ مُضْجَعَاتِ

عَرَفْتَ [2] أَنْ لَسْنَ بِسَالِمَـــــاتِ

أَقُولُ إِذْ جِئْنَ مُذَبَّحَـــــاتِ

أَلَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ رَاتِعَـــــاتِ [3]

مَا أَقْرَبَ الْمَوْتَ مِنَ الْحَيَاةِ

<< ولعلَّ من الطريف أن تعرف أن بعض الرجاز رأى أن يستهلَّ بعض ما ينشئ من أراجيز بالحمد والثناء على الله ، بدلا من الوقوف القديم بالأطلال والبكـــاء على الديار ؛ فأبو النجم العجلي يبتدئ أشهر أراجيزه بقوله :

الْحَمْدُ لِلهِ الْوَهُوبِ الْمُجْزِلِ

في حين يبتدئ العجاج أهم أراجيزه بقولـــــه :

قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهُ فَجَبَـرْ

وفي ديوانه أرجوزة يفتتحها بقولـــــــــه :

الْحَمْدُ لِله الذِي اسْتَقَلَّـــتْ

بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ وَاطْمَأَنَّـــتِ

---

[1] المصدر السابق : ص202 .

[2] وفي : الشعر والشعراء لابن قتيبة / ط03 : 1987 ، ص407 : علمت

[3] نفسه ، ص407 : على الأكافين معدّلاتِ

ويستمر فيتحدّث عن خلق السماوات والأرض ، وما يكون من البعث والنشور ، ويتحول إلى ما يشبه الواعظ >> [1] .

ولم تمض سنوات من القرن الثاني الهجري ، حتى أخذت الحياة الروحيـــــــة في الاستقرار والتعمق ؛ فبرز الحديث عن بعض المعاني الروحية . كما أخذت تأثيرات الأفكار الأجنبية في الظهور .

وقد رأينا ، قبل حين ، أن شعر التدين المرتبط بالوعظ والحكمة الدينية ، وبقراءة عابرة له ، كان صادق التعبير ؛ لأنه يصدر عن عاطفة دينية راسخة ؛ الأمر الذي جعله ينشط ويتطور ، ويبدأ في التردّد على ألسنة العُبّاد والزّهّاد ؛ فقد مرّ مالك بن دينـــــار على رجل يغرس فسيلا ، فغبر عنه يسيرا ، ثمّ مرّ بالفسيل وقد أطعم ، فسأل عن الذي غرسه فقالوا : مات .

ثمّ أنشأ يقـــــول [2] :

مُؤَمِّلُ دُنْيَا لِتَبْقَـــــى لَهُ
فَمَاتَ الْمُؤَمِّلُ قَبْلَ الْأَمَـــلْ
يُرَبِّي فَسِيلاً وَيُعْنَـــــى بِهِ
فَعَاشَ الْفَسِيلُ وَمَاتَ الرَّجُلْ

وسئل سفيان الثوري ، ذات مرة ، عن التقوى فأنشد [3] :

إِنِّي وَجَدْتُ فَلاَ تَظُنُّوا غَيْرَهُ
هَذَا التَّوَرُّع عَنْ هَذَا الدِّرْهَـمِ

---

[1] د. شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي . لجنة التأليف والترجمة والنشر: 1952 ، ص45 .

[2] حلية الأولياء : 384/2 .

[3] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج1 ، ط2: 1923 ، ص32 .

فَإِذَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَكْتَـــهُ

فَاعْلَمْ بِأَنَّ هُنَاكَ تَقْوَى الْمُسْلِمِ

وفي الجملة ، فقد استجاب الشعر لمعان جديدة طرأت على الحياة الروحية ؛ فبعدما كانت مجرَّد تعبّد وعزوف عن الدنيا ، في القرن الأول ، صارت تعبدا مبالغا فيه ، وانصرافا كليا عنها وعن زخرفها . وكان هذا في القرن الثاني .

إن هذه الحركة هي التي تسمّى الزهد . وقد ارتبطت بالشعر ، فنشأ شعر الزهـــــد : << وهو طور جديد من أطوار شعر التدين ، يختلف عن طوره الأول في شدة توغلـه في الروحانية ، واشتماله على المقومات الجديدة للحياة الروحية في القرن الثاني >> [1] .

كان محمد بن يوسف يتمثّـل بهذا البيت [2] :

إِذَا كُنْتَ فِي دَارِ الْهَوَانِ فَإِنَّمَا

يُنَجِّيكَ مِنْ دَارِ الْهَوَانِ اجْتِنَابُهَا

وهو (أي البيت) دعوة صريحة إلى ترك الدنيا كلية .

وكان سفيان الثوري يتمثَّـل بآخر ، وهو قول الشّـاعر [3] :

بَاعُوا جَدِيداً جَمِيلاً بَاقِياً أَبَداً

بِدَارِسٍ خَلِقٍ يَا بِئْسَ مَا اتَّجَرُوا

---

1 عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ؛ نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري .

مطبعة الأنجلوالمصرية: 1954 ، ص173 .

2 حلية الأولياء : 235/8 .

3 نفسه : 05/7 .

والبيت مقتبس ، فيما يبدو ، من قوله تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ " .

(من سورة البقـــرة : 86)

ومن صور التطور في الشعر الديني عموما ، وفي شعر الزهد خصوصا ، صور المجاهدة . من ذلك ما رُوي من أن سعيد بن وهب الشاعر ، المتوفّى زمن المأمون ، حجّ ماشيا ، بعد توبته ، فبلغ ذلك منه مبلغه ، فقـــــال[1] :

قَدَمَيَّ اعْتَوَرَا رَمْلَ الْكَثِيب
وَاطْرُقَا الْآجِنَ مِنْ مَاءِ الْقَلِيـــب
رُبَّ يَوْمٍ رُحْتُمَا فِيهِ عَلَـى
زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَفِي وَادٍ خَصِيـب
وَسَمَاعٍ حسنٍ مِنْ حسْـنٍ
صَخِبِ الْمُزْهِرِ كَالظَّبْيِ الرَّبِيبِ
فَاحْسِبَا ذَاكَ بِهَذَا وَاصْبِرَا
وَخُذَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ بِنَصِيـــب
إِنَّمَا أَمْشِي لِأَنِّي مُذْنِـــبٌ
فَلَعَلَّ اللهَ يَعْفُو عَنْ ذُنُوبِـــي

ومن طلائع التعاليم الزهدية ، ما نجده لدى عبد الله بن المبارك (ت:181هـ) ؛ فقد كان إذا خرج إلى مكة يقـــــول [2] :

بُغْضُ الْحَيَاةِ وَخَوْفُ اللهِ أَخْرَجَنِي
وَبَيْعُ نَفْسِي بِمَا لَيْسَتَ لَهُ ثَمَنَـا
إِنِّي وَزَنْتُ الذِي يَبْقَى لِيَعْدِلَـــهُ
مَا لَيْسَ يَبْقَى فَلاَ وَاللهِ مَا اتَّزَنَا

---

[1] ابن الجوزي : صفة الصفوة ، ج2 . مطبعة النهضة الجديدة بالقاهرة ، ط1: 1970 ، ص360 .

[2] الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ج10. دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت. ، ص166 .

فبغض الحياة ، وخوف الله ، وميزان المقابلة بين الآجلة والعاجلة ، مع رجحان كفة الأولى ، كل أولائك من المعاني الزّهدية التي نشأت عن شدّة التعلـّق بالله ، والخوف منه ، وإيثار الآخرة على الدنيا .

ومن المقطوعات الجميلة المأثورة عن ابن المبارك كذلك ، ما قالـــــــــه [1] في بعض آداب وأخلاق المسلم الصالح :

الصَّمْتُ أَزْيَنُ بِالْفَتَـــى
مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِـــــهْ
وَالصِّدْقُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى
فِي الْقَوْلِ عِنْدِي مِنْ يَمِينِـــــهْ
وَعَلَى الْفَتَى بِوَقَـــارِهِ
سِمَةٍ تَلُوحُ عَلَى جَبِينِـــــهْ
فَمَنِ الذِي يَخْفَى عَلَـــيْ
ـــكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى قَرِينِـــــهْ
رُبَّ امْرِئٍ مُتَيَـــقِّنٍ
غَلَبَ الشَّقَاءُ عَلَى يَقِينِـــــهْ
فَأَزَالَهُ عَنْ رَأْيِـــــهِ
فَابْتَاعَ دُنْيَاهُ بِدِينِـــــــهْ

وثمة ظاهرة جدّت على الحياة الروحية هي ظاهرة المجانين ، ولكنهم ليسوا كالمجانين المتعارف عليهم ، من الذين لا يميزون الخبيث من الطيب ؛ إنهم مجانيـــن

---

[1] حلية الأولياء : 3/ 196 .

من نوع خاص ؛ ينطقون بالحكمة ، وتتردّد على ألسنتهم الموعظة . وبمعنى أدق ، فإن جنونهم جنون متعلّق بطاعة الله ، ولذلك يُطلق عليهم ، في مؤلفات طبقات الصوفية ، اسم " عقلاء المجانين " .

ومنهم " شعوانة " إحدى زاهدات القرن الثاني ؛ كانت تردّد هذا البيت[1] فَتَبْكِي وتُبْكِي النّسّاك معهـــا :

لَقَدْ أَمِنَ الْمَغْرُورُ دَارَ مُقَامِهِ
وَيُوشِكُ يَوْماً أَنْ يَخَافَ كَمَا أَمِنْ

ومنهم أيضا " ميمونة السوداء " التي لقيها عبد الواحد بن زيد فأنشدتـــــه [2] :

يَا وَاعِظاً قَامَ لِاحْتِسَـــــــابِ
يَزْجُرُ قَوْماً عَنِ الذُّنُـــــــوبِ
تَنْهَى وَأَنْتَ السَّقِيمُ حَقّـــــاً
هَذَا مِنَ الْمُنْكَرِ الْعَجِيـــــــبِ
لَوْ كُنْتَ أَصْلَحْتَ قَبْلَ هَـــذَا
غَيَّكَ أَوْ تُبْتَ مِنْ قَرِيـــــبِ
كَانَ لَمَّا قُلْتَ يَا حَبِيبِـــــي [3]
مَوْقِعَ صِدْقٍ مِنَ الْقُلُـــــوبِ
تَنْهَى عَنِ الْغَيِّ وَالتَّمَـــادِي
وَأَنْوُتَ فِي النَّهْيِ كَالْمُرِيـــــبِ

---

[1] المصدر السابق : 170/8 .

[2] نفسه .

[3] " حبيبي " : كلمة كانت متداولة بين الزهاد منذ القرن الثاني .

ومما يُعزى لميمونة هذه قولـــــها [1] :

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُـــونٌ

تَرَى مَا لاَ يَرَاهُ النَّاظِرُونَـــا [2]

وَأَلْسِنَةٌ بِسِرٍّ قَدْ تُنَاجِـــــي

تَغِيبُ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَـــا

وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيـــــشٍ

إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَـــا

فَنَسْقِيهَا كُؤُوسَ الصِّدْقِ صِرْفاً

وَنَشْرَبُ مِنْ كُؤُوسِ الْعَارِفِينَـا

ولا يخفى ما في هذه المقطوعة من نفحات صوفية ؛ وآية ذلك ما ورد في معجمها اللغوي أمثال : عيون قلوب العارفين ، و الأجنحة التي تطير بغير ريش إلى الملكوت الإلهي ، وكؤوس الصدق العامرة بالخمر المقدّسة الصافية ..

ومن عقلاء المجانين كذلك " ريحانة " : يُروى عنها أنها قامت << أول الليل وهي تقـــــول :

قَامَ الْمُحِبُّ إِلَى الْمُؤَمَّـــلُ

كَادَ الْفُؤَادُ مِنَ السُّرُورِ يَطِيرُ

فلما كان جوف الليل سمعتها (أي الربيع) تقول أيضا :

---

[1] د. عبد الرحمن بدوي : شهيدة العشق الإلهي . نشر مكتبة النهضة ، ص117 .

[2] لأن العارف ينظر بالله عزّ وجلّ ، بينما المؤمن ينظر بنور الله .

(انظر : د. عبد المنعم الحفني ، معجم مصطلحات الصوفية . دار المسيرة ، بيروت ، ط1: 1980 ، ص181)

لاَ تَأْنَسَنَّ بِمَنْ تُوحِشُكَ نَظْرَتُـــــهُ

فَتُمْنَعَنَّ مِنَ التِّذْكَارِ فِي الظُّلَـــــمِ

وَاجْهَدْ وَكَدَّ وَكُنْ فِي اللَّيْلِ ذَا شَجَنٍ

يَسْقِيكَ كَأْسَ وِدَادِ الْعِزِّ وَالْكَـــرَمِ

.. ثم نادت : واحرباه واسلباه . فقلت (أي الربيع) : مِمَّ ذا ؟ فقالت :

ذَهَبَ الظَّلاَمُ بِأُنْسِهِ وَبِأُلْفِـــهِ

لَيْتَ الظَّلاَمَ بِأُنْسِـهِ يَتَجَـدَّدُ >> [1] .

ومنهم ، كذلك ، " بهلول " [2] الذي كان يقـــول [3] :

أُفٍّ لِلدُّنْيَا فَلَيْسَتْ لِـــي بِدَارِ

إِنَّمَا الرَّاحَةُ فِي دَارِ الْقَـــرَارِ

وكان يقول أيضا : << من رزقه الله جمالا ومالا فعفَّ في جماله ، واتقى في ماله ، كُتِبَ في ديوان الأبرار >> [4] .

ومما رواه بعضهم عنهم (أي عقلاء المجانين) أنه رأى << مجنونا بالبصرة قد نظر إلى جنازة فقـــــــــال :

وَصَفَ الطَّبِيبُ فَـهُمْ بِمَا

وَصَفَ الطَّبِيبُ يُعَالِجُونَـهْ

يَرْجُونَ صِحَّةَ جِسْمِـــهِ

هَيْهَاتَ مِمَّا يَرْتَجُونَـــــهْ

---

[1] صفة الصفوة : 57/4 .

[2] طالع حديثا عنه في : البيان والتبيين : 230/2 ، 231 .

[3] صفة الصفوة : 517/2 .

[4] نفســـــــه : ص ص517 ، 518 .

قال : ثمّ غلبه البكاء ومضى >> [1] .

ومن المفيد أن نشير، نهاية، إلى طائفة أخرى من شعراء الزهد من القرن الثاني . بيد أن هؤلاء لم ينصرفوا عن الدنيا وملذاتها ، بل استهوتهم مُتعها ، وعكفوا ، في وقت ما ، على اجتراح السيئات ، وإتيان الآثام ما صغُر منها وما كبُر .. وعندما شاخوا ، فترت أهواؤهم ورغباتهم ؛ ما جعلهم ينظرون إلى الحياة نظرة أخرى ، غير التي كانوا ينظرونها من قبل . لقد وقفوا موقف المتأمّل المتدبِّر المستدرك لحسناته التي ضاعت منه في مرحلة الشباب بسبب الطيش والضلال ، وذلك هو مصداق ما جـــــــاء في قول أبي نواس [2] :

وَمَا سَاسَ أَمْراً كَذِي شَيْبَـــةٍ
بَصِيرٍ بِمَا سَاسَ مُسْتَوْثِـقِ
وَمَا أَحْكَمَ الرَّأْيَ مِثْلَ امْـــرِئٍ
يَقِيسُ بِمَا قَدْ مَضَى مَا بَقِـي

وفي قوله أيضا [3] ، مصوِّرا جناية الشّباب ، والتفريط في جنب الله ، اللذين لا يُريان ، عادة ، إلا في مرحلة الشيخوخة الواعظة المتبصِّرة :

لِلهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظٍ
وَنَاصِحٍ لَوْ سُمِعَ النَّاصِحُ

ومن الطبيعي أن يرافق ذلكَ الندمُ المتأججُ الموحي بأشعار ، أقل ما توصف به ، الرقة والعذوبة ؛ فالمُجَّان << حين يزهدون يصبح شعرهم قيثارة تندب بأوتار النّدم والخوف ، ويُمسون لهم شمائل تَتَّفَحُ بالوداعة واللّين >> [4] .

---

[1] المصدر السابق : 13/4 .

[2] ديوان أبي نواس : دار صادر ، لبنان ، د.ت. ، ص176 .

[3] نفســـــــــه : ص618 .

[4] د. زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، ج1 ، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، د.ت. ، ص75 .

ومن الأمثلة على ذلك الشاعر التائب آدم بن عبد العزيز الذي كان في بدايـــة << أمره خليعا ماجنا منهوكا في الشَّراب ، ثمّ نسك بعدما عمَّر ، ومـــــات على طريقة محمودة >> [1] .

يقـــــول [2] ، وقد أقلع عن الخمر رابطا ذلك برجاء الجزاء من قِبَل الله القادر :

أَلاَ هَلْ فَتىً عَنْ شُرْبِهَا الْيَوْمَ صَابِرُ

لِيَجْزِيَهُ يَوْماً بِذَلِكَ قَـــــــــادِرُ [3]

شَرِبْتُ فَلَمّاَ قِيلَ لَيْسَ بِنَـــــازِعٍ

نَزَعْتُ وَثَوْبِي مِنْ أَذَى اللَّوْمِ طَاهِرُ

وثمَّ شاعر آخر ، لا تقوم روحانيته على الأساس الذي قامت عليه روحانية آدم المذكور ؛ إنه محمد بن يسير الرياشي الذي كان << شاعرا ظريفا من شعـــــــراء المحدثين . متقلل ، لم يفارق البصرة ، ولا وفد إلى خليفة ولا شريف منتجعاً ، ولا تجاوز بلده وصحبته طبقته ، وكان ماجنا هجاءا خبيثا >> [4] .

وأساس روحانية هذا الشاعر ، في توبته ، هو الخوف من الموت الذي يرى فيه الملجأ الأخير، وما يترتّب بعده من ويل لمن لم يرحمه الله .

أنشد الرياشي في مجلس أبي محمد الزاهد صاحب الفضيل بن عياض يوما الأبيات التاليـــــة [5] :

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، مج15 . دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط6: 1983 ، ص227 .

[2] نفسه : 230/15 .

[3] وفي معجم الأدباء ، ج7 ، ط1: 1925 ، ص303 : ليجزيه عن صبره الغد القادر .

[4] نفسه : 18/14 .

[5] نفسه : 38/14 .

وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَرْحَـــمِ اللهُ
وَمَنْ تَكُونُ النَّارُ مَثْـوَاهُ
وَاغَفْلَتَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَضَـــى
يُذكِرُنِي الْمَوْتَ وَأَنْسَاهُ
مَنْ طَالَ فِي الدُّنْيَا بِهِ عُمْرُهُ
وَعَاشَ فَالْمَوْتُ قُصَارَاهُ
كَأَنَّهُ قَدْ قِيلَ فِي مَجْـــلِسٍ
قَدْ كُنْتَ آتِيهِ وَأَغْشَـــاهُ
مُحَمَّدٌ صَارَ إِلَى رَبِّـــــهِ
يَرْحَمُنَا اللهُ وَإِيَّـــــاهُ

فأبكى جميع من حضر .

ومن أشعاره التي نلمس فيها الصدق والإخلاص من خوفه قولـــــه [1] :

عَجَباً وَمِنْ رِضَايَ بِحَـــالِ
أَنَا مِنْهَا عَلَى شَفَا تَغْرِيـــرِ
عَالِماً لاَ أَشُكُّ أَنِّي إِلَى عَـــدْ
نِ إِذَا مِتُّ أَوْ عَذَابِ السَّعِيرِ
كُلَّمَا مَرَّ بِي عَلَى أَهْلِ نَـــادٍ
كُنْتُ حِيناً بِهِمْ كَثِيرَ الْمُرُورِ
قِيلَ مَنْ ذَا عَلَى سَرِيرِ الْمَنَايَا
قِيلَ هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ يَسِيـــرِ

---

[1] البيان والتبيين : 179/3 .

أما أبو نواس فهو أشهر التائبين بعد طول مجون ؛ ومردّ ذلك إلى مكانته الشعرية ، وإخلاصه في مجونه وزهده ؛ فالرجل ، كما يرى أحد الباحثين ، << إنما يتكلم بكلام أصحاب المبادئ ، فهو يشكّ عن إخلاص ، ويلحد عن إخلاص ، ويفسق عن إخلاص ، ويتوب عن إخلاص ، فهو أنموذج لقوة الروح ، وحياة الوجدان >> [1] ؛

أليس هو القائـــــــــل ؟ [2] :

فَإِذَا نَزَعْتَ عَنِ الْغِوَايَةِ فَلْيَكُنْ

لِلهِ ذَاكَ النُّزْعُ لاَ لِلنَّـــــاسِ

وبعد ، فهذه لمحة موجزة من شعر التدين والزهد . ومن المجدي، الآن، التفريق بين الزهد والتصوف ؛ بوصف الأول سابقا للثاني ، ثم الحديث عن الزهد ، ثانية ، بوصفه سلوكاً جسّده بعض رواده إرهاصاً للتصوف .

إن الزهد ، كما أسلفنا ، هو العزوف عن لذائذ الدنيا ومتعها ، والتقرب من الآخرة ، ورجاء نعيمها . ولذلك كان يرى بعض أقطاب التصوف ، مثـــــــــــــــل الحلاج (ت:309هـ) [3] ، أن العِزَّ بالزهد وترك الدنيـــــــــــــــــــــــــا ،

---

[1] التصوف الإسلامي : 76/1 .

[2] ديوان أبي نواس : ص105 .

3- هو الحسين بن منصور ، ويُكنّى أبا مغيث ، وقيل : أبا عبد الله . نشأ بواسط ، وقيل بتستر . وقدم بغداد فخالط الصوفية ، وصحب من أقطابهم الجنيد ، وأبا الحسين النوري ، وعمر المكي .

(انظر : تاريخ بغداد 112/8)

- وذكر عنه ابن النديم ، وهو من خصومه ، أنه << كان رجلا محتالا مشعبذا ، يتعاطى مذاهب الصوفية ، يتحلى ألفاظهم ، ويدعي كل علم ، وكان صفرا من ذلك ..

وكان جاهلا مقداما متدهورا جسورا على السلاطين ، مرتكبا للعظائم . يروم إقلاب الدول ، ويدّعي عند أصحابه الإلهية ، ويقول بالحلول ، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفيـــــــة للعامّة >> .

(الفهرست : تحقيق رضا- تجدد ، د.ط. ، د.ت. ، ص241 .) =

وذلك في قولـــــــه [1] :

عَلَيْكِ يَا نَفْسُ بِالتَّسَلِّـــــــي

الْعِزُّ بِالزُّهْدِ وَالتَّخَلِّـــــــي

ويفرق القدامى بين الزهد والتصوف من حيث إن الصحابة والتابعين وتابعيهم ، على الرغم من عكوفهم على العبادة ، وزهدهم في الدنيا ، فلا يُمكن إطلاق اســـــم " الصوفية " عليهم ؛ بحكم << أن المسلمين بعد رسول الله (ص) لم يتسمَّ أفاضلهـــم في عصرهم بتسمية علَم سوى صحبة رسول الله (ص) ؛ إذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم الصحابة . ولما أدركهم أهل العصر الثاني سُمِّي من صحب الصحابة التابعين .

ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين .

ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ، مِمَّن لهم شدّة عناية بأمر الدين ، الزّهّاد والعبّاد ، ثمّ ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فكل طريق ادّعوا أن فيهم زهّادا ، فانفرد خواص أهل السُّنَّة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون

= لمزيد من التفاصيل عن حياته ، ينظر :

- سامي خشبة : من مقاله " الحلاج المسلم المتمزق بين السيف والكلمات " ، الآداب ، ع10، س17: تشرين الأول 1969 ، ص ص22-27 .

- أكرم فاضل : من مقاله " حياة الحلاج بعد موته " ، المورد ، مج1 ، ع3، 4: 1972 ، ص ص55-69 .

- عرفات عبد الحميد : من مقاله " الحسين بن منصور الحلاج ونظرية الحلول " ، الآداب والتربية (الكويت) ، ع3، 4: حزيران-كانون الأول 1973 ، ص ص303-313 .

1 ديوان الحلاج : نشرلويس ماسينيون ، الجريدة الآسيوية (J.A.) . المطبعة الوطنية بباريس : جانفي- مارس 1931 ، ص81 .

قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة >> [1] .

وفي معرض مآخذ ابن الجوزي على أبي نُعيم الأصفهاني ، في حليته ، ذكر << إضافة التصوف إلى كبار السادات ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن وشريح [2] وسفيان وشعبة ومالك والشافعي وأحمد ، وليس عند هؤلاء القوم خبر من التصوف ؛ فإن قال قائل : إنّما عَنَى به الزهد في الدنيا وهؤلاء زهّاد – قلنا : التصوف مذهب معروف عند أصحابه لا يُقتصر فيه على الزهد ، بل له صفات وأخلاق يعرفها أربابه [3] .

فالفرق ، إذن ، بين الزهد والتصوف ، مما يجعلنا في غنى عن إبانته ، والإفاضة فيه . ولكن ما هي البذور الأولى لنزعات التصوف ؟ ذلك ما نعرض له حينا مع زارعها الحسن البصري (ت:110هـ) الذي يُعدّ أهم شخصية زاهدة واعظة . ذلك أنه هو الذي مكّن الخوف من القلوب في حركة التعبّد في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ؛ إنه << قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تُخلق إلا له وحده .. ، وكان ، رضي الله عنه ، إذا جلس يجلس كالأسير ، فإذا تكلم يتكلم كلام رجل قد أمِر به إلى النّار >> [4] .

---

[1] القشيري : الرسالة . دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان:1957 ، ص ص7 ، 8 .

[2] هو شريح بن الحارث الكندي : من أشهر القضاة الفقهاء (ت: 78هـ)

[3] صفة الصفوة : ج1 . مطبعة الأصيل ، حلب ، ط1: 1969 ، ص25 .

[4] الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج1 . شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط1: 1954 ، ص29 .

وانعكس ذلك في نفوس الناس ، وبلغ الخوف منهم مبلغا كبيرا ؛ حتى قال سفيان الثوري ، فيما بعد ، : << ما أطاق أحد العبادة ولا قوي عليها إلا بشدّة الخوف >> [1] .

وقد أراد الحسن البصري أن يضع مجموعة من القواعد التنظيمية للتنسك والتعبد ؛ نقرأ فيها البذور الأولى لنمط جديد في الحياة الروحية ؛ يتبدّى ذلك في بعض أقواله مثـــــــــــــــل :

- << وددت أن أكلت أكلة تصير في جوفي مثل الآجرة . فإنه بلغنا أنها تبقى في الماء ثلاثمائة سنة >>
- << إذا أراد الله بعبد خيرا في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد >>
- << إذا أراد الله بعبد خيرا أمات عياله ، وخلاه للعبـــــادة >> [2] .

فنزعات التصوف ، بهذا ، زارع بذورها ، هو الحسن البصري ؛ لأنّـه << هو الذي وضع علم القلوب الذي نما ، بعد ذلك ، على أيدي غيـــــــــره من الصوفية >> [3] .

هذا العلم هو الذي بدأ يميز طائفة العباد في الظهور ، ويتخذ لها بعض الأسماء ، منها اسم " القراء " [4] الذين كان لهم مراكزُ خاصة بهم أهمها البصرة .

وبعد أن كان الزهد ، في القرن الأول ، انصرافا عن متع الدنيا وزخرفها ، صار له مدلول آخر في القرن الثاني ؛ يعني طهارة النفس ، ونقاء القلب وصفاءه ، والإخلاص لله . ومن ثمّ حلّت الطقوس التعبدية المرتبة الثانية بعد أن كانت في المرتبة الأولـــــــــى .

---

[1] حلية الأولياء : 362/6 .

[2] الطبقات الكبرى ، ج1 ، ص ص29 ، 30 .

[3] التصوف في الشعر العربي .. : ص39 .

[4] طالع حديثا عنهم في حلية الأولياء : 390/01 ،391 و 305/05 .

بيد أن هذه الطهارة، وهذا النقاء، لا يتمّان إلا بالعبادة ، ورياضة النفس وتهذيبها ، وكفّها عن أهوائها بالخلوة والسياحة والصوم ، وقلة الطعام ، وما إلى ذلك من كبح لجماحها ، وكسر لرغباتها .

يقول مالك بن دينار [1] : << الناس يقولون : مالك بن دينار زاهد . إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها >> [2] .

وكان من مظاهر الزهد في القرن الثاني أيضا ، أنْ لبس كثير من النساك الزهاد المسوح ، ومشوا في الأرض سائحين << كأنهم يفتشون عن حاجة فلا يجدونها أو كأن نزعة النفس اللاهوتية الفلسفية الحائرة المتوثبة قد وجدت دواءها في هذه الرحلات الطويلة العديدة التي تكـاد لا تنتهي >> [3] .

وممَّا شُغل الزهاد به ، في هذا القرن ، الإقامة في الثغور ، تطوعا وإيثارا ، بغية الترويض . وكان هذا طريقا إلى نشوء فكرة الرباط لدى الصوفية المتأخرين .

على أن من القواعد الهامة التي انبنى عليها الزهد في هذا القرن أيضا ، قاعدة التوكـــُـــل [4] .

---

[1] المصدر السابق : 02/357-389 .

[2] نفســـــــــه : 05/257 .

[3] د. جبورعبد النور : نظرات في فلسفة العرب . بيروت ، ط1: 1945 ، ص231.

[4] << قال سهل بن عبد الله : أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عزّ وجلّ كالميت بين يـــــدي الغاسل يقلّبه كيف شاء، لا يكون له حركة ولا تدبير. وقال حمدون: التوكل هو الاعتصام بالله تعالى.. شرط التوكل ما قاله أبو تراب النخشي ، وهو طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطي شكر ، وإن مُنع صبر >> .

(الرسالة القشيرية : ص76)

وقد تنافس فيه الزهاد وتباروا ، حتى صار لكل واحد منهم فيه مذهب خاص به ؛ فشقيق البلخي ، مثلا ، كان له مذهب في التوكل [1] ، وأبو نواس كذلك ، فهاهو يحثّ ، في إحدى زهدياتـــــه ، على التقوى ، مصدّرا قوله بالتوكّـــــــل [2] :

فَعَلَى اللهِ تَوَكَّـــــــــــــلْ

وَبِتَقْوَاهُ تَمَسَّـــــــــــــكْ

وثمة قاعدة أخرى هي الرضا الذي يُعَدُّ نهاية التوكل ، و << باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين >> [3] .

إن كلاً من التوكل والرضا مهّدا الطريق لظهور ما يُعرف بالحبّ الإلهـــــــي في القرن الثالث . والحب تكلّم عنه جميع الصوفية ؛ << لأن هذه الحال هي الفيصل بينهم ، وبين أهل الشريعة الذين يعبدون الله طمعا في الثواب ، وخوفا من العقاب ، ولا يستقيم حال المتصوف إلا إنْ خلص من دنياهُ وأخراه ، فلا يكون له مأرب غير لقاء الحبيب >> [4] .

ومن بواكير ما تمّ في الشعر الصوفي ، ما كان يسمعه الجنيد كثيرا من إنشاد أبي الحسن سري السقطـــي [5]

---

[1] حلية الأولياء : 283/10 .

[2] البيان والتبيين : 178/03 .

[3] حلية الأولياء : 156/6 .

[4] التصوف الإسلامي .. : 244/1 .

[5] خال الجنيد وأستاذه . صحب معروفا الكرخي وتتلمذ عليه . وهو أول من تكلّم ببغداد عن التوحيـــــــــد وحقائق الأحوال . كان أوحد زمانه ورعا وعلما بالسنة والتوحيد . تُوُفي ، على خلاف ، أعـــــــوام : 251هـ ، 253هـ ، 258هـ .
=

لهذه الأبيـــــــــات [1] :

وَلَمَّا ادَّعَيْتُ الْحُبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنِـــــي

فَمَا لِي أَرَى الْأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَـــا

فَمَا الْحُبُّ حَتَّى يَلْصِقَ الظَّهْرُ بِالْحَشَـا

وَتَذْبُلَ حَتَّى لَا تُجِيبَ الْمُنَادِيَـــــــا

وَتَنْحَلَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَكَ الْهَـــــوَى

سِوَى مُقْلَةٍ تَبْكِي بِهَا وَتُنَاجِيَـــــــا

وقد سأل السري الجنيدَ عن المحبّة فقال له : << قال قوم هي الموافقة . وقال قوم : هي الإيثار ، وقال قوم : كذا وكذا . فأخذ السري جلدة ذراعه ومدّها فلم تمتدّ ، ثمّ قال : وعزّته لو قلت إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت >> [2] .

ومن بليغ الشعر في الرقة والنُّحول قول محمد بن عبد الكريم الفِنْدلاوي الفاسي المعروف بابن الكتّاني ، أحد مشائخ محيي الدين بن عربـــــــــي [3] :

وَمَا أَبْقَى الْهَوَى وَالشَّوْقُ مِنِّي

سِوَى نَفَسٍ تَرَدَّدَ فِي خَيَـــــالِ

= (انظـــــــر : - السلمي ، طبقات الصوفية ، تحقيق : نور الدين شريبة / ط. القاهرة 1953 ، ص48 .

- الرسالة القشيرية : ص10 .

- الطبقات الكبرى : 63/1 .

- تاريخ بغداد : 89/6 .)

[1] ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج2 . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت. ، ص127 .

[2] ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج2 ، تحقيق : محمد محيي الدين / طبعة القاهرة 1948 ، ص 102 .

[3] عبد الله كنّون : من مقاله " أدب الفقهاء " ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج2 ، مج41 : أبريل 1966 ، ص250 .

خَفِيتُ عَنِ الْمَنِيَّةِ أَنْ تَرَانِـــي
كَأَنَّ الرُّوحَ مِنِّي فِي مُحَـــــالِ

ومن هنا بدأ التصوف في الترسّخ ، مذهبا يعرفه أربابه ، وخاصة بظهور الطرق الصّوفية [1] التي تشترط جميعها << اتخاذ الشيخ ومعرفة النفس والجهاد أو المجاهدة ؛ ففي اللغة معناها المحاربة ، وفي الشرع محاربة أعداء الله ، وفي اصطلاح الصوفية محاربة النفس الأمّارة بالسّوء ، وتحصيلها ما شقّ عليها مما هو مطلوب شرعا >> [2] .

ويعود تاريخ نشأة الطرق الصوفية وتكوّنها، حسبما حدّده أحد الدارسيـــن [3] ، إلى القرنين الثالث والرابع . بينما يرى دارس آخر [4] أن هذه الطرق نشأت بدايـــة من القرن الثالث إلى السابع ، ومن هنا تفرّعت .

ومهما يكن ، فإن أهمّ عامل في نشأة الطرق الصوفية هو العامل الثقافي ؛ فقد شهد القرن الثالث تطورا ثقافيا ملحوظا ؛ إذ ظهرت فيه الترجمة من الثقافات الأخرى ، كالهندية والفارسية واليونانية ، بتشجيع من الخليفة المأمون [5] .

---

[1] التي يعدّ تأسيسها << تحوّلا هامّا في التصوّف المغربي ، وفي دوره الاجتماعي ، وكانت أولاها طريقـــة أبي عبد الله محمّد الجزولي (م.1465/869) .. >> .
(د. عبد الحميد حاجيات : من مقاله " سيدي الهواري شخصيته وتصوّفه " ، مجلة الثقافـــة ، ع88 ، س15: يوليو- أغسطس 1985 ، ص87)

[2] أحمد توفيق عياد : التصوف الإسلامي ؛ تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، ج2 . مكتبة الأنجلـــو المصرية ، القاهرة 1970 ، ص276 .

[3] انظر : د. محمد مصطفى حلمي ، الحياة الروحية في الإسلام ، ص ص111، 112 .

[4] انظر : د. مقداد يالجن ، فلسفة الحياة الروحية ؛ منابعها ومشاربها ونشأتها ونشأة التصوف والطرق الصوفية . دار الشروق ، ط1: 1985 ، ص94 .

[5] نفســـه : ص96 .

أما عوامل اختلاف الطرق وتعدّدها فلها أسباب ؛ منها اختلاف مشائخها في فهم النصوص الدينية ؛ وبخاصة القرآن الكريم ، والاختلاف في تنظيم المراسيم التعبدية ، وكذلك التباين في طرق ترويض النفس .. [1] .

يقول يحيى بن معاذ (ت:258هـ) معرِّفا ببعض الطرق : << إذا رأيت الرجل يعمل الطيبات فاعلم أنه على طريقة التقوى ، وإذا رأيته يحدِّث بآيات الله فاعلم أنَّه على طريقة الأبدال [2] ، وإذا رأيته يحدِّث بآلاء الله فاعلم أنه على طريقة المُحبِّين ، وإذا رأيته عاكفا على ذكر الله فاعلم أنه على طريقة العارفين >> [3] .

---

[1] المرجع السابق : ص ص99-105 .

[2] << هم سبعة رجال ، فمن سافر عن موضعه وترك جسدا على صورته ، حيا بحياته ، ظاهرا بأعمال أصله ، بحيث لا يعرف أحد أنه فقد ، فذلك هو البدل لا غير >> .

(معجم مصطلحات الصّوفية : ص32)

[3] نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه ؛ ترجمة : د. أبو العلا عفيفي ، طبعة القاهرة 1956 ، ص20 .

فيما يلي عرض لأهم الطرق الصوفية :

1. الطريقة المحاسبية : نسبة إلى الحارث المحاسبي (ت:243هـ) الذي يعدّ << أول من فلسف الحياة الروحية في إطار الإسلام ، ووضع منهجا للتصوف السني ، مدعما منهجه بالقرآن والسنة >> .

(د. يالجن : فلسفة الحياة الروحية ، ص110 .)

الطريقة القادرية : مؤسسها هو عبد القادر الجيلاني (470-561هـ) . كان عالما نحريرا في علوم شتى ؛ كالتفسير والحديث والفقه والأصول والنحو ..

أما تصوفه فسني << مع ميل إلى التفسير على مذهب أهل الباطن >> .

(أحمد توفيق عياد : التصوف الإسلامي ، ج2 ، ص279 .) =

2. الطريقة الأكبرية : نسبة إلى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (560-638هـ) . يُعرف بالحاتمي وبابن عربي ، دون ألف ولام ، تمييزا له عن القاضي أبي بكر بن العربي صاحب " أحكام القرآن " في التفسير .

كما يعدّ ابن عربي من المتصوفة المتفلسفين ، ومن الذين تبنّوا فكرة وَحدة الوجود والحقيقة المحمدية . =

على أن التصوف في الجزائر يمثل حلقة من حلقات التصوف في العالم العربي والإسلامي ؛ ذلك أن الشعراء اعتنقوا ما جاء في شعر ابن الفارض من غزل صوفي ، وفي شعر ابن عربي من أفكار مثل وَحدة الشهود ووحدة الوجود [1] ، وما إليهما ..

= وتتميز طريقته ، أيضا ، بقولها بنظرية وحدة الأديان ؛ بمعنى أن الأديان كلها لله ، لا فرق بين دين وديـــــــــن .

ومن هنا انبثقت لديه نظرية أخرى هي نظرية وَحدة الوجود ، المشار إليها ، انطلاقا من أن ما في الكون من حقائق ، إنما هي تجليات للحق .

(انظر : الحياة الروحية في الإسلام ، ص146 .)

3. الطريقة الشاذلية : صاحبها هو أبو الحسن الشاذلي (ت:656هـ) . أصله من شاذلة بتونس . ومن أشهر تلامذته الشيخ أبو العباس المرسي (ت:686هـ) الذي خلفه في رئاسة الطريقة بعد وفاته . وبعده ابن عطاء الله السكندري .

وتقوم طريقته على << تقوى الله في السر والعلانية ، واتباع السنة في الأقوال والأفعـــال ، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار ، والرضى عن الله في القليل والكثير ، والرجـــوع إلى الله في السراء والضراء >> .

(فلسفة الحياة الروحية : ص119 .)

4. الطريقة التيجانية : طريقة جزائرية مراكشية . مؤسسها هو الشيخ أحمد التيجاني (ت:1810م) .

(انظر : دائرة المعارف الإسلامية - مادة: الطريقة-)

<< وهي منتشرة، بصفة خاصة، في المغرب وتشاد والسودان. ولها أتباع في مصر وتركيا >> .

(فلسفة الحياة الروحية : ص125 .)

[1] تعود ، في نشأتها ، إلى << الفكر القديم شرقيا كان أو غربيا . فعرفت لها صور في " البراهمية والغنوصية " ، كما بدت لها مظاهر في الفلسفة اليونانية ، وأوضح ما تكون لدى الرواقيين ، والأفلاطونيين الذين شاءوا أن يردوا الكون إلى أصل إلهي .. >> .

(إبراهيم مدكور : من مقاله " دراسة مقارنة بين اسبينوزا وابن عربي فيما يخص وحدة الوجود " ، ضمن " الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة (نخبة من الدارسين) . دار الكتاب العربي ، القاهرة 1969 ، ص368 وما بعدها .) =

وقد ظهر متصوفة جزائريون قبل عصر الأتراك وإبانه ، وبعده أثناء الاحتلال الفرنسي . وتركوا جميعهم تراثا صوفيا كبيرا ، شعرا ونثرا ، << إلى درجة يمكن معها القول بأن العالم الذي لم يؤلف في التصوف أو الشاعر الذي لم ينشد فيه قصائد ، فصيحة أو عامية ، لا يتمتع بحظوة لدى العلماء أو بين الناس >> [1] .

وتشبه هذه الكثرة كثرة الطرق والزوايا الصوفية ، وأهمها : الرحمانية ، القادرية ، الشاذلية ، العيساوية ، السنوسية ، الدرقاوية ، والتيجانية .. [2] .

وقد تفرّعت عنها طرق أخرى حملت أسماء مؤسسيها ، وكان منها المُغالي والمعتدل : فمن الطرق التي لا تميل إلى المبالغة والإفراط في الأوراد والطقوس ، نخص بالذكر الطريقة السنوسية [3] التي يقول عنها رفيق المهدوي وعن مؤسِّسِها [4] :

إِصْلاَحُهُ الدِّينَ الصَّحِيحَ مُنَزَّهٌ
عَنْ جَذْبَةِ الْمُتَصَوِّفِ السَّبَّاحِ

= وقد نادى إليها ابن عربي . و تعني أن << الكلّ يعبدون الإله الواحد المتجلّي في صورهم ، وصور جميع المعبودات .. >>

(الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص516)

وإذا كانت وحدة الشهود تعني الفناء الكامل عما سوى الله والاستغراق في حبّه ، والاندماج في جماله المطلق ، فإن وحدة الوجود << تلغي الوجود المتعيّن كلّه ، فليس هناك وجود غير الله >> .

(الشعر الديني الجزائري الحديث : ص294)

[1] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص238 .

2 لمزيد من التفاصيل حول هذه الطرق و مؤسسيها ، يُطالع : " كتاب الجزائر " لأحمد توفيق المدني ، ص352 وما بعدها .

3 طالع حديثا عنها وعن مؤسسها في : فلسفة الحياة الروحية .. ، ص126 .

4 محمد الصادق عفيفي : الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث . دار الكشاف ، بيروت ط1: 1969 ، ص109 .

كَانَتْ طَرِيقَتُهُ الْقِيَامَ ، فَسُنَّـــــــةً
نَبَوِيَّةً لَأَلَاءَةَ الْأَوْضَـــــــــاحِ
لَيْسَتْ لِدَرْوَشَةِ الْمُرِيدِ وَجَذْبِـــــه
بِالدُّفِّ أَوْ بِالضَّرْبِ أَوْ بِصِيَـــاحِ

وعلى أية حال ، فإن هناك نوعين من الزوايا في الجزائر : << فالتي ظهرت في الشرق الجزائري كالرحمانية مثلا ، كان أصحابها يُراعون السنة في أقوالهم وأفعالهـــــــــــم ..

أما التي ظهرت في الغرب الجزائري ، فإن أفكارها الصوفية وتقاليدها تجنـــــــــحُ للمبالغة في الطقوس والأوراد ، وفي خلق نواميس فيها غموض وإبهام .

وكان الهدف هو إضفاء صفة الرهبة على مشارب هذه الطرق لسبب أو لآخر >> [1] .

وبكلمة واحدة ، فإن التصوف ، عامة ، مرّ بمراحل كانت أولاهَـــــــا << عبارة عن زهد وتقشف ؛ خاصة في القرنين الأولين للهجرة . أما الثانية فكانت تقليدا أو اقتفاءا لها . ولكن المرحلة الثالثة كانت أوغل في التصوف الخالص منهـــــا إلى الزهد . وفي المرحلة الرابعة ظهرت " الطرق " الصوفية ، وتبلورت اتجاهاتها وطقوسها الخاصة منذ القرن الخامس الهجري . ثمّ جاءت المرحلة الأخيرة التي استمرّت حتى العصر الحديث ، وهي التي سادت فيها المبالغة في " الشطح " ، وتعقّدت فيها طقوس المتصوفة ، وكثر من يَدَّعي الكرامات ، وامتلأت بالمجذوبين ، وغزت فكرة " وَحدة الوجود " البيئات الصوفية >> [2] .

وتلك مسائل سنتبيَّنها في الصّفحات التالية ..

---

[1] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص240 .

[2] نفســـــــــــــــــه : ص ص237 ، 238 .

لمزيد من التفاصيل حول هذه المراحل ، يُنظر : التصوف في الإسلام لعمر فروخ ، ص ص56-86 .

الفصل الأول : المريديات

المريديات منظومات تعليمية تتضمن كثيرا من القواعد والتعاليم التي على المريد اتباعها ، أو على أي شخص يريد الانتماء إلى طريقة صوفية معينة .

وقد نجد فيها ، زيادة على هذا ، ردا ، قد يكون عنيفا جارحا ، على كل منكر لهذه الطريقة أو تلك .

ويبدو أن هذا النوع من النظم برز إلى الوجود بسبب الخصام التقليدي المعروف بين الفقهاء والمتصوفة ؛ فأهل الظاهر أو الشريعة يتناولون المسائل الدينية تناولا ظاهريا ، بينما يعالجها أهل الباطن أو الحقيقة معالجة مُؤَوَّلة ، لم تُعهد من قبل [1] .

وقد يجد بعض الفقهاء المبرِّر في الحكم على بعض المُبرَّزين من المتصوفة الأوائل ، نتيجة لما يتلفظون به من أقوال لا قِبَـل للناس بها ؛ فها هو أبو يزيـد البسطامي [2] (ت:234) الذي آثر السكر على الصحو ، وصور فناءه في الله واتحاده به يقول : " سبحاني ما أعظم شاني " ، وها هو الحلاج يذهب المذهب نفسه ، وهو يصيح

---

[1] وذلك مثل الحبّ الإلهي الذي << جلب إليهم كثيرا من انتقادات الفقهاء لغلوّ بعض الصّوفية فيه ، فكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت الصوفية يتجهون نحو الشعر لستر كثير من الشّطحات من جهة ، ومن جهة أخـــرى فقد استعملوا الشّعر كوسيلة للتّـواجد >> .

(مختار حبّار : الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني ، دراسة موضوعية وفنيـــــة ، مخطوط رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس 1990-1991 ، ص ص170 ، 171)

[2] طيفور بن عيسى . كان جده مجوسيا ، وأبوه من أتباع زرادشت . كانت له شهرة ذائعة في الزهد ؛ سئل : بأي شيء وجدت ذلك ؟ قال : ببطن جائع وبدن عار ..

والبسطامي من أهل بسطام (بالكسر ثم السكون) : محلة كبيرة بقومس ، على جادة الطريـــــق إلى نيسابور . وهو أول من استخدم لفظ الفناء بمعناه الصوفي . كما اشتهر بشطحاته التي منـــــها " سبحاني " ..

(انظر : - أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه .. ، ص ص81-83 .

- د. عبد القادر محمود ، الفلسفة الصوفية في الإسلام .. ، ص309 .)

بسوق بغداد ، يقول أيضا : << يا أهل الإسلام أغيثوني . فليس يتركني ونفسي فآنس بها ، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها ، وهذا دلال لا أطيقه >> [1] ، فضلا عمّـــا نجده عند << بعض الدراويش الذين أطلقوا أنفسهم على سجيتها ، وخلوا بينها وبين شهواتها فدخنوا الحشيش أو شربوا الخمر، أو أتوا المنكرات ما لا يقره شرع أو خلق، وادّعوا أنهم إنما يفعلون هذا كله لأنهم وصلوا إلى مقام سقطت عنهـــــــــــــــم فيه التكاليف >> [2] .

ومهما يكن ، فإن مشتغلا قديما بالتصوف كالقشيري ، استطاع ، فيما نرى ، التوفيق بين الحقيقة والشريعة ؛ ذلك أن << الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ؛ فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، ... فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده >> [3] .

ولعل ما يؤيد هذا الكلام ما قاله النبي (ص) ، حينما سئل عن الإحسان ، :

" أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ "

(حديث عمر - ض- متفق عليه)

وتمثيلا على الصراع الذي نتحدث عنه ، نقف لدى الشاعر المصري ابن الفارض (ت:632هـ) لمكانته الصوفية ، لا سيما من خلال قصيدتيه : " نظم السلوك " و " الخمرية " ، وما عاناه من هجوم وتجريح صريح من قبل الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية (ت:728هـ) في مسألة الاجتماع للسماع [4] التي نفاها عن الصحابـــــــــة ،

---

[1] كتاب أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج : اعتنى بنشره وتصحيحه وتعليق الحواشي عليه : لويس ماسينيون وب. كراوس ، مطبعة القلم ومكتبة لاروز ، باريس 1936 ، ص57 .

[2] محمد مصطفى حلمي : ابن الفارض والحب الإلهي . دار المعارف بمصر 1971 ، ص112 .

[3] الرسالة القشيرية : ص43 .

[4] هناك تعريفات كثيرة للسماع ؛ ومنها أنه << استجمام من تعب الوقت ، وتنفس لأرباب الأحوال ، واستحضار الأسرار لذوي الأشغال >> . =

وأهل الصفة أنفسهم ، والتابعين .. [1] ، وفي مسألة وحدة الوجود التي يترتب عنها الاتحاد [2] والحلول [3] .

= (الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص190 .)

والسماع ، حسب أبي علي الدقاق ، << حرام على العوام لبقاء نفوسهم ، مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم ، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم .. >> .

(الرسالة القشيرية : ص153 .)

لمزيد من المعلومات حول السماع وما يرتبط به من وجد ، ينظر :

- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ، ج2 . دار الثقافة ، الجزائر ، ط1: 1991 ، ص ص376-420 .
- د. عمر فروخ : مقاله " دور الآداب والفنون عموما والشعر والموسيقى خصوصا في تعزيـــــز أخلاق أمة أو انحلالها ، وفي شحذ عزائمها أو قتل روحها " ، مجلة الأصالة ، ع33 ، س05 : ماي1976 ، ص ص52-54 .

[1] انظر : مجموعة الرسائل والمسائل ، ج1 . طبعة المنار 1349هـ ، ص38 .

[2] هو << ترقية الإنسان بروحه بالتطهر من الرذائل ، والتحلية بالفضائل ، والاستغراق بالعبادة حتّـــى يصـل إلى مقام الله ، ويتحد معه أو يفنى فيه كما تقول البوذية >> .

(د. مقداد يالجن : فلسفة الحياة الروحية .. ، ص86 .)

والاتحاد ، كما يقول البكّي ، : << هو شهود الوجود الحق الذي الكل به موجود ، فيتّحد به الكلّ من حيث كل شيء موجود به معدوم به ، لا من حيث أن له وجودا خاصّا اتحد به ، فإنه محال .

وبالجملة فمعناه : شهود اتحاد تعلـّق الموجودات كلها به تعالى ! - إذ هي موجودة لا بها .

وهذا مراد كل من له نسبة في هذا الشأن ، وهو المسمّى ، عندهم ، بالفناء في التوحيد >> .

(فتح الإله ومنـّتـه : ص ص150 ، 151)

فالاتحاد ، على هذا الأساس ، ليس << تحلّلا لجسم في جسم ، ولا حلولا لطبيعة الله في طبيعة الإنسان ، وإنما هو فناء عن شهود ما سوى الله فناءا تاما بحيث لا يشهد السالك إلا ذاتا واحدة هي ذات الله التي فنيت فيها كلّ الذوات >> .

(د. محمد مصطفى حلمي : ابن الفارض والحبّ الإلهي ، ص313)

[3] هو ، حسب الزّعم الصّوفي ، << نزول الله وحلوله في بعض المصطفين من عباده >> .

(فلسفة الحياة الروحية : ص88)

وقد بلغ بأحدهم ، أن دعا إلى حرق مؤلفات الصوفية ، وغسلها بالماء ، وذكر منها أشعار ابن الفارض ؛ لأنها تحمل أفكارا ضارّة بالإسلام .. [1]

ووصل الاتهام حدّ الكفر والضلال من قِبل ابن حجر العسقلانـــــي (ت:852هـ) في حق ابن الفارض الذي قال عنه ، مجرِّحا ، إنه : << ينعق بالاتحاد الصريـــــح في شعره ، وهذه بلية عظيمة ، فتدبّر نظمه ولا تستعجل ، ولكنك حسّن الظن بالصوفية ، وما ثمّ إلا زي الصوفية وإشارات مجملة ، وتحت الزي والعباءة فلسفة وأفاعي ، فقد نصحتك والله الموعد >> [2] .

ونقل ابن حجر هذا رأي البلقيني ، وقد أنشده أبياتا من التائية الكبرى ، فقال : << هذا كفر ، هذا كفر >> [3] .

ولم يبلغ أحد ، في قدحه واتهامه ، مثلما بلغه برهان الدين إبراهيـــــم البقاعي (ت:858هـ) ؛ فقد أفرد كتابين تناول فيهما ابن عربي وابن الفارض ، مبينا ضلالهما وفسادهما ، حسبما يرى ، بكثير من الإسراف والشّطط .

والكتابان هما : " تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي " [4] ، و " تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد " .

إن انتداب الفقهاء للرد على المتصوفة المتأخرين ، كان انطلاقا من أحوالهم ومقاماتهم [5] التي يخالف ظاهرها الشرع الحنيف .

---

[1] انظر : صالح المقبلي ، العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ . القاهرة 1328هـ ، ص478 .

[2] لسان الميزان : ج4 . طبعة الهند 1330هـ ، ص317 .

[3] نفسه : ص318 .

[4] طالع قراءة نقدية عنه في : " ابن الفارض والحب الإلهي " ، ص ص123-126 .

[5] << بالفتح والضم هو ما يتحقق به المزيد من الصفات المكتسبة بالرياضة والعبادة كمقام الخوف من الله الذي حصل بترك الكبائر ، .. والحال معنى يرد على القلب من غير تعمّد ولا اجتلاب كالطـــــرب والحزن >> .

=

غير أن واحدا من المنصفين الذين فهموا مقاصد هؤلاء الصوفية ، كابن خلدون [1] ، استطاع ، فيما نعتقد ، أن يدرأ كثيرا من الشبهات ، ويناقش الفقهاء المنكرين في أربع مسائل أساسة وهي : الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس ، والكلام في الكشف والحقائق المُدرَكة من الغيب مثل العرش والملائكة والنبوة ، والتصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات ، والألفاظ الصادرة من قِبل أئمة التصوف ، أو ما يُعبَّر عنه بالشّطحات .

ودام الصراع بين الفقهاء والصوفية إلى بدايات القرن الماضي ؛ و تبلورت حركة الإصلاح في الجزائر ، وبدأت تظهر بشكل منظم منذ عام 1925 ، بصدور جريدة " المنتقد " [2] .

= (عبد الرزاق : التصوف .. ، ص71 .)

وإذا كانت << المقامات تبدأ بالتوبة لتنتهي بالرضى والاطمئنان ، فإن الأحوال تبدأ بمراقبة النفس ومحاسبتها لتنتهي باليقين والوصول إلى المعرفة الحقة عن طريق هذه الرياضة الروحية ، بما يحقق للمتصوف الفناء ثم فناء الفناء - كما يقولون - >> .

(الشعر الديني الجزائري الحديث : ص293 .)

- الأحوال هي : المراقبة ، والقرب ، والحب ، والخوف ، والرجاء ، والشوق ، والأنس ، والطمأنينة ، والمشاهدة ، واليقين .

أما المقامات فهي : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا .

(انظر : نيكلسون ، الصوفية في الإسلام ؛ ترجمة نور الدين شريبة . مكتبة الخانجي 1951 ، ص ص33 ، 34)

لمزيد من التوسع في المقامات ، يُنظر : مختار حبّار : الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني ، مخطوط رسالة دكتوراه ، ص ص118-135 .

[1] المقدمة : 595/2 ، 596 .

[2] أسبوعية : صدر منها أول عدد في 1925/7/02 . وكان شعارها : " الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء " . أما اتجاهها فكان محاربة الخرافات والبدع التي كانت تدور في فلك الطرقية . =

وقد مثلت هذه الحركة ، كما عرفنا من قبل ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . وكان همها انبعاث التراث وتصفيته من الشوائب ، والاهتمام ، خاصة ، بالدين ، بتطهيره مما تعلّق به من خرافات وأباطيل ، وباللغة العربية ، بتجديدها أسلوبا وبيانا ، وتحريرا من القيود . ولذلك وجبت المطالبة << بتحرير الدين من السيطرة الفرنسية ، ونشر التعليم العربي بتكوين مدارس خاصّة به ، وتدريس علوم العربية في المساجد ، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية >> [1] .

فمن خلال هذه الرؤى الإصلاحية في محاربة التّرهات والأباطيل ، كان طبيعيا أن ينشأ الصراع ويحتدم بين المصلحين والطرقيين [2] ؛ بوصفهم مختلفين في النظرة : فالمصلحون يريدون العودة إلى الإسلام الصحيح بعيدا عن البدع التي تشبّث بها رجال الطرق ، وحاولوا الدفاع عنها .

ومن ذلك ما عدّه المصلحون بدعة ، قضية السّماع والغناء التي أشرنا إليها قبل حين . يقول " سيف الحق " [3] :

مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ فِي دِينِنَا
بِأَنَّ الْغِنَا سُنَّةٌ تُتَّبَعْ

= وليس من المستبعد أن يكون اسم الجريدة " المنتقد " شكلا من المعارضة لقول شائع لدى أدعياء التصوف ، ساعتئذ ، هو : " اعتقد ولا تنتقد " ..

لمزيد من التوسع في التعرّف إلى هذه الجريدة ، يُنظر : الصحف العربية الجزائرية ، ص ص52-55 .

[1] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص ص560 ، 561 .

[2] خاصة بانتشار الصحافة مثل جملة المقالات الصادرة بـ " كوكب إفريقيا " في 1914/4/24 ، وما صدر بـ " الفاروق " ؛ نحو مقال : " خطر الأحداث والبدع على القومية والدين " الصادر في 1914/5/11 .

يُشار هنا إلى أن ابن باديس دعا إلى التفاهم مع رجال الطرق ، مثلما جاء في مقاله " دعوة إلى الحسنى ، فهل من مُجيب ؟ الصادر بالشهاب في 1927/6/23 .

[3] " الشهاب " : 1927/01/30 .

وَأَنْ يَأْكُلَ الْمَرْءُ أَكْلَ الْحِمَار

وَيَرْقُصَ فِي الْجَمْعِ حَتَّى يَقَعْ

وَقَالُوا سَكِرْنَا بِحُبِّ الْإِلَـــه

وَمَا أَسْكَرَ الْقَوْمَ إِلاَّ الْقُصَــعْ

ويقول محمد بن السعيد الزاهري [1] ، وهو من أكثر الشعراء سخرية وجفاءا للطرقية ورجالها ، في قصيدته " الشعر الفحل " :

وَزَعَانِفُ زَعَمُوا بِأَ

نَّهُمُ الضَّرَاغِمَةُ الْأُسُود

ظَنُّوا السِّيَادَةَ فِي اللِّحَى

وَبِطُولِهِنَّ وَبِالْجُعُــود

أَبْصَرْتُهُمْ يَتَفَاخَــرُونَ

عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالْجُــدُودِ

وقد غدّى هذه الخصومة وأجّجها إنشاء جريدة " البلاغ " (1926-1943) [2] ؛ فقد كانت لسان حال الشيخ العلاوي وزاويته . وبتعبير أدق ، كانت رد فعل يركز فيه

---

[1] محمد الهادي السنوسي : شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1. المطبعة التونسية ، ط1: 1926 ، ص ص82-85 .

[2] - << صحيفة ، علمية ، إرشادية ، دفاعية ، أسسها أحمد بن عليوة شيخ الطريقة العليوية ، لتكون لسان حال هذه الطريقة التي أخذت الصحافة الإصلاحية تهاجمها منذ سنة (1925) ، وقد صدر العدد الأول منهـــــا في (1926/12/24) بمدينة مستغانم مقر الزاوية حيث كانت تطبع بالمطبعة العليوية ، ولكنها ما لبثت وأن انتقلت لتطبع بالعاصمة حيث أنشأت لها مطبعة عصرية ، وذلك ابتداءا من سنة (1930) .

(بداية من العدد 154 الصادر في 1930/02/21)

- ومن أهم الموضوعات التي عالجتها .. قضية التجنيس التي وقفت ضدها وقفة صارمة ..

ومما يُسجـّل لهذه الجريدة من مواقف حميدة كشفها الفاضح لخطط المبشرين وخطورتهم على عقيدة النشء الجزائري .. وبما أن " البلاغ الجزائري " كان من أهدافها الأساسية الدفاع عن التصوف والطرقية .. =

الكتّاب والشّعراء على مهاجمة رجال الإصلاح ، صاعا بصاع . ولذلك كان التركيز في الهجوم المقابل ، من قِبل المصلحين ، على العليوي نفسه الذي قال مرة [1] :

يَا مَنْ ثريدْ تَدْرِي فنّي فَاسْأَلْ عَنّي الْأُلوهِيَه

ولأحدهم [2] مقال هاجمه فيه . ومما تضمّنه قوله : << لا ، لا ، ليس العليوي بإله ولا ربّ نسأل عنه الربوبية ، ولكنه ، كما قال ابن الرومي ، هو تيس ، ولاتزال ترى التيس على حتف أنفه بحاثا >> [3] .

= كان لا بد أن تدخل الحركة الإصلاحية مع " البلاغ " – وهي لسان حال الطريقة العليوية – في معارك حامية ، فكان بينها وبين الجرائد ذات النزعة الإصلاحية مهاترات ، ومعـــــــــارك كلاميـــــــــة .. >>

(بداية من العدد 154 الصادر في 1930/02/21 .)

(الصحف العربية الجزائرية : ص ص80-82 .)

- وشبيها بجريدة " البلاغ الجزائري " ، من حيث اتجاهها ، ما نجده عند جريدة " الرشـــــاد " (الجزائر:1938-1939) ؛ فقد كان دافعها الرئيـــس << هو الرد على صحف جمعيـــــة العلماء المسلمين الجزائريين بعد أن كثرت المهاترات الصحفية إبـــــــان الثلاثينيات >> .

(الصحف العربية الجزائرية : ص222 .)

وقد جاء في أحد أعدادها ما نصه : << أما المسائل السياسية ، فقد صرحنا ، وما زلنا نصـــــــرح بأن مشروع الزوايا لم يؤسس لأجل الاشتغال بها ، لأننا ما زلنا نعتبر بأن السياسة والدين متناقضان ، على الرغم مما يقوله المشاغبون ، بأن الدين لا ينافي السياسة ، وعلى الرغم مما يتفلسف به البعض من أنه ما من دين إلا وهو شعبة من شعب السياسة ... فنحن نكرر بأن السياسة مع ذلك كله منافية للدين ، ويجب الابتعاد عنها ، وإن أرغمنا أحيانا على الخوض فيها فعَرَضا ، .. >> .

(عبد الحفيظ القاسمي: من مقاله " المشاريع والأغراض "، جريدة " الرشاد "، ع05: 1938/6/22.)

[1] ديوان العلاوي : ص22 .

[2] رمز لاسمه ب " تأبط شرا " . ولعله الزّاهري .

[3] جريدة " البرق " ،ع21 : 1927/4/18 .

كما اتهمت " الشهاب " الطريقة العلاوية بالشبه القائم بينها وبين القاديانية الهندية << التي تنتمي إلى " غلام أحمد " الذي ادّعى أنه هو المسيح المنتظر ، وأن الوحي نزل عليه بذلك وتناول القرآن بالتأويل الباطل والتحريف الجاهل مثلما فعل " ابن عليوة " في تفسير سورة النجم وغيرها .. >> [1]

ولم يسلم ابن عليوة أيضا من بعض التهم ؛ كتواضع ثقافته ، مع الإقرار بذكائه . يقول عنه أحد معاصريه : << فألفيته رجلا يقرأ ويكتب فقط ، وحاذق نبيه ، وله ذكاء مفرط .. ولو كان لهذا الشيخ من العلم بقدر ما له من الذكاء ، وكان يستعمل علمه كذكائه في المصلحة العامة التي نحن أحوج إليها بكثير جدا من خدمة إدخال عقائد زائدة عن العقيدة الإسلامية ، لكان له شأن عظيم .. >> [2]

وكان بين رجال الإصلاح والطرقيين ما يشبه النقائض : أحدهم من الشرق أنشأ الإصلاح وأقرّه ، والآخر من الغرب ، وبالذات من مدينة " ندرومة " الممثلة لإحدى فروع التصوف بقيادة العلاوي .. [3]

وليس مستبعدا أن يكون ذلك عائدا إلى نوع الزاوية التي ينتمي إليها كل فرد منهما ؛ << فالتي ظهرت في الشرق الجزائري كالرحمانية ، مثلا ، كان أصحابها يراعون السنة في أقوالهم وأفعالهم ..

أما التي ظهرت في الغرب الجزائري ، فإن أفكارها الصوفية وتقاليدها تجنح إلى المبالغة في الطقوس والأوراد ، وفي خلق نواميس فيها غموض وإبهام ، .. >> [4]

---

[1] العدد الصادر بتاريخ 1927/5/20 . وجاء المقال بإمضاء " ع " . وقد يكون الشيخ عبد الحميد بن باديس .

[2] جريدة " الشهاب " : 1927/12/29 .

[3] يمكن ، هنا ، مطالعة ما جاء في " كوكب إفريقيا " بتاريخ 1914/3/27 .

[4] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص240 .

وبقي الصراع ماثلا بطول أجل الخلاف ؛ فالطرقيون ، على حدّ تعبير الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، << ما زالوا حيث تركناهم في سنة 1937 لم تؤثّـر فيهم أحداث الزمن ، ولم يتأثروا بما حلّ بالأمّة من محن ، ولم تخرق آذانهم هذه الأصوات المتعالية ، ولا انتهى إلى إحساسهم شيء من هذه اليقظة المتفشية في الأمة ، ولا وصل إليهم أثر من هذا التطور الذي غمر العالم ، وأنهم ما زالوا آلات صمّاء في يد الاستعمار ، يصرّفها متى شاء لما شاء ؛ بل الواقع أنهم ازدادوا تعلقا به وطاعة له ، بقدر ما أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، .. >> [1]

[1] عيون البصائر : ج2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2: د.ت. ، ص ص439 ، 440 .

ومن مريديات العلاوي التعليمية منظومة متفاصحة عصماء ، بلغت اثنين وثلاثين ومائة بيت ؛ يستهلّها بالترغيب في اقتفاء أثر طريقته الصوفية ، وعدّ التصوف علما مستنبطا من القرآن الكريم ، خاصا بفئة قليلة من الناس ، وإن كانوا موجودين في كل عصر ، وذلك في قوله [1] :

وَإِنْ أَرَدْتَ نِسْبَةً لِلْعَارِفِينْ
فَلأُرِيكَ الطَّرِيقَةَ بَعْدَ حِينْ
ذِكْرُ التَّصَوُّفِ يَحْسُنُ لِلتَّنْبِيهْ
أَذْكُرُهُ خِتَاماً لِلرَّغْبَةِ فِيهْ
فَعِلْمُ الْقَوْمِ يُؤْخَذُ مِنَ التَّنْزِيلْ
وَالْعَارِفُونَ بِالْحَقِيقَةِ قَلِيلْ
وَلَا تَخْلُو الْأَعْصَارُ مِنْ وُجُودِهِمْ
بَقِيَّةُ اللهِ لِيُهْتَدَى بِهِمْ

والتصوف عند العلاوي نسبة إلى الصُّفّة ؛ وهي جماعة من أصحاب النبي (ص) ، كانوا يجتمعون في مؤخّر المسجد النبوي بالمدينة المنوّرة ، وهم من فقراء المسلمين ، من ليس له بيت يأوي إليه ، ولا أهل يأنس له ، << لكن النسبة إلى الصفة لا تجيء على الصوفي ، بل على الصُّفي >> [2] .

والعلاوي يشرح الصفة ويعزوها إلى الصفاء حسبما جاء في قوله [3] :

---

[1] كتاب منهاج التصوف من كتاب الرسالة العلوية . المطبعة العلوية بمستغانم ، د.ت. ، ص05 .

[2] عبد الرزاق : التصوف ، كتب دائرة المعارف الإسلامية (16) ، ص60 .

[3] كتاب منهاج التصوف : ص06 .

=

= - قال بشر بن الحارث : << الصوفي من صفا قلبه لله >>

- << وسئل سهل بن عبد الله التستري ، من الصوفي ؟ فقال : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر >>

- << وسئل الجنيد عن التصوف ، فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية ، وموافقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة >> .

(أبو بكر محمد الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ؛ قدّم له وحققه وراجع أصوله : محمود أمين النواوي . مكتبة الكليات الأزهرية ، ط2: 1980 ، ص28 ، ص ص34 ، 35 .)

بيد أن الأرجح ، في كلمة تصوف ، أنها مشتقة من الصوف الذي كان لباســه << دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المتنسكين >>

(أبو نصر السراج الطوسي : اللمع ، تحقيق وتقديم : د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، طبعة القاهرة 1960 ، ص41 .)

وتعليل هذا أن القرآن الكريم نسب أتباع المسيح إلى ظاهر لبستهم :

" إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ " . (المائدة : من 112) .

ويقال : << تصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال تقمّص إذا لبس القميص ، فلهذا القول وجه سائــــغ في الاشتقاق .. وجمهرة الصوفية يميلون إلى ردّ اسمهم إلى الصفاء ، وإن لم يكن لذلك وجه ظاهر في قواعــد اللغة >> .

(عبد الرزاق : التصوف .. ، ص62)

ومن حيث الأصل ، فإن أصح طرح ، لدى الدكتور زكي مبارك ، هــــو << أن يكون الصوفي منسوبا إلى الصوف >> .

(التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق : ص43 .)

وقد أيّد الدارس هذا الفرض بجملة من الشواهد منها : غلبة لباس الصوف لدى المتقدمين من الصوفية ، وكونه لباس الأنبياء ، كما تقدّم ذكره .

(نفسه : ص44)

وهو المذهب الذي ذهب إليه دارس آخر ؛ حيث نسب التصوف إلى << الصوف (صوفي) تمشيا مع قواعد اللغة >> .

(أحمد توفيق عياد : التصوف الإسلامي ، تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، ج1 ، ص14) =

أَهْلَ الصُّفَّة نَسْبَتُهُمْ يَا مَنْ صَفَا

بِيْنَهُمْ تَتَاسَبْ فَلاَ يَخْفَـــــى

ويتابع العلاوي ، أنه يتعين على المريد للطريقة الصوفية المبادرة بالتوبة النَّصُوح ، بمعية الشيخ ، يعلّمه ويؤدّبه ، .. ولذلك عُدَّ الشيطان شيخَ من لا شيخَ له .

ومن << المتعذر وجود طريق روحي صحيح بلا رئيس روحي . والصوفية ليست خارجة عن هذا المبدأ العام . فالشيخ الصوفي هو المعني بالمهمة الروحيـــة في رسالة بني الإسلام ، وهو بهذه الصفة نفسها تشخيص للرحمة الإلهية التي تتسكب على الذين يرغبون في التطلع إليها >> [1] .

يقول الشاعـــــر [2] :

فَيَبْتَدِي بِتَوْبَةٍ مُحقَّقَـــــــــهْ صُحْبَةَ الشَّيْخِ وَجَبَتْ فِي الطَّرِيقَهْ

= بينما نسبته إلى " سوفيا " اليونانية << ليس إلا ضربا من الإغراب >> .

(التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق : ص54)

ونسبته إلى الصفاء ليس << إلا حذلقة من بعض الصوفية >> .

(نفســـــــــــــــــــــــــه : ص54)

وللباحث " مقداد يالجن " تخريج حسن مؤدّاه أن كلمة التصوف منسوبة إلى الصوف ، وذلك من حيث اللغة والمعنى ، بوصف << لباس الصوف تعبيرا رمزيا عن اتجاه المتصوفين في الزهد ، واختيار الحيـــاة الخشنة ، وتركهم الدنيا ونعيمها >> .

(فلسفة الحياة الروحية : ص71)

ومن قبل ، نحا ابن خلدون هذا المنحى ؛ وذلك حين يقول : << والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنـــــه من الصوف . وهم ، في الغالب ، مختصون بلبسه لما كانوا عليـــــه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف >>.

(المقدمـــــة : 392/2)

[1] د. سيد حسين نصر : الصوفية بين الأمس واليوم ، ترجمة : د. كمال خليل اليازجي .

الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1: 1975 ، ص70 .

[2] كتاب منهاج التصوف : ص06 .

ويفهم الناظم التوبة فهما تراثيا سليما ؛ فليست ، هي ، إقلاعا عن المعاصي وحسب ، ولكنها ، أيضا ، اعتراف وندامة .

ولا بد ، لتحقّقها ، من ردّ المظالم ؛ لأنها تمثّل علاقة التائب بالناس أولا ، ثمّ علاقته بالله تعالى ، وذلك هو قوله [1] :

وَالتَّوْبَةُ تَصِحُّ بِثَلاَثَهْ
إِقْلاَعٌ ، اعْتِرَافٌ وَنَدَامَهْ
مَعَ رَدِّ الْمَظَالِمِ لِأَهْلِهَا
إِنْ أَمْكَنَتْ كَاعْتِذَارٍ لِرَبِّهَا

ويوجب العلاوي على المريد أن يقوم بفرائض الدين وسننه ، وأن يتفقه فيه ، ربما لإبعاد التهم التي تقول إن المتصوفة قوم لا يشتغلون إلا بالباطن ، ويتركون العبادات غرورا بأنفسهم .

كما يلحّ على حسن سيرة المريد حتى موته ، ليكون الختام خيرا ؛ متلما جاء في قوله [2] :

قِيَامُ الْفَرَائِضِ مَعَ السُّنَنْ
تَفَقُّهٌ فِي الدِّينِ حَسْبَمَا أَمْكَنْ
وَحُسْنُ السَّيْرِ هَكَذَا إِلَى الْمَمَاتْ
فَالْعِبْرَةُ بِالْخَاتِمَهْ لاَ بِمَا فَاتْ

.. لأن اهتمام الصوفيين بالأخلاق كبير ؛ فهي مقوم هام من مقومات الشخصية الزاهدة والصوفية . والجاحظ ، حين ذكرهم ، سجّل لهم شيئين اثنين : جودة أدبهم ، ونبل

---

[1] المصدر السابق : ص07 .

[2] نفسه : ص07 .

أخلاقهم . ولذلك استهلّ كتاب الزهد بقوله : << نبدأ على اسم الله وعونه بشيء من كلام النساك في الزهد ، وبشيء من ذكر أخلاقهم ومواعظهم >> [1] .

والمريد لا بدّ له من الاجتهاد وطلب المزيد ، ملتزما ببعض الصفات ؛ منها المواظبة والاعتكاف والذكر . وهي أنواع من الرياضات من شأنها تهذيب أخلاقه وتغييرها واستحالتها من كدر إلى صفاء ، وهو ما ورد في قولـــــــــــه [2] :

فَالِاجْتِهَادُ دَائِماً نَعْتُ الْمُرِيـدْ

الْمُتَوَجِّهْ طَالِباً إِلَى الْمَزِيـدْ

---

[1] البيان والتبيين : 125/3 .

أغلب تعريفات التصوف القديمة تركز على الجانب الخلقي ؛ فقد سُمع أبو بكر الكتاني يقول : << التصوف خلق ، فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصـوف . فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام ، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان ، والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان >>.

(السهروردي : عوارف المعارف ، ص235 .)

وسُمع أبو محمد الجريري (ت:311هـ) ، أيضا ، يقول عن التصوف إنـــه : << الدخول في كل خلق سني ، والخروج منم كل خلق دني >> .

(الرسالة القشيرية : ص126 .)

ولعل أقدم تعريف وصلنا عن التصوف هو ما أثبته معروف الكرخي (ت:200هـ) بقولـــــــــه : << التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس ممّا في أيدي الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف >> .

(حول ترجمة الكرخي ، ينظر : دراسات في التصوف الإسلامي : ص ص115-131)

(عوارف المعارف : ص53 – حلية الأولياء : 368/8)

وقد سئل الشبلي (ت:334هـ) عن حقيقة الفقر فقال : << ألا يستغني بشيء دون الحـــــــق >>.

(عوارف المعارف : ص53 .)

فللتصوف عند الكرخي جانبان اثنان : النظر إلى حقيقة الدين أي باطنه ، دون الاكتفاء بظاهره ، والزهد في الدنيا الذي هو عبارة عن سلوك وخلق .

(انظر : د. أبو العلا عفيفي ، التصوف ، الثورة الروحية في الإسلام ، طبعة الإسكندرية 1963 ، ص39)

[2] كتاب منهاج التصوف : ص ص07 ، 08 .

تَجِدُهُ مُوَاظِباً مُعْتَكِفَـــــــا

لِذِكْرِهِ وَبِالْبِرِّ مُتَّصِفَـــــا

وَإِنْ دَامَ يَسْرِي فِيهِ نُورُ الذِّكْرِ

تُهَذَّبُ أَخْلاَقُهُ كَمَا نَـــدْرِي

حَتَّى يَصِيرَ صَفْوَةً بِلاَ كَـدَرْ

تُبَدَّلُ أَوْصَافُهُ وَصْفُ آخَـــرْ

ويعدّد العلاوي الأوصاف الجديدة ومنها : القوة والحزم في الطاعة ، والخوف والرجاء والقرب والمحاسبة والحمد والشكر إلخ .. بقولـــــــــــه [1] :

يَكُونُ دَائِماً قَوِيّاً حَازِمَـا

فِي الطَّاعَةِ مُعْتَكِفاً مُلاَزِمَـا

وَخَائِفاً وَرَاجِياً وَحَبِيبَـا

وَسَاهِلاً وَلَيِّناً وَقَرِيبَـــا

مُحْتَسِباً وَحَامِداً وَشَاكِرَا

مُعْتَصِماً وَرَاضِياً وَصَابِرَا

فهذه الصفات هي التي يترقى فيها المريد << من مقام إلى مقام ، إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة .. فالمريد لا بدّ له من الترقـــي في هذه الأطوار . وأصلها كلها الطاعة والإخلاص ، ويتقدّمها الإيمـــــــــان ويصاحبهـــــــــا >> ، وذلك هو ما جاء في قول الشاعر [2] :

وَمَعْنَى النِّيَّةِ أَنْ تَسْعَى بِأَيْقَانْ

فِي طَلَبِ اللهِ عَلَى نَعْتِ الْعِيَانْ

---

[1] المصدر السابق : ص ص08 ، 09 .

[2] المقدمة : 585/2 .

وَمُخْلِصاً وَزَاهِداً وَوَرِعَـــا

شَدِيدَ الْعَزْمِ عَامِلاً لاَ جَازِعَـــا [1]

فالإخلاص أساس الأعمال . وقد أكّده الله تعالى في تنزيله وألحّ عليه بقولـــــه : " .. فَمَنْ كَـانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ، فَـلْـيَعْـمَـلْ عَـمَلاً صَالِحاً ، وَلاَ يُشْرِكْ بِعِـبَـادَةِ رَبِّـــــهِ أَحَـــــــــــداً " . (الكهف : من 110)

وعلامته ، كما يقول أبو مدين شعيب ، << أن يغيبَ عنك الخلق في مشاهدة الحـــــــق >> [2] .

ويتوقف تمام نجاح رياضات المريد ، حسب العلاوي ، على اختلائه بنفسه وانعزاله عن الناس ؛ لما لهما من أهمية قصوى نفسيا ؛ فالخلوة << بمثابة الأجنحة التي تصعد بها النفس في عالم الملكوت ، وهي التي تعمل على شفافية النفس ، وتسهل اتصالها بعوالم المغيبات >> [3] ، وذلك في قولـه [4] :

وَتَطْلُبُ الرِّيَاضَةَ حَالَ السَّيْرِ

ثُمَّ الكَيْفِيةَ تَحْتَاجُ لِلذِّكْـــــرِ

وَلاَ تَكُونُ إِلاَّ مَعَ الْخَلْـــوَةِ

فِي الْغَالِبِ وَهَكَذَا فِي نِيَّتِـي

---

[1] كتاب منهاج التصوف : ص 06 وص09 .

[2] بابا التنبكتي : نيل الابتهاج . دار الكتب العلمية ، لبنان 1951 ، ص129 .

[3] عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي .. : ص277 .

عرّف القشيري الخلوة بأنها << صفة أهل الصفوة . والعزلة من أمارات الوصلة ، ولا بد للمريـــــــد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه . ومن حق التعبد إذا آثر العزلة أن يعتقد ، اعتزاله عن الخلق ، سلامة الناس من شرّه ولا يقصد سلامته من شرّ الخلق >> .

(الرسالة القشيرية : ص50 .)

[4] كتاب منهاج التصوف : ص10 .

وَقَلَّـــمَا يُنْتَفَعُ بِدُونِـــــهَا

وَصَعُبَتْ عَلَى النَّفْسِ لِنَفْعِهَا

ويدعم الناظم ذهابه هذا بتعبّد النبي (ص) في غار حراء ، ووعد الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بالميقات في التكليم والرؤية ، وذلك بقولـــــــه [1] :

وَسُنَّةُ الرُّسْلِ جَاءَتْنَا بِمِثْـــلِ

مَا لِلْقَوْمِ فِي الإِنْفِرَادِ الكُلِّـــي

غَارُ حِيرَا لِلنَّبِي كَانَ مَـــأْوَاهْ

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَـــهْ [2]

لاَ يَفْزَعُ الْقَلْبُ دَوَاماً فِي الْكَدَرْ

إِلاَّ بِالإِنْقِطَاعِ عَنْ كُلِّ الْبَشَـــرْ

ويشترط العلاوي ، في خلوة المريد ، النية والتوكل ، وطهارة البدن والثوب والمكان ، وصنوفا من الرياضات والمجاهدات منها الصبر [3] والصوم ، وذلك في قولـــــه [4] :

وَشَرْطُ الْخَلْوَةِ لِلْمُرِيدِ الدُّخُـــــولْ

بَعْدَ النِّيَةِ وَالتَّوَكُّـلِ الْمَقْبُـــــولْ

طَهَارَةُ الْبَدَنْ ثَوْبٌ وَمَكَـــــــانْ

وَحُسْنُ الصَّبْرِ فِي الدَّوَامِ بِالإِمْكَانْ

تَضْيِيقُ مَجْرَى النَّفَسِ بِقَطْعِ الطَّعَامْ

وَالْمَأْلُوفَاتُ هَكَذَا نَعْتُ الْكِـــرَامْ

---

[1] المصدر السابق : ص11 .

[2] الشطر الثاني من البيت اقتباس من : سورة الأعراف / من الآية 142 .

[3] الذي يُعدّ << مطية المريد ، والرضى سجية المراد ، فهذا يقوم للأمر ، وذاك يسعى للأجر >> .

(نفح الطيب : 319/5 .)

[4] كتاب منهاج التصوف : ص ص11 ، 12 .

تَغْمِيضُ لِلْعَيْنَيْنِ وَجَمْعِ الْحَـــوَاسْ

وَذِكْرُهُ لِلِاسْمِ بِقَطْعِ الْأَنْفَـــــاسْ

وهذا هو أمر المُحبِّين الذين تغلب << الرياضة الروحية في خلواتهم على العبادة ، فيتخذون من الخلوة وسيلة للفناء في المحبوب والاتحاد به أو مشاهدته .

ومن هنا كانت الخلوة هي التي يسبح الصوفية فيها على أجنحة من الرياضة إلى عوالم الغيب التي لا يشهدها غيرهم من الناس >> [1] .

بينما لا يستوي هذا العمل إلا بالذكر [2] ، لا يغفل عنه المريد ؛ لأنه وسيلة هامة يصل بها إلى هدفه البعيد المتمثل في فنائه واتحاده بالله عز وجلّ ، وهو ما جاء في قول الناظـــــم [3] :

لَا يَفْتُرُ لَا يَغْفُلُ عَنْ ذِكْـــــرِهِ

يَنْفِي الْخَوَاطِرَ عَنْ بَابِ قَلْبِـــهِ

إِلَّا خَاطِراً دَلَّهُ مَا أَحْسَنَـــــهْ

بِالِانْفِرَادِ وَالتَّوْحِيدِ عَرَفَـــــهْ

وَهَكَذَا لَا يَتْرُكُ الذِّكْرُ بِحَـــالْ

---

[1] التصوف في الشعر العربي .. : ص280 .

[2] - قال بعضهم : << الذكر طرد الغفلة ، فإذا ارتفعت الغفلة ، فأنت ذاكر وإن سكتّ >> .

(التعرف لمذهب أهل التصوف : ص123 .)

- << والذكر على ضربين : ذكر اللسان وذكر القلب ؛ فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب والتأثير لذكر القلب ، فإذا كان العبدُ ذاكرا بلسانه وقلبه فهو الكاملُ في وصفه في حال سلوكه .. وقيل : ذكر الله بالقلب سيف المريدين ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهـم ، وإن البلاء إذا أظلّ العبد ، فإذا فزع بقلبه إلى الله تعالى يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه .. ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت .. والذكر بالقلب مستدام في عموم الحالات >> .

(الرسالة القشيرية : ص ص101 ، 102 .)

[3] كتاب منهاج التصوف : ص ص12 ، 13 .

إِلاَّ إِذَا أَظْهَرَ مِنْ فَيْضِ الْكَمَالْ

مَا يَفْنِيهِ عَنْ هَذَا الْكَوْنِ مُجْمَلاَ

فِي ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وورد في قوله أيضا [1] ، وهو يتحدّث عن المريد الذي يصل إلى المعرفة التي ينشدها المتصوفة دون عناء المرور بالمقامات المذكورة سلفا، منّة من الله ونعمة. وهذا هو المجذوب المجرّد ، كما يسميه السهروردي ، [2] :

وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْمُرِيدِ مَا قَدْ سَبَقْ

بِدُونِ مَا يَتَرَيَّضْ يَتَحَقَّقْ

تَاخُذُهُ الْعِنَايَةُ تَضُمُّهْ

بِحَضْرَةِ الْقُدُوسِ وَتَجْمَعُهْ

هَذَا الذِي يُسَمَّى فِيهِمْ بِالْمَجْذُوبْ

وَالسَّالِكُ الْمُحِبُّ وَهَذَا الْمَحْبُوبْ

ويسجّل العلاوي للمريد ، في منظومته هذه ، جملة من الآداب تجاه إخوانه ، تنمّ كلها عن الخلق الكريم ، ومنه إيثارهم على نفسه ، والنهوض لخدمتهم كأنه عبد مملوك [3] ، مع تقبيل أيديهم احتراماً وتقديرا ،

---

[1] كتاب منهاج التصوف : ص15 .

[2] عوارف المعارف : ص87 .

[3] أوصى أبو سعيد الخراز (ت:277هـ) المريد فقال : << من أدب المريد وعلامة صدق إرادته أن يكون الغالب عليه الرقة والشفقة والتلطف والبذل ، واحتمال المكاره لها عن عبيده وعن خلقه حتى يكون لعبيده أرضا يسعون عليها ، ويكون الشيخ كالابن البار ، والصبي كالأب الشفيق ، ويكون مع جميع الخلق على هذا يشتكي بشكواهم ، ويغتم لمصائبهم ، ويصبر على أذاهم ، فإن هذا مراد الله من المريدين الصادقين : أن يعطفوا على الخلق من حيث عطف الله تعالى عليهم ، ويتأدبوا بآداب الأنبياء والصديقين ، وآداب أوليائه وأحبائه حتى ترفع الحجب التي بينه وبين الله .. >> . (اللمع : ص ص275 ، 276 .)

وذلك في قولـــــه [1] :

أَدَبُهُ يَا صَاحِ مَعَ إِخْوَانِـــهْ

إِذْ دَائِماً يُؤْثِرُهُمْ عَلَى نَفْسِهْ

يَنْهَضْ لِأَمْرِهِمْ كَأَنَّهُ مَمْلُوكْ

يُقَبِّلُ أَيْدِيهِمْ يَنْفِي السُّلُـوكْ

كما أن الناظم يذكـّر المريد بأدبه مع شيخه ، يقتدي به ويتخذه إماما ، ويحبّه ويعظمه امتثالا وتسليما ، ويصدقه فعلا وقولا ، وذلك في قوله [2] :

وَأَدَبُ الْمُرِيدِ مَعَ شَيْخِـــــهْ

مَنَحْتُمْ لِكَيْ يَنْتَفِعَ بِـــــهْ

وَالِاقْتِدَاءُ يَصِحُّ بِشُرُوطِـــهْ

أَذْكُرُ مِنْهَا لِلْمُرِيدِ كَيْ يَنْتَبِهْ

وَالصِّدْقُ وَالْمَحَبَّةُ مَعَ التَّعْظِيمْ

النِّيَّةُ وَالِامْتِثَالُ وَالتَّسْلِيـــمْ

يَصْدُقُهُ فِي فِعْلِهِ وَفِي الْمَقَالْ

يُحِبُّهُ مَحَبَّةً بِلاَ مِثَـــــالْ

ولكن على المريد ، كما يقول أحد الباحثين ، << أن يستوثق من أن الشيخ الذي يسلـّمه زمام أمره مرشد خبير ، يستطيع أن يقوده عبر مهالك الطريق إلى الغاية المنشودة ، وإلا داهمه خطر الانحراف بتعرض خير ما في الإنسان للفساد >> [3] .

---

[1] كتاب منهاج التصوف : ص18 .

[2] نفســـــــــــه : ص20 .

[3] الصوفية بين الأمس واليوم : ص74 .

يقول الشاعـــــــر [1] :

إِنْ تَرَ لِغَيْرِي مَنْجَـــــــمْ [2]

فَاقْصِدْهُ يَكْفِينَـــــــــا

ومن آداب المريد مع شيخه ألا يرفع صوته إذا كلّمه ، وإن جلس فالأرض جديـــــــرة به ، مثلما جاء في قول الشاعر [3] :

وَإِنْ مَعَهُ تَكَلَّمَ فَيَخْفِـــضْ

وَإِنْ جَلَسَ أَوْلَى لَهُ بِالْأَرْضْ

ويميز العلاوي بين المريد المبتدئ وبين المرشد الذي لا يكون كذلك إلا إذا كان متحققا مشاهدا ، متمرسا في علاج النفوس والقلوب من أدرانها وأسقامها ، عارفا بأحكام الشريعة بصورة إلزامية ، على نحو ما ورد في قولـــــــــه [4] :

أَقُولُ هُوَ رَجُلٌ قَـــــدْ عَرَفَ

لُبَّ التَّوْحِيدِ بِالْبِرِّ مُتَّصِفَـــا

وَلَا يَكُونُ مُرْشِـــــداً إِلاَّ إِذَا

قَدْ كَانَ عَارِفًا مُشَاهِداً كَـــذَا

مَعَ عِلَاجٍ فِي النُّفُوسِ مَتْمَهِـــرْ

وَلِأَمْرَاضٍ فِي الْقُلُوبِ مَقْتَدِرْ

وَفِي الشَّرِيعَةِ لِمَا يَهُمُّـــــــهُ

مِنَ الْأَحْكَامِ لَازِمَ يَعْرِفُـــــهُ

---

[1] ديوان العلاوي : ص52 .

[2] أي قدرة على إرشادك .

[3] كتاب منهاج التصوف : ص22 .

[4] نفسه : ص23 .

وفي نهاية المطاف ، يصلي الناظم على النبي (ص) كعادته في مختتم قصائده ، ويشير إلى أن عدد أبيات هذه المنظومة هو ألف بيت ، وأنه أنشأها استعجالا مخافة انقضاء أجله [1] .

ولكن لا ندري من أين له بهذا العدد ؟ ! فقد قلنا ، سابقا ، إن العدد هو اثنان وثلاثون ومائة بيت .

---

[1] المصدر السابق : ص26 .

ومن مريديات العلاوي أيضا ، منظومته " أيها السائل " [1] التي على الرغم من بدايتها الموحية بالجواب الشافي ، فإننا لم نجد شيئا من ذلك سوى أمور مغيبة ، وإن بدت للسائل – اللائم – باطلة ، فلأنه لم يدرك حقيقتها .

وهو أمر معتاد لدى دعاة التصوف ؛ يأتون بالغرائب ، ويبتدعون أشياء لا قبل لسواد الناس بها ، ويطالبونهم باعتقادها ، أو على الأقل التسليم بها ، وذلك هو قوله :

أَيُّهَا السَّائِلْ أَنْتَ الْكَفِيـــلُ
بِجَوَابِنَا عَنِ الْآفَـــــاتْ
فَهَاكَ قَوْلاً فِيهِ تَفْصِيـــلُ
مَحْضُ الْبَيَانِ فِي الشَّطَحَاتْ
فَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبِيـــلُ
وَكُلُّ ذَاتٍ لَهَا سِمَـــــاتْ
وَكُلُّ حَقٍّ لَهُ دَلِيـــلُ
وَكُلُّ صِدْقٍ لَهُ ثَبَـــــاتْ
وَأَمْرِي لَيْسَ لَهُ مَثِيـــلُ
فَأَنْتَ عَنْهُ فِي سَكَـــرَاتْ
فَمَا تَرَاهُ مِنَّا بَاطِـــلُ
فَلَسْتَ تَدْرِي كُنْهِي هَيْهَـاتْ
فَأَمْرِي غَيْبٌ عَنْكَ مُحِيلُ
وَحُسْنُ الظَّنِّ فِيهِ نَجَـــاةْ

---

[1] ديوان العلاوي : ص ص41 ، 42 .

ويوجه الناظم للمريد جملة من النصائح سُلّماً للوصول إلى الفناء [1] المنشود ، ومنها: ألا يُصغي لغير الله ، تعبيرا منه عن عدم الاشتغال إلا به، وألا يغفل عن ذكره ، وذلك هو قوله أيضا [2] :

يَا مُرِيداً فُزْتَ بِهِ
بَادِرْ وَاقْصِدْ مَنْ تَهْوَاهُ
إِنْ أَرَدْتَ تَفْنَى فِيهِ
لاَ تَصْغَ لِمَا عَدَاهُ
حَضِّرْ قَلْبَكْ فِى اسْمِهِ
شَخِّصْهُ وَافْهَمْ مَعْنَاهُ

يَا خَلِيلِي * اذْكُرْ وَافْنَ فِي اللهْ
لاَ تُبَالِي * بِغَيْرِ اللهْ
حَضِّرْ قَلْبَكْ * وَغِبْ عَنْكَ فِي اللهْ
وَاخْفِضْ بَصَرَكْ * لِكَيْ تَرَاهْ
شَرَابُكْ مِنْكْ * اَعْرِفْ نَفْسَكْ بِاللهْ
هُوَ عَيْنُكْ * لَسْتَ سِوَاهْ

---

[1] << هو تلك " اللحظة " التي تتوحّد فيها ذات عاشقة بذات أخرى معشوقة ، وتلك اللحظة أيضا هي نقطة " تقاطع " أو " انسجام " أو " اتحاد " (أنا) المحب (بأنا) المحبوب ليصير (الأنا هو) ، ويصير (الهو أنا) ، وهي اللحظة التي تسمّى عند أهل الحبّ الإنساني ، في أغلب الأحيان ، " بالوصال " ، وتسمّى عند أهل الحبّ الإلهي ، غالبا ، " بالاتحاد " ومجازا " بالوصال " أيضا ، بمعنى وصل ما انفصل >> .

(مختار حبار : الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني ، مخطوط رسالة دكتوراه ، ص ص174 ، 175)

[2] المصدر السابق : ص47 و ص107 .

ويعمّق العلاوي للمريد فكرة الفناء المرتبطة بالاتحاد أو الكشف ، فيعطيه الكيفية التي يرقى بها إلى الرؤية أو الشهود ؛ وسببه << أن الروح إذا رجع عن الحسّ الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس ، وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدّد نشوؤه ، وأعان على ذلك الذكر ، فإنه كالغذاء لتنمية الروح ، ولا يزال في نمو وتزيّد ، إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما ، ويكشف حجاب الحس ، ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها ، وهو عين الإدراك . فيتعرّض ، حينئذ ، للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي .. >> [1]

<< فالمتصوفون يعتقدون ، أولا ، أنه ليس للموجودات الحسية وجود حقيقي ، بل لها وجود وهمي جعله الله فيها . لا بقيام ذاتي ، بل بإقامة الحق . وبما أن عالم الشهادة ليس في الواقع إلا سرابا خادعا توحيه إلينا حواسنا ، فإننا نضلّ عندما نفتش عن الخالق في العالم الخارجي ، فمن الواجب علينا أن ننصرف إلى ضمائرنـــــا ، إلى قلوبنا ، نفتش في زواياها عن الخالق ، فهي أصلح مكان وأفضله لظهـــــور الحـــــق >> [2] . والمعروف لدى الصوفية أن المتصوف إذا بلغ مقام الشهود ، فأغلب ما يكون عليه الاطمئنان والسكون .

ولكن العلاوي يأمر مريده بالاهتزاز شوقا إلى الذات الإلهية ؛ وهي فكرة استلهمها المتصوفة المتأخرون من حادثة مثول كعب بن زهير بين يدي الرسول (ص) ، وإنشاده إياه قصيدته " بانت سعاد " ؛ ما جعله يهتز لها طربا حتى سقط رداؤه ، وذلك في قولـــــــه [3] :

---

[1] المقدمة : 586/2 ، 587 .

[2] جميل صليبا : من مقاله " الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية " الجزآن 5 ، 6 – المجلد 20 ، مجلة المجمع العلمي العربي ، أيار-حزيران 1945 ، ص212 .

[3] ديوان العلاوي : ص47 .

وَجَّهْ وَجْهَكْ لـوَجْهِـــــهِ
وَاهْتَزَّ اشْتِيَاقاً لَـــــــهُ
اخْفَضِ الطَّرْفَ لَدَيْـــهِ
وَانْظُرْ فِي ذَاتَكْ تَـــرَاهُ

والنظر في الذات الإنسانية يؤدي إلى النظر في الذات الإلهية ؛ لأن الله تعالى متجلٍّ في عناصر الطبيعة ، حسبما يذهب إليه معتنقو فكرة وحدة الوجود .

ويدعو العلاوي مريده إن سُئِل عمّن يعني، أن يصرّح بالمعنيِّ وهو الله عزّ وجلّ . وربما كان ذلك ردّا على المعارضين الذين لا يفهمون التلميح ، ودرءاً لشبهات الزندقة التي كثيرا ما يُرْمَى بها الصوفية ، وذلك في قوله أيضا [1] :

أَيْنَ أَنْتَ مِنْ حُسْنِـــهِ
تَا اللهِ لَسْتَ سِـــــوَاهُ
إِنْ قِيلَ مَنْ تَعْنِي بِـــهِ
صَرِّحْ وَقُلْ هُـــوَ اللهُ
أَنَا فِيهِ فَانِي بِـــــــهِ
يَرَانِي كَمَا نَـــــــراهُ
هُوَ هُوَ قَصْدِي فِيـــهِ
رُوحِي وَذَاتِي تَهْـوَاهُ
اللهْ اللهْ نَعْنِي بِـــــهِ
كُلَّ نُطْقِي بِسَنَـــــاهُ

---

[1] المصدر السابق : ص ص47 ، 48 .

وفي منظومته " مريداً بادرْ " ، يسارع العلاوي إلى المريد ناصحا له بالذكر قلبا ولسانا ، وبالمجاهدة يُلزم بها نفسه من أجل المشاهدة ، وذلك هو قوله [1] :

مُرِيداً بـــــادَرْ
بِقَلْبٍ حَاضَـــــرْ
لِسَانٍ ذَاكَـــــرْ
بِقَوْلِـــــكَ اللهْ
جَاهَدْ تُشَاهَـــدْ
كُلَّ الْفَوَائِـــــدْ
سَرَّ الْأَمَاجَـــدْ
فِي ذَكْـــــرَكَ اللهْ

وينتقل الناظم ، دون سابق إنذار ، إلى شيوخه ، مشيدا بفضائلهم عليه ؛ فهم الذين عرّفوه بالله ، وهم الذين طاروا بقلبه إلى حضرة الله . ولكن لماذا هذا الانتقـال فجأة ؟ ربما تأثيرا في المريد عن طريق الجلال والرهبة ، وتبريرا لتصوره هذا ، ردّا على المنكريـــن ، وذلك هو قوله أيضا [2] :

شَوَّشْ لِي بَالِـــي حُبَّ الْمَوَالِـــي
أَهْلَ الْكَمَـــالِ عَرَّفُونِـــي اللهْ
رَوِّحْ يَا حَـــادِي بِذِكْرَ اسْيَـــادِي
جَذْبُوا فُـــؤَادِي لِحَضْـــرَةِ اللهْ

---

[1] المصدر السابق : ص66 .

[2] نفســـــه .

فهؤلاء الشيوخ هم الذين أوصلوا الناظم إلى توحيد الله . والتوحيد الصوفي غير التوحيد العادي لدى عامة الناس [1] .

---

[1] - سئل أبو الحسن النوري (ت:295هـ) عن التوحيد فقال : إنه << كل خاطر يشير إلى الله تعالى بعد أن لا تزاحمه خواطر التشبيه >> .

(الرسالة القشيرية : ص05)

- وسئل الجنيد عن توحيد الخاصة فقال : << أن يكون العبد شبحا بين يدي الله ، تجري عليه تصاريف تدبيره في مجاري أحكام قدرته في لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه ، وعن دعوة الخلق له ، وعن استجابته بحقائق وجود وحدانيته في حقيقة قربه بذهاب حسّه وحركته ، لقيام الحق له فيما أراد منه ، وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله ، فيكون كما كان قبل أن يكون .

والدليل في ذلك قول الله عزّ وجلّ : " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . قَالُوا بَلَى . " .

قال الجنيد في معنى ذلك : فمن أين كان وكيف كان قبل أن يكون ؟ وهل أجابت إلا الأرواح الطاهرة بإقامة القدرة وإنفاذ المشيئة ؟ فهو الآن في الحقيقة كما كان قبل أن يكون ، وهذا غاية حقيقة التوحيد للواحد : أن يكون العبد كما لم يكن ويبقى الله تعالى كما لم يزل >> .

(اللمع : ص ص49 ، 50)

ويبدو من الكلام السابق رجوع الجنيد ، بالتوحيد الصوفي ، إلى جِبِلّة النفس الأولى المصقولة بالرياضات والمجاهدات الطاهرة من كدورات البدن وشوائبه ..

وصفوة القول إن الجنيد يؤكد أن الأرواح البشرية آمنت ، منذ الأزل ، بالله تعالى ، وأقرّت بوحدانيته ، وهي لم تزل في عالم الذر ، وقبل أن يُخلق العالم وما فيه من أجسام مادية ، هبطت تلك الأرواح بوصفها أشياء استأثرها الله بعلمه ، ولم يُطّلعْ عليها أحدا من خلقه ..

(انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص40)

- يُروى أن عبد الودود بن سعيد بن عبد الغني الزاهد سأل الحلاج عن التوحيد فأجابه بقوله : << التوحيد خارج عن الكلمة حتى يعبّر عنه . قلت فما معنى لا إله إلا الله ؟ قال : كلمة شُغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التوحيد ، وهذا شرح التوحيد من وراء الشرع . ثمّ احمرّت وجنتاه ، وقال : أقول لك مجملا . قلت : بلى . قال : من زعم أنه يوحّد الله فقد أشرك >> .

(كتاب أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج : ص74)

يقول الحـــــــلاج : =

كما صار العلاوي ساجدا قائما ، ولكن في حضرة الله ، مذكّـرا ، كعادته ، بعجز اللائم عن استكناه الأمور الباطنة . ومع ذلك ، يلحّ عليه ، وبطريقة ذكية ، إن أراد دراية ، أن يأخذ بمذهبه ؛ فالشاعر عارف بأسراره ودقائقه .

بينما يذكـّر بأن الساخط على التصوف إنما هو محروم يعيش عنتاً إلى أن يلقى الله ، وذلك في قولـــــــه [1] :

صَرْتُ مُوَحّـــــــدْ وَاللهْ شَاهَـــــــدْ
إِنَّنِي سَاجَـــــــدْ فِي حَضْـــــرَةِ اللهْ
سَاجَدْ وَقَايـــــــمْ إِنَّنِي هَائِـــــــمْ
أَيُّهَا اللاَّئِـــــــمْ لَسْتَ تَـــــدْرِي اللهْ
إِنْ شِئْتَ تَـــــدْرِي تَعْرَجْ وْتَسْـــــرِي

= مَا وَحَّدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِـدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِـدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِـهِ عِبَارَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِـدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيـــــدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لاَحِـدُ

(ديوان الحلاج : نشره لويس ماسينيون ، الجريدة الآسيوية

(J.A.): t.ccXVIII ،Paris , Imprimerie nationale , janvier-mars ,1931, p.75.

- سئل أبو راس الناصري عن الوحدانية والتوحيد فأجاب أن سعد الدين عبّر عن الوحدانية بأنهـــا :

<< عبارة عن نفي الكثرة بحسب الأجزاء ، وبحسب الجزئيات >> .

(فتح الإله ومنّـته : ص140)

- من أقوال الجنيد : << أشرف كلمة في التوحيد قول الصديق : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفتها إلا بالعجز عن معرفته >> .

(نفح الطيب : 286/5)

ومن أقوال الشبلي : << من توهّم أنه واصل ، فليس له حاصل . ومن رأى أنه قريب فهو بعيد . ومن تواجد فهو فاقد . ومن أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل >> .

(نفح الطيب : 287/5)

[1] ديوان العلاوي : ص66 .

خُذْ عَنِّي سِـــــرِّي بِهْ تَلْقَـــــى اللهْ
إِنَّنِي عَـــــارَفْ بِذِي اللَّطَائِـــــفْ
أَيُّهَا الْخَائِـــــفْ أُدْنُ تَـــــرَ اللهْ
مَن لَّا يَرْضَـــــانَا مَحْرُومَ هْوَانَـــــا
هُوَ فِي عَنَّـــــا حَتَّى يَلْقَـــــى اللهْ

ويصرّح ، نهاية ، بنسبة طريقته إلى الشيخ الدرقاوي ، وذلك في قوله أيضا [1] :

صَرَّحْ يَـــــا رَاوِي بَاسْمَ الْعَـــــلَاوِي
بَعْدَ الدَّرْقَـــــاوِي خَلَّفَـــــهُ اللهْ [2]

وفي معرض ردّ العلاوي على المنكرين المعارضين ، والترغيب في اتباع طريقته ، يستهلّ قصيدته " يتهتّك حجابي " [3] بالحديث عن الرؤية والحال التي يكون فيها ؛ فالجسم مضطرب ، والعقل تائه . والإشارة ، هنا ، ربّما تكون لحال الجذب التي يبلغها المتصوف أثناء الذكر المعبّر عنه بالسّماع ، وذلك هو قولـــــه [4] :

يَتْهَتَّكْ حِجَابِـــــي إِذَا مَا قُلْـــتَ اللهْ
تَرَانِي فِي انْتِحَـــابِ إِنْ نَظَرْتُ إِيَّـــاهْ
وَالْجَسْمُ فِي اضْطِرَابِ وَالْعَقْلُ فِيهِ تَـــاهْ

وعلى الرغم من ذلك ، فاللائم في مِرْيَة ممّا عرض للشاعر من أحوال . والسبب جهله بربّه . ولو علم لما أنكر قطبيته ، وذلك هو قوله أيضا [5] :

---

[1] مولاي العربي شيخ الطريقة الدرقاوية .

[2] المصدر السابق : ص66 .

[3] نفسه : ص ص70 ، 71 .

[4] نفسه : ص70 .

[5] نفسه .

وَالْغَيْرُ فِي ارْتِيَـــابِ جَاهَلْ بِمَـوْلاَهْ
فَمُنْكِرُ اقْتِطَابِـــــي غَبِي لاَ عِلْمَ لَهْ

والحق ، إن المسألة ليست مسألة علم أو جهل ؛ فكل ما في الأمر أن تصور الصوفية للجانب الروحي من الدين غير تصور المُصلحين أو دعاة الظاهر له .

فبينما يُلزم الأوّل أنفسهم بجملة من الرياضات والمجاهدات ، يعتقدون أنها توصلهم إلى سعادتهم المنشودة ، فإن الأخر يرون فيها نوعا من المبالغة والابتداع ، وبخاصة ما يتعلّق بالأفكار الوافدة على التصوف الإسلامي ، ذات المصادر الأجنبية ؛ فمما لا يخفى على دارسي التصوف ، أن أوائل المتصوفة كانوا يستمدّون تعاليمهـــم من القرآن الكريم والسنة الشريفة ؛ فكان التصوف ، بذلك ، سنيا . ولعلّ الحـــارث المحاسبي (ت:243هـ) [1] خير من يمثّله .

لكن هذا النوع من التصوف لم يبق على حاله ، بل تطور تطورا كبيرا ، خرج من خلاله عن الإسلام الحق . ومرد ذلك ما تعلّق به من أفكار غريبة ؛ فقد ظهـــر << في صورة جديدة تختلف تمام الاختلاف عن سابقتها ، وهي صورة لا يمكن تفسيرها بأنها نتيجة تطور لعوامل روحية من صميم الإسلام نفسه >> [2] .

ومن هذه الأفكار ما كان ذا مصدر فارسي : وتتمثل في << نظرية الحبّ الإلهي ، والإمام المعصوم ، والحقيقة المحمدية >> [3] .

---

[1] تُطالع دراسة قيمة عنه في : " دراسات في التصوف الإسلامي .. " لمحمد جلال شرف . دار النهضـــة العربية ، بيروت 1984 ، ص ص153-178 .

[2] نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ص04 .

[3] الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص18 .

ولن يكلف الباحث نفسه كبير عناء ليتأكّد من غرابة هذه الأفكار وبُعدها عن روح الإسلام ؛ فالحقيقة المحمدية [1] ، وقدم الروح المحمدي ، منهما تفرّعت المخلوقات فيضا استنادا إلى أن << إله الخير لم يخلق الكون بما فيه من كائنات روحية

---

[1] تعدّ العماد الذي قامت عليه " قبة الوجود " كما عبّر عنها ابن عربي بقوله :

<< اعلم أن الله لما خلق الخلق جعلهم أصنافا ، وجعل في كل صنف خيارا ، واختار من الخيار خواصّ وهم المؤمنون ، واختار من المؤمنين خواصّ وهم الأولياء ، واختار من هؤلاء الخواص خلاصة وهم الأنبياء ، واختار من الخلاصة نقاوة وهم أنبياء الشرائع المقصورة عليهم .

واختار من النقاوة شرذمة قليلين هم صفاء النقاوة المروقة وهم الرسل أجمعهم ، واصطفى واحدا من خلقه هو منهم ، وليس منهم (*) ، هو المهيمن على جميع الخلائق ، جعله الله عَمَدا أقام عليه قبة الوجود ، وجعله الله أعلا المظاهر وأسناها ، صحّ له المقام تعيينا وتعريفا ، فعلمه قبل وجود طينة البشر وهو محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لا يكاثر ولا يقاوَم ، هو السيد ، ومن سواه سوقة >> .

(*) هو منهم لأنه حادث ، وليس منهم لأنه أزلي .

(انظر : زكي مبارك ، التصوف الإسلامي .. ، ج1 ، ص230)

(الفتوحات المكية : 97/2)

بينما يرى الأستاذ زكي مبارك أن الحقيقة المحمدية ، وما بها من تفريعات إنما تمثّل تصورا << اقتبسه الصوفية من الفلاسفة القدماء >> ، بل إنها << أسطورة من الأساطير ، وهي .. مسروقة من النظرية النصرانية ، كما أن النظرية النصرانية مسروقة من الفلسفة اليونانية >> .

(التصوف الإسلامي .. : 232/1)

(نفسه : 239/1)

وقد عبّر ابن مشيش ، وهو من أعلام الطريقة الشاذلية ، عن الحقيقة المحمدية في صلاته . وهي معروفة يقرؤها المريدون صباح مساء . ونصها هو : << اللهمّ صلّ مَنْ مِنْهُ انشقت الأسرار ، وانفلقت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزّلت علوم آدم بأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم ، فلم يدركه سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شيء إلا هو به منوط ، إذ لولا الواسطة لذهب ، كما قيل ، الموسوط >> .

والواسطة هي محمد (ص) ، والموسوط الأشياء والناس . ومن هنا فإن محمدا (ص) هو أصل الوجود .

(التصوف الإسلامي : 234/1)

ومادية خلقا مباشرا ، بل خلقه عن طريق الكلمة الإلهية المشتركة >> [1] التي هي عند المسيحيين عيسى ، عليه السلام ، ولدى المتصوفين المتأثرين بها الحقيقة المحمدية .

وفوق هذا ، فإن استلهام أنوار الحقيقة المحمّدية وروحانيتها ، هو << السبيل الوحيد إلى الاتصال بالحقّ >> [2] .

وثمّة عناصر مسيحية أخرى مثل إيثار الفقر والفقراء على الغِنى والأغنياء ، وتفضيل لباس الصوف ، والحلول ، والرهبنة التي ما هي إلا << انحراف في الحياة الروحية >> [3] ، بل بدعة شنيعة أنكرها القرآن الكريم بقوله : " وَرَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ .. " (الحديد : من 27)

كل ذلك يُكْبر الظن << أن الزهاد والصوفية المسلمين الذين تأثروا بحياة المسيح أو حياة الرهبان ، وضمّنوا أقوالهم عناصر نصرانية ، إنما جاؤوا في وقت متأخر عن الوقت الذي نشأت فيه الحياة الروحية الإسلامية لأول مرة في تاريـــــخ الإســـــــلام >> [4] .

وممّا تأثر به المتصوفة المسلمون المتأخرون الفلسفة الهندية ، وما حملتـــــه من أفكار . ولعل أهمها فكرة الحلول التي نجدها لدى المسيحيين من قبل ، ثم وحدة الوجود ووحدة الأديان [5] ، ونهاية فكرة الاتحاد والفناء ، وإسقاط الواجبات الدينية عند

---

[1] الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص20 .

[2] أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال ، تعليق : محمد جابر ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان ، د.ت. ، هامش ص56 .

[3] د. مقداد يالجن : فلسفة الحياة الروحية ، ص83 .

[4] محمد مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام ، ص49 .

[5] - يقول الحلاج في وحدة الأديـــــــان : << الأديان كلها لله عزّ وجلّ ، شغل بكل دين طائفة لا اختيارا فيهم بل اختيارا عليهم . فمن لام أحدا ببطلان ما هو عليه فقد حكم أنه اختار ذلك لنفســـــه ، =

الوصول إلى درجة معينة من الرقي الروحي [1] ، كما نلفيه عند فرقة الملامتية [2] .

وقد وجد أحد المستشرقين الفرصة سانحة للانقضاض على التصوف الإسلامي ، فاندفع في تلمس الأشباه والنظائر ، إلى حدّ المقارنة بين المظاهر والطقوس لـــــدى

= وهـــــــذا مذهب القدرية . والقدرية مجوس هذه الأمة .

واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة وأسام متغايـــــرة ، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف . ثم قـــــال :

تَفَكَّرْتُ فِي الْأَدْيَانِ جِدّاً مُحَقِّقاً ... فَأَلْفَيْتُهَا أَصْلاً لَهُ شُعَبٌ جَمّـــا

فَلاَ تَطْلُبَنَّ لِلْمَرْءِ دِيناً فَإِنَّـــهُ ... يَصُدُّ عَنِ الْأَصْلِ الْوَثِيقِ وَإِنَّمَا

يُطَالِبُهُ أَصْلٌ يُعَبِّرُ عِنْـــــدَهُ ... جَمِيعَ الْمَعَالِي وَالْمَعَانِي فَيَفْهَمَا >> .

(أخبار الحلاج : ص70)

- ويقول محيي الدين بن عربي :

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلاً كُلَّ صُورَةٍ ... فَمَرْعًى لِغِزْلاَنٍ وَدَيْرٌ لِرُهْبَانِ

وَبَيْتٌ لِأَوْثَانٍ وَكَعْبَةُ طَائِـــفٍ ... وَأَلْوَاحُ تَوْرَاةٍ وَمُصْحَفُ قُرْآنِ

أَدِينُ بِدِينِ الْحُبِّ أَنَّى تَوَجَّهَـتْ ... رَكَائِبُهُ ، فَالْحُبُّ دِينِي وَإِيمَانِي

(ترجمان الأشواق : دار صادر ، بيروت 1966 ، ص ص43 ، 44 .)

للإشارة فقد ترجمت هذه الأبيات << إلى كل اللغات الحية من شرقية وغربية ، وهي تدلّ على روح إنسانية عالية تحتضن سائر العوالم بالحب الذي لا ينضب معينه ، ولا يمنع من ورده أحد >> .

(عبد الله كنون : من مقاله " أدب الفقهاء " ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج2، مج41 ، ص ص253 ، 254)

[1] انظر : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص ص10-17 .

[2] نفسه : ص ص406-420 .

مؤسسها هو أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار المعروف بالقصار . وقد اشتهرت << بشدة الاهتمام بالحياة الباطنية ، والاتهام الدائم للنفس بالرياء لدرجة أنهم رأوا التزين بشيء من العبادات في الظاهر شركا .. ولهذا قالوا يجب إسقاط رؤية الأعمال ، وعدم إفشاء المعرفة أو الولاية اللتين يوقعهما الله على قلب عبـــــــــــده .. >> .

(فلسفة الحياة الروحية .. : ص108)

المتصوفة المسلمين ، وبين طقوس المسيحيين ، بل وفي تقرير التشابه بينهما [1] .

ومن المصادر اليونانية المبثوثة في التصوف الإسلامي : وحدة الوجود ، ونظرية الصدور ؛ << صدور الكائنات عن الله فيضا وإشراقا >> [2] .

ونظرية الوجود لدى اليونانيين قبل سقراط ، يؤكّد فيها أصحابها << عدم التفرقة بين الله والطبيعة ، فالطبيعة عندهم هي الله ، والله هو الطبيعة >> [3] .

وهو ما نجده تماما عند ابن عربي في قوله [4] : " سبحان من خلق الأشيـــــاء وهو عينهـــــا " .

وإذا كان واحد من الدارسين [5] يرى تأثر الفكر الصوفي بجملة من الأفكـــــار الأجنبية ، منها اليهودية ، فإن دارسا آخر كالأستاذ " عمر فرّوخ " [6] ينفي أن يكون لها تأثير في التصوف الإسلامي ؛ ذلك أن الدين اليهودي دين مادي .

كما لا يرى الباحث نفسه [7] المسيحية معينا يغرف منه التصوف الإسلامي ، وإنما هذه المصادر تُنسب ، حسبه ، إلى الفلسفة الهندية والفكر الصيني على وجـــه الخصوص ، والذي يُعدّ المرجع المحوري في الآراء التي شاعت في المسيحية والأفلاطونية الحديثة ، وفي التصوف الإسلامي أيضا .

---

[1] انظر : أسين بلاثيوس ، ابن عربي حياته ومذهبه ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي . وكالة المطبوعات ، الكويت ، دار القلم ، بيروت ، لبنان 1979 ، ص118 .

[2] فلسفة الحياة الروحية .. : ص89 .

[3] الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص29 .

[4] نفســـه : ص29 .

[5] نفســـه .

[6] انظر : التصوف في الإسلام ، بيروت ، ط1: 1947 ، ص37 .

[7] نفسـه .

ومهما يكن اختلاف هذه الآراء ، فإن ثمّة أفكارا دخيلة تعلّقت بالفكر الصوفي ، ساعدت على الغلوّ الذي حاد بالتصوف السّنّي المستلهم << من القرآن والحديث ، وآراء الصحابة والزهاد من المسلمين ، وهو التصوف الذي لا يتنافى مع دعوة الدين الإسلامي إلى الموازنة بين الحياة الدنيا وبين الآخرة >> [1].

[1] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص237 .

الفصل الثاني : مدح الشيوخ

سئل أبو مدين شعيب [1] عن الشيخ [2] فقال : << من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرّك بالتعظيم ، والشيخ من هذبك بأخلاقه ، وأدّبك بإطراقه ، وأنار باطنك بإشراقـــــــه >> [3] .

---

[1] حول حياته وآثاره ، ينظر :

- الغبريني : عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ت. ، ص ص55-65 .

- نفح الطيب:9/342-351 – نيل الابتهاج : ص ص127-129 – البستان لابن مريم : ص ص108-114.

- د. إبراهيم حركات : مقاله " الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب " ، مجلة الأصالة ، ع26 ، س4 : جويلية-أوت 1975 ، ص ص183-186 .

- عبد القادر خلادي : مقاله " أبو مدين الغوث " ، مجلة الأصالة ، ع26 ، س4 : جويلية-أوت 1975 ، ص ص284-295 .

[2] جاء في اللسان أن الشيخ هو << الذي استبانت فيه السن ، وظهر عليه الشيب ؛ وقيل : هو من خمسين إلى آخره ، وقيل : هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره ؛ وقيل : هو من الخمسين إلى الثمانين ، والجمع أشياخ وشيخان وشيوخ وشِيَخة ومَشيخة ومِشيخة ومشيوخاء ومشايخ .. وفي الحديث : ذكر شيخان قريش ، جمع شيخ كضيف وضيفان ، والأنثى شيخة .. وشيّخته : دعوته شيخا للتبجيل ؛ وتصغير الشيخ شُيَيْخ وشِيَيْخ أيضا ، بكسر الشين ، ولا تقل شويخ >> .

(لسان العرب : 4/2373 ، 2374)

بينما الشيخ في الاصطلاح الصّوفي هو << الذي سلك طريق الحق ، وعرف المخاوف والمهالك ، فيرشد المريد ويشير إليه بما ينفعه وما يضرّه ، وقيل الشيخ هو الذي يقرّر الدّين والشّريعة في قلوب المريدين والطالبين ، وقيل الشيخ الذي يحبّ عباد الله إلى الله ، ، ويحبّ الله إلى عباده ، .. وقيل الشيخ هو الذي يكون قدسي الذات فاني الصّفات ، وشرطه أن يكون عالما بكتاب الله وسنّة رسوله عليه السّلام ، وليس كل عالم بأهل للمشيخة ، بل ينبغي أن يكون موصوفا بصفات الكمال ، ومعرضا عن حبّ الدّنيا والجاه وما أشبه ذلك ، ويكون قد أخذ هذا الطريق عن شيخ محقق تسلسلت متابعته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وارتاض بأمره رياضة بالغة من قلّة الطّعام والكلام والمنام وقلّة الاختلاط مع الأنام .. >> .

(د. عبد المنعم الحفني : معجم مصطلحات الصّوفية ، ص143 .)

[3] نيل الابتهاج : ص129 .

وقد دافع السهروردي عن المشيخة [1] ، ورفع درجتها فقال : << ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ، ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله >> [2] .

فالشيخ ، إذن ، جليل الجانب ، عظيم المنزلة خلقا وروحا . وقد نال مدحه من شعرنا الملحون قدرا كافيا . وهو يدور ، أساسا ، حول فضائله ، والإشادة بعلمه وتقواه ، مع غلوٍّ ظاهر في ذكر أوصافه ، والتنويه بطريقته :

فها هو قدور بن عاشور يمدح العلاوي في قصيدة له هذا مطلعها :

صَعْدَتْ لِكْ رُوحِي مْخَفْقَا يَا نَعْمَ السُّلْطَانْ
وَحْوَاسَّ الْبَاطَنْ مْقَلْقَا تَطْلُبَ الْأَمَانْ [3]

وقبل هذا منظومة الغوثي البسطاوي التلمساني [4] ، وفيها دعوة صريحة ملحّة إلى طريقة العلاوي ..

وفي قصيدة العلاوي " بشراكم خلاني " [5] يشيد الشاعر بفضائل الشيوخ وأهل الطريقة ، ويبشرهم ، بداءة ، بالقرب ، وهو حال من أحوال التصوف ، وبأنهم في كنف الله ورحمته ، وذلك في قوله :

---

[1] هي << الدّلالة في الطريق ، ويُشترط لها أن يكون الصّوفي موصوفا بصفات الكمال ، ومعرضا عن حبّ الدّنيا والجاه وما أشبه ذلك ، ويكون قد أخذ هذا الطريق النقي عن شيخ محقق ، تسلسلت متابعته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وارتاض بأمره رياضة بالغة ، من قلّة الطّعام والكلام والمنام ، وقلّة الاختلاط مع الأنام ، وكثرة الصّوم والصّلاة والصّدقة ونحو ذلك ، وبالجملة يكون متخلّقا بخلق النبي عليه السّلام >> .
(معجم مصطلحات الصّوفية : ص245 .)

[2] عوارف المعارف : ص83 .

[3] عبد الله البيضاوي : مطلع اليقين في مديح الإمام المبين . المطبعة العلوية بمستغانم 1941 ، ص08 .

[4] نفسه : ص ص14 ، 15 .

[5] ديوان العلاوي : ص ص17-20 .

بُشْرَاكُمْ خِلاَّنِي بَالْقُرْبْ وَالتَّدَانِي
جَمْعُكُمْ فِي أَمَانْ مَا دُمْتُمْ فِي حَزْبَ اللهْ
بُشْرَاكُمْ سَادَتِي بُشْرَاكُمْ أَحِبَّتِي
بَشَّرْتُكُمْ بِالْأَتِي أَنْتُمْ فِي رَحْمَةِ اللهْ

ويبرّر العلاوي اجتماع الإخوان بما فيه من الرحمة والحكمة بقوله [1] :

جَمْعُكُمْ عَيْنَ الرَّحْمَه جَمْعُكُمْ فِيهِ حَكْمَه
وَمَنْ حَبَّكُمْ سَمَا عَلَيْكُمْ رَضْوَانَ اللهْ

وقد عزا السهروردي ذلك إلى عنصر نفسي يُعرف ، في علم النفس ، بالمشاركة الوجدانية ، وذلك في قوله :

<< وقد قيل لقاء الإخوان لقاح ، ولا شك أن البواطن تتلقح ويتقوّى البعض بالبعض ، بل بمجرّد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا ، والنظر في الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، ودوام النظر إلى المسرور يسر >> [2] .

وتُعدّ أماكن الاجتماع << النواة الأولى التي نشأت عنها الطرق الصوفية ؛ فقد أدّى اجتماع المتعبّدين في مكان واحد إلى تنظيم شئون هذه الجماعة للقيام بعبادات جماعية ، والخضوع لشيخ يشرف على أداء الجماعة >> [3] .

إن مريدي هذه الطرق ، كما أسلفنا الذكر ، يخضعون خضوعا تامّاً لسلطة الشيخ ، يأتمرون بأوامره ، وينتهون بنواهيه .

---

[1] المصدر السابق : ص17 .

[2] عوارف المعارف : ص270 .

[3] عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي .. ، ص61 .

وهم أنواع أربعة : السالك المجرد القائم بالمجاهدة والرياضة فقط ، والمجذوب المجرّد ، وهو الذي ينعم الله عليه بألوان من المكاشفات ، لا لاجتهاده في عمله ، ولكن مَنّاً مِن الله ونعمـــــــة .

والسالك المتدارك بالجذبة هو المتصف بالمجاهدة والعبادة ، والواصل إلى رؤية الحق عن طريق المكاشفات . وثمّة المجذوب المتدارك بالسلوك ، وهو الذي يكشِـــف الله عن قلبه الحجب دون مجاهدة ولا رياضة ، فيصل إلى ما لم يصل إليه المجاهدون العابدون ، ثمّ يفيض باطنه على داخله ، فتسري عليه صور المجاهدة باطمئنـــان وارتياح دونما عنت ولا مكابدة [1] ، وذلك هو قول الشاعر [2] :

مَنْكُمْ سَالَكٌ وْمَجْذُوبْ مَنْكُمْ حَبِيبٌ وْمَحْبُوبْ

عَنْكُمْ زَالَتَ الْحُجُبْ فِيكُمْ مَنْ وَحَّدَ اللهْ

فِيكُمْ شُمُوسَ الطَّرِيقْ فِيكُمْ رِجَالَ التَّحْقِيقْ

مَنْكُمْ فَانِي وَعَشِيقْ فِيكُمْ مَنْ عَرَّفَ اللهْ

فِيكُمْ رِجَالَ الصُّدُورْ فِيكُمْ أَرْبَابَ الْحُضُورْ

مَنْ زَالَتْ عَنْهُ السُّتُورْ لَا يَرَى مَا سِوَى اللهْ

ويحيلنا العلاوي على مسألة تطالعنا في مواطن مختلفة : وهي إذنُ الشيخ للمريد بالمشيخة أو تبشيره بها ، خاصة بعد وفاته . ويكون في المنام ، كما هو الشأن بالنسبة لعدّة بن تونس حين طلب ذلك إلى شيخه العلاوي ، بقوله [3] :

تَلْمِيذَكْ قَايَلْ ذَا النْظَامْ نَطْلُبْ مَنَّكْ تَصْغَى لِي

بَشَّرْنِي وَلَوْ فَالْمَنَـــامْ نَفْرَحْ يَتْسَلَّى بَالِـــي

---

[1] انظر : عوارف المعارف ، ص ص87-90.

[2] ديوان العلاوي : ص ص17 ، 18 .

[3] ديوان عدّة بن تونس : ص12 .

ويأتي الجواب بالإيجاب ، وتأتي البشرى بالمقام العالي في قوله [1] :

بُشْرَايَ عَنْ أَحْمَدْ الْعَلاَوِي قُطْبَ الْهُدَى
وَإِمَامَ السَّعَـــــدَا أُسْتَاذَنَا سِيدِي أَحْمَدْ
رَأَيْتُه فَالْمَنَـــامْ فِي أَحْسَنْ مَا يُـــرَامْ
قُلْتُ لَه يَا إِمَـــامْ هَلْ لَنَا مَنْكُمْ سَنَـــدْ
قَالَ بْهَذَا اللَّفْـظْ فَفِي اللَّوْحِ الْمَحْفُـوظِ
رَأَيْتُكَ بْلحْظِـــــي وَأَمْرُه لَا يُـــــرَدْ
بِفَضْلِهِ خَصَّصَكْ فِي لَوْحِهِ كَتَبَـــكْ
فِي مَقَامِي أَقَامَـــكْ أَنْتَ الْوَارِثَ الْأَمْجَدْ

بل إن هذه البشرى قد تصدر عن الرّسُول (ص) ذاته ، كما هي الحال لدى العلاوي حين قـــــال [2] :

فَلَنَا الإِذْنُ سَابِقَاً وَالْيَوْمَـــا بِنَشْرِ مَا خُفِيَ عَنِ الْعَـوَامْ
مَن رَّسُولَ اللهْ كَانْ يَا قَوْمَا إِذْ قَال لِيّ بُشْرَاكَ يَا غُـلاَمْ

وليس من المستبعد أن يكون ذلك راجعا إلى اهتمام الصوفية بتواتر مذهبهـــــم إلى شخص النبي (ص) ؛ فهم يزعمون أن تواتر شيوخهم يصله (ص) .

وأقدم أسانيدهم ، في ذلك ، إسناد الخُـلْـدي (ت:348هـ) المؤلف من : الجنيد (7) ، السقطي (6) ، معروف الكرْخي (5) ، فرقد (4) ، الحسن البصـــــــري (3) ، ثم أنس بـن مالك (2) [3] .

---

[1] المصدر السابق : ص22 .

[2] ديوان العلاوي : ص46 .

[3] انظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص183 .

وجاء الدقاق (ت:405هـ) بعد الخُلدي بعشرين عاما ، فذكر شيوخه بترتيب الخُلدي ، ولم يختلف معه إلا في ترتيب الكرْخي قبل داود الطائي (4) [1] .

وثمّة إسناد عليه الجمهور ، تحدّدت طبقاته في القرن السابع الهجـــــــري : << وهو الإسناد الذي أخذت به جميع الطرق الدينية الكبرى : ويأتي فيه ، بعد الجنيد (7) ، الروذباري (8) ، وأبو علي الكاتب أو الزجاجي (9) ، والمغربي (10) ، والكركاني (11) ، ثمّ يأتي قبل داود الطائي (4) حبيب العجمي (3) ، والحســـــن البصري (2) ، وعلي (1) >> [2] .

ويُسند المتصوفة علم التصوف إلى النبي (ص) ، كما ذكرناه سابقا ، عبر سلسلة معيّنة . ومن ذلك رواية القاضي ابن عجيبة ، ومفادها أن علياً (ض) أخذ التصوف عن الرسول (ص) ، وأخذه عن علي الحسنُ البصري ، وأخذه عن الحسن حبيب العجمي ، وأخذه عن حبيب أبو سليمان داود الطائي (ت:160هـ) ، وأخذه عن داود معروف الكرْخي ، وأخذه عن معروف أبو الحسن سري السقطـــــي (ت:251هـ) ، وأخذه عن أبي الحسن أبو القاسم محمد بن الجنيد (ت:297هـ) الذي صحب الشافعي وخاله السقطي وأبا حارث المحاسبي ، ثمّ انتشر التصوف بين أصحابه [3] .

وليس عبثا أن تبدأ هذه السلسلة بعلي (ض) ؛ فقد نسب السراج إلى أبي القاسم الجنيد أنه قال عنه (عن علي) : << لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معاني كثيرة ، فذاك امرؤ أُعْطِيَ العلم اللـّـدني >> [4] .

---

[1] انظر : الرسالة القشيرية ، ص158 .

[2] ماسينيون : التصوف ، ص45 .

[3] انظر : ابن عجيبة (أحمد بن محمد) ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ط01: د.ت. ، ص ص05 ، 06 .

[4] اللمـــــع : 179 .

وقال عنه السراج نفسه : << وله خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله (ص) بمعان جليلة ، وإشارات لطيفة ، وألفاظ مفردة ، وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم وغير ذلك ، وخصال شريفة ، تعلّق وتخلّق به أهل الحقائق من الصوفيـــــة >> [1] .

وقد تحدّث بعض شعراء الملحون ، ممّن يندرجون في هذا البحث ، عن الإسناد ، وأوصلوه عليا (ض) ، فالنبي محمدا (ص) ، كما فعل الأوائل . وقد تمثّلـــــوه في منظومات مطوّلة ، من ذلك منظومة العلاوي " أيا ربّ سألناك النجاة " [2] التي يقول في فاتحتهـــــا :

أَيَا رَبّ سَأَلْنَاكَ النّجَـــــاةِ
بِأَهْلِ السّلْسِلَةِ يَا ذَا الْمِنّـــــةِ

حتى ينتهي إلى قولـــــه :

اِحْفَظْنَا يَا رَبّ فِي سَرّها كَمَـــا
أَخَذْنَا مِنْ سَادَتِنَا الْكِرَامَـــــا
أَوّلُهُمْ مُتّصِلُ الشّـــــرَابِ
مَنْ بِهِ صَحّ وَصِلِي وَاقْتِرَابِـــي
عَلَيْهِ الرّضَا يَا رَبّ كَذَا الْمَزِيدْ
الْبُوزَيْدْ مُحَمّدْ أَهْلٌ لِلتّمْجِيـــــدْ
سَأَلْنَاكَ يَا رَبّ بِهِ تَحْفَظْنَـــــا
عَنْ بَابِكَ يَا مَوْلَانَا لَا تَطْرُدْنَـــا

---

[1] المصدر السابق : ص179 .

[2] ديوان العلاوي : ص ص102-105 .

وَبِشَيْخِهِ مَنْهَلِ التَّبْجِيـــــــلِ
الْمُكَنَّى بِالْيَتِيمِ الوَكِيـــــــلِ
مُحَمَّدُ الْقَدُّورِي مُفِيضُ الشَّرَابْ
اسْلُكْ بِنَا يَا رَبِّ سَبِيلَ الصَّوَابْ
وَبِشَيْخِهِ نَرْتَجِي الْفَـــــرَجْ
وَلِيِّنَا أَبِي يَعْـزَى الْمَهَاجِـــــي
بِحَقِّ مَوْلاَيَ الْعَرَبِي الدَّرْقَاوِي
اِحْفَظْنَا يَا إِلَهِي مِنَ الدَّعَـــاوي
وَبِشَيْخِهِ احْفَظْنَا مِنَ الْخَلَـــلْ
الْمُسَمَّى عَلِي مَعْرُوفاً بِالْجَمَـلْ
سَأَلْنَاكَ يَا رَبِّ بِإِسْنَـــــادِهْ
الْعَرَبِي بَنْ عَبْدَ اللهْ وَبِأَبِيـــــهْ

وهكذا ، وعبر سلسلة طويلة بلغت واحدا وأربعين اسما ، يُنهي الناظم إسناده بقولـــــه [1] :

الْحَسَنُ يَنْبُوعُ الْحَقَائِـــــقْ
فَرْعَ النُّبُوَّةِ وَكَهْفَ الْوَثَائِـــقْ
بِأَبِيهِ وَشَيْخِهِ صَنْوِ الرَّسُـــولْ
هُوَ بَابُ الْوِلاَيَةِ أَصْلَ الْأُصُولْ
أَخَذَهَا مِنْ عَيْنِهَا الْجَارِيَـــــهْ
مِنْ فَيْضِ الْمُصْطَفَى لَهُ مُزَيَّـــهْ

---

[1] المصدر السابق : ص105 .

وإسناد العلاوي كاملا ، بترتيب تنازلي ، كما ورد في منظومته ، مشكّل من الآتية أسماؤهـــــــم :

البوزيد محمد (41) ، محمد القدوري (40) ، أبو يعزى المهاجي (39) ، العربـــــي الدرقاوي (38) ، علي (المعروف بالجمل) (37) ، العربي بن عبد الله (36) ، أحمـــد الثابت (35) ، قاسم الخصّاصي (34) ، محمد بن عبد الله (33) ، عبد الرحمـــــان الفاسي (32) ، الفاسي يوسف (31) ، عبد الرحمان المجذوب (30) ، علـــــــي الصنهاجي (29) ، إبراهيم المكنّى بالفحّام (28) ، أحمد الزّروقي (27) ، أحمد بـــن عقبة الحضرمي (26) ، القادري يحيى (25) ، علي بن وفا (24) ، محمد أبوعلي بـن وفا (23) ، داود بن باخلي (22) ، ابن عطاء الله (21) ، أبو العبّاس المُرسي (20) ، أبو الحسن الشاذلي (19) ، المشيش (18) ، عبد الرحمان المدني (17) ، تقـــــي الدين (16) ، فخر الدين (15) ، نور الدين محمد (14) ، تاج الدين نور الهدى (13) ، شمس الدين (12) ، القزويني (11) ، إبراهيم البصري (10)، المروانـــــي (09) ، سعيد (08) ، يسعد (07) ، فتح السّعود (06) ، الغزواني (05) ، جابر (04) ، الحســن (03) ، علي (ض) (02) ، المصطفى (ص)(01) .

وثمّـة منظومة أخرى في الموضوع نفسه [1] ، لمحمد البوزيدي ، يستهلّها ، بعد الحمدلة والصلاة والسلام على النبي (ص) ، بقولـــــــــــه :

فَهَذِهِ سِلْسِلَةِ طَرِيقَتِـــــــي
وَمَا لَهَا مِنْ أَرْكَانِ التَّحْقِيـــــق
ذَكَرْتُهَا بِحَسَبِ التَّرَقِّـــــي
بِإِسْنَادِ الرِّجَالِ أَهْلِ الشَّـــــوْقِ

---

[1] ديوان البوزيدي : ص ص137-141 .

أَوَّلُهُمْ شَيْخُنَا الْكَامِـــــــلُ
مُحَمَّدُ بْنُ قَدُّورَ الْوَكِيـــــــلُ
عَنْ شَيْخِهِ أَبِي عَزَّةَ الْمَهَاجِي
مِن نَّسْلِ الْهَادِي صَاحِبَ الْمِعْرَاجِ
عَنْ شَيْخِهِ مَوْلَايَ الْعَرْبِـــي
بْنِ احْمَدَ الدَّرْقَاوِي الْمُرَبِّـــــي
ثُمَّ عَنْ مَوْلَى عَلِي الْجَمَـــلْ
هُوَ الْقُطْبُ الشَّرِيفُ الْكَامِـــــلْ

وهكذا كتلميذه ، وعبر سلسلة طويلة أيضا ، بلغت أربعين اسما ، يُنهي الناظم إسناده بقولـــــــــه [1] :

ثُمَّ إِلَى الْحَسَنِ الْقُطْبِ الزَّاهِـــدِ
فِي الْمُلْكِ بُرْهَانٌ لَهُ شَوَاهِـــــدِ
عَنِ الْقُطْبِ الْأَكْمَلِ جَمْعِ الْجَمِيعِ
وَبَرْزَخِ الْبِحَارِ أَهْلَ النَّفْـــــعِ
لَهُ الْجَزَا بَالرِّضَا وَالرِّضْـــوَانِ
آلٍ وَصَحْبٍ شَمْسِ الْعَرْفَـــــانِ
سَيِّدُنَا عَلِي الْأَمِيـــــــرُ
وَصَهْرُ الْمُصْطَفَى بِذَا خَبِيـــرُ
ثُمَّ عَنْ مُحَمَّدٍ وَاسِطَ الْوُجُـــودِ
فَلَوْلَاهُ مَا بَدَا مِنْ وُجُـــــودِ

---

[1] المصدر السابق : ص141 .

وإسناد البوزيدي تامّاً ، بترتيب تنازلي كما جاء في منظومته ، مؤلّفٌ من الأسماء الآتي ذكرهـــــــا :

محمد بن قدور الوكيل (40) ، أبو عزة المهاجي (39) ، مولاي العربي بن أحمـــد الدرقاوي (38) ، علي الجمل (37) ، العربي بن أحمد (36) ، أحمد بن عبد الله (35) ، أبو السعيد اليماني (34) ، أبرّقان (33) ، قاسم الخصّاصي (32) ، محمد بن عبد الله الفاسي (31) ، عبد الرحمان (30) ، يوسف الفاســـي (29) ، أبو الفضـــــــل الصنهاجي (28) ، الفحّـام (27) ، أبو محمد أحمد الزرّوقي (26) ، أبو محمد أحمد ابن عقبة (25) ، يوسف القدير (24) ، علي بن وفا (23) ، محمد أبو علي بـــــن وفا (22) ، داود بن باخلي (21) ، أحمد بن عطاء الله (20)، الصمداني المُرْسِي (19) ، الشّاذلي (18) ، عبد السّلام بن مشيش (17) ، العطّار الزيّات (16) ، تقي الديـــن الصّوفي (15) ، فخر الدين (14) ، نور الدين أبو الحسن علي (13) ، محمد تـــاج الدين (12) ، محمد شمس الدين (11) ، زين الدين القزويني (10) ، أبو إسحـــــاق المرْويني (09) ، سعيد (08)، سعد (07) ، محمد فتح السّعود(06)، الغزواني (05) ، محمد جابر (04) ، الحسن (03) ، علي (02) (ض) ، محمد (01) (ص) .

ويذكّرنا النصان السابقان بمنظومة سيد الشيخ [1] الفصيحة ، والمشهـــــــورة بالياقوتة [2] التي يقول في فاتحتهـــــــا :

---

[1] هو عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة (ت:1025هـ) . عُرف باســـــــــــم " سيد الشيخ " في الجنوب الغربي للجزائر ، من جبال القصور إلى قرارة وتوات . ويسمّى الآن خلفه : أولاد سيـــــدي الشيـــــــــخ ..

(انظر : مختار حبار ، ملحق رسالته للدكتوراه ، ص ص14-19)

[2] مختار حبار : ملحق رسالته للدكتوراه ، ص ص20-38 .

إن هذه المنظومة معروفة لدى الناس باسم القصيدة ، كما ورد في مطلعها ، بينما عُرفت عند الشاعر =

بَدَأْتُ بِحَمْدِ اللهِ قَصْداً لِنُجْحِ مَـــا

أَرُومُ مِنِ اسْتِفْتَاحِ نَظْمِ الْقَصِيـــدَةِ

إلى أن يصل إلى قولـــــــــه [1] :

فَمِنْ شَيْخِنَا عَنْ شَيْخِهِ عَنْ شُيُوخِهِ

تَسَلْسَلَتِ الْأَشْيَاخُ أَهْلُ الْعِنَايَـــــةِ

كَذَا نِسْبَةُ الْأَبْرَارِ وَصَفْوَةُ الْمَـلاَ

لَهَا شَرَفٌ يُـنْـمَى لِعِزٍّ وَرِفْعَـــــةِ

فَأَوَّلُهُمْ فِي الذِّكْرِ شَمْسُ وُجُودِنَـا

وَقُطْبُ نُهَى عُلُومِنَا اللـَّدُونِيَـــــةِ

إِلَيْهِ انْتَهَتْ رِئَاسَةُ الْقَوْمِ فَارْتَقَى

عَلَى صَهَوَاتِ الْمَجْدِ مِنْ غَيْرِ مِرْيَةِ

أَبُو عَابِدِ الْإِلَهِ يُسَمَّى مُحَمَّـــداً

إِلَى عَابِدِ الرَّحْمَنِ يُعْزَى فِي نِسْبَـــةِ

وحتى يصل إلى قوله أيضا [2] :

إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ الذِي فَاقَ نُورُهُ

نُجُومَ الدُّجَى وَنُورَ كُلِّ مُنِيـــرَةِ

إِلَى سَيْفِ رَبِّنَا الْمُهَنَّدِ لِلْعِـــــدَا

وَبَابِ مَدِينَةِ الْعُلُومِ الْجَلِيلَـــــةِ

= بالياقوتة ، وذلك في قولـــــــه :

وَسَمَّيْتُهَا الْيَاقُوتَ رِفْعاً لِقَدْرِ مَا تَسَلْسَلَ فِيهَا مِنْ أَشْيَاخٍ عَدِيدَةِ

(انظر : مختار حبار ، ملحق رسالته للدكتوراه ، ص20)

[1] المرجع السابق : ص ص32 ، 33 .

[2] نفســـه : ص ص37 ، 38 .

أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ صِهْرِ نَبِيِّنَـــــا

عَلَيْهِ رِضَاءُ اللهِ فِي كُلِّ لَمْحَـــةِ

إِلَى تَاجِ مَنْ أَوْفَى الْقِيَامَةَ جُمْلَـــةً

وَنُورُهُ عَيْنُ الْكَوْنِ مِنْ دُونِ مِرْيَةِ

مُحَمَّدٍ الْهَادِي إِلَى النَّاسِ رَحْمَـــةً

وَمَعْدِنَ أَسْرَارٍ ، وَعُنْصُرَ نِعْمَـةِ

وفي قصيدته " يَا سُكَّـانَ الْحَشَا " [1] يتحدّث الناظم عن العارفين بوصفهم طبقة متميّزة ، وعن علاقتهم بالمشاهدة ، واقتضاء اعتزالهم عن الناس خواصّهم وعوامّهم . ولهؤلاء خصيصة في صلاتهم : حيث ولّـوا وجوههم فثمّ الذات الإلهية المقدّسة . قال تعالى : " فَأَيْنَمَا تُوَلُّـوا فَـثَـمَّ وَجْهُ اللهِ " (البقرة : من 115) .

يقـــــــــول [2] :

كَذَا الْعَارِفُونَ إِنْ بَدَتْ لَيْلَـى [3]

---

[1] ديوان العلاوي : ص ص42 ، 43 .

[2] نفســـه : ص43 .

[3] ليلى رمز للذات الإلهية ، وقد تكون رمزا للحقيقة المحمدية .

والرمز هو << ما أخْـفِي من الكلام ، وأصله الصوت الخفي الذي لا يكاد يُفهم ، وهو الذي عناه الله عزّ وجلّ بقوله : " قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً . قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً >> .

(قدامة بن جعفر (أبو الفرج) : كتاب نقد النثر . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 1982 ، ص61)

والاقتباس في نص قدامة من : سورة آل عمران ، من الآية 41 .

ليس بالضّرورة أن تكون " ليلى " فقط رمزا غزليا يستخدمه الشاعر ، ولكنّ اسما كَـلُـبْـنَـى يصادفنا بغتة . وليس عجيبا ؛ فللشُّعراء << أسماء تخفّ على ألسنتهم وتحلو في أفواههم ، فهم كثيرا ما يأتون بها زورا نحو : ليلـــى ، وهند ، وسلْمى ، ودعْد ، ولبنى ، وعفراء ، .. وأشباههنّ .

ولذلك قال مالك بن زغبة الباهلي : أنشده الأصمعـــــــي : =

لَمْ يَبْقَ فِي الْكَوْنَيْنِ مِنْ إِيهَـــامْ
ظُهُورُهَا يَقْتَضِي لَهُمْ عَزْلَـه
عَنِ الْخَوَاصِّ وَعَنِ الْعَـــوَامْ
مَقَامُهُمْ مُنَزَّهٌ فِي الْجُمْلَـــه
وَحَالُهُمْ يُغْنِي عَنِ الْكَـــلاَمْ
وَفِي صَلاَتِهِمُ الْكُلُّ قِبْلَـــه

=وَمَا كَانَ طِبِّي حُبَّهَا غَيْرَ أَنَّـــهُ
يُقَامُ بِسَلْمَى لِلْقَوَافِي صُدُورُهَـا

وأما عزّة وبثينة فقد حماهما كثيّر وجميل ، حتى كأنّما حُرِّما على الشّعراء ..

وربّما أتى الشّعراء بالأسماء الكثيرة في القصيدة إقامة للوزن ، وتحلية للنسيب >> .

(معنى طبي في البيت : عادتي وسجيتي)

(ابن رشيق : االعمدة ، ج2 ، حققه وعلق حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان ، ط05: 1981 ، ص ص 121 ، 122)

يقول أحد شعراء الصّوفية :

أُسَمِّيكِ لُبْنَى فِي نَسِيبِي تَـــارَةً وَآوِنَةً سُعْدَى وَآوِنَةً لَيْلَـــى
حِذَاراً مِنَ الْوَاشِينَ أَنْ يَفْطِنُوا بِنَـا وَإِلاَّ فَمَنْ لُبْنَى فَدَتْكِ وَمَنْ لَيْلَى

(الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء ، ج3 ،
منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان 1961 ، ص106)

ومهما يكن ، فإن العلاوي أو غيره ، سواء أاستخدم ليلى أم لبنى ، فإن إحالته عليهما صوفية ، وتعني الذات الإلهية أو الحقيقة المحمدية ، ولكن المعالجة ليست بالعمق الذي توارثناه عن القدامى .

لنر ذلك في قولـــه :

تَيَّهْتِنِي لُبْنَـــى بِلَثْمِ لِثَـــامْ
بِوَصْلِهَا حُزْتَـــا مَا حَوَى كَـــلاَمْ
قَدْ جَاوَزْنَا عَدْنَـــا وَحُورَ الْخِيَـــامْ

(ديوان العلاوي : ص69)

حَيْثُ تَوَجَّهُوا تَمَّ الْمَـــــرَامْ

إن جنوح الصوفي ، في حبّه الإلهي ، للغزل الإنساني يعود إلى الرغبة في استرعاء الأسماع ، و استمالة النفوس التي ترتضي ، بطبعها ، ذلك .

يقول ابن عربي : << وجعلت العبارة في ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات فتتوافر الدواعي على الإصغاء إليها ، وهو لسان كل أديب ظريف روحاني لطيف >> [1] .

أما جنوحه للأسلوب الرمزي قناعا يستر به أموره التي يرغب أن يكتمها فراجع إلى رغبة طبيعية << عند قوم يدّعون أنهم خُصّوا دون غيرهم بمعرفة الباطـــــن . وفوق ذلك فإن التصريح البيّن بما يعتقدون لعلّـه أن يهدّد حريتهم بل حياتهـــــــم . فإن تركنا جانبا كل هذه الدوافع ، فالصوفية قد اصطنعوا الأسلوب الرمزي ، لأنهم لم يجدوا طريقا آخر ممكنا يترجمون به عن رياضتهم الصوفية ، والعلم بخفايا عالم الغيب المجهول الذي ينكشف في رؤيا جذبية .. ليس في الطوق تبيانه ، دون اللجوء إلى صور ومشاهدات منتزعة من عالم الحسّ . وهذه الصور والأمثال ، مع أنها ليست خالصة الصدق ، تكشف عن معان ، وتوحي بصور أعمق ممـّا يبدو على ظاهرها >> [2] .

ذلك أن << أن المعاني الحسية التي يستعملها الصوفيون في الدّلالة على المعاني الروحية يرمزون بها إلى مفاهيم وجدانية على الرغم من الرداء المادي الذي تبدو فيه ، ومن ثمّ استعمل الصوفيون الوصف الحسّي والغزل الحسّي والخمر الحسية وأرادوا بها معاني روحية >> [3] .

---

[1] ذخائر الأعلاق : شرح ترجمان الأشواق ، المطبعة الأنسية ، بيروت 1312هـ ، ص05 .

[2] نيكلسون : الصوفية في الإسلام ، ترجمة : نور الدين شريبة ، نشرمكتبة الخانجي 1951 ، ص105 .

[3] د. محمد عبد المنعم خفاجي : الأدب في التراث الصّوفي ، مكتبة غريب ، د.ت. ، ص182 .

وإذا كان الصوفية يستعملون ألفاظا ، بمثابة الرموز فيما بينهم ، يقصدون بها معاني بعينها ، لا يفهمها غيرهم ، غيرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أصحابها ، - إذا كانوا كذلك – فإن الفقهاء لم يكونوا متّفقين معهم حول ذلك ؛ فقد رُوي لأحمد بن حنبل عن سري السقطي أنه قال : << إن الله عزّ وجلّ لما خلق الحروف سجدت الباء . فقال ابن حنبل : نقّروا الناس عنه >> [1] .

ولكن ذلك لا يعني أن الفقهاء لم يفهموا منهج الصوفية في التأويل والتفسير ، ولكنهم خافوا على النصوص من أن تخرج عن سياقها الطبيعي ، ودلالتها الظاهرة ، ما يجعل مسائل الدين والشرع عرضة للتحريف والزيغ [2] .

وكما للأعداد ، عند الصوفية ، رموز ، فإن للحروف ، أيضا ، رموزا ودلالات ، من منطلق الاستخدام الذي يخضع لأحد منهجين :

أولا- قرآني : استخدمه القرآن الكريم في فواتح بعض السور ، أمثال " ألم " ، " ألر " ، " كهيعص " ، .. بيد أن الفقهاء يرون ذلك توقيفا من الله تعالى ، لا مجال فيه للتأويل والتفسير .

ثانيا- غنوصي [3] : يتصل بالفيثاغورية التي تجعل لكل حرف صفاتٍ ودلالاتٍ خاصّة به . ومن ذلك أن نقطة (الباء) هي نقطة الوجود أو مركز الكون عند الصوفية .

---

[1] ابن الجوزي : تلبيس إبليس أو نقد العلم والعلماء ، طبعة القاهرة 1340هـ ، ص180 .

[2] ومع ذلك ، نسجّل ، هنا ، جهود سهل التستري (ت:283هـ) في تقريب التفاهم بين الفقهاء والصوفية ؛ لأنه كان << أحرص الناس على أن تكون رسالة التصوف خالية نقية من الكلمات المُجنّحة التي تحتمل التأويل ، وتفتح أبواب الجدل ، وعلى أن يلتزم الصوفية في مواجيدهم وأذواقهم حرفية الكتاب والسنة >> .
(د. محمد عبد المنعم خفاجي : الأدب في التراث الصوفي ، هامش ص57)

[3] من الغنوصية (Gnosticisme) : << نزعة فلسفية دينية تهدف إلى إدراك كنه الأسرار الربانية >> .
(د. سهيل إدريس ، المنهل ، قاموس فرنسي عربي ، دار الآداب ، بيروت ، ط20: 1998 ، ص581)

يقول الشُّشْتَـــــــــــري [1] :

نُقْطَةُ الْبَاءِ - كُنْ – إِذَا شِئْتَ تَسْمُو

أَوْ فَـدَعْ ذِكْرَ قُرْبِنَا يَا مُوَلَّـــهْ

ومن غريب ما قيل حول فواتح السور مثل " ألم " ما ذهب إليه زكي مبارك من أنها (أي " ألم ") << تُـنْطق هكذا عند الترتيل : (ألف. لام. ميم) ؛ فهي ليست رمزا كتابيا ، ولكنها رموز صوتية . ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية . ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همِّه أن يخالف الجاهليين في كل شيء حتّى في الأصوات الموسيقية . فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون متابعة لبعض ترانيـــــم الجاهليين >> [2] .

وعلى كلّ ، فقد حاول السراج الطوسي فكّ ما استُغْلق فهمه على الفقهاء ، وذلك من حيث << إن جميع ما أدركته العلوم وألحقته الفهوم ، ما عبّر عنه وما أشير إليه ، مستنبط من حرفين من أول كتاب الله وهو قوله : " بسم الله ، والحمد لله " : لأن معناه بالله ولله . والإشارة في ذلك : أن جميع ما أحاط به علوم الخلق وأدركته فهومهم فليست قائمة بذواتها ، وإنما هي بالله ولله >> [3] .

وقد سئل الشبلي عن معنى الإشارة في حرف الباء من " بسم الله " ، فقال : << أي بالله قامت الأرواح والأجساد والحركات ، لا بذواتها >> [4] .

---

[1] ديوان أبي الحسن الششتري ، تحقيق : النشار ، طبعة الإسكندرية 1960 ، ص58 .

[2] النثر الفني في القرن الرابع ، ج1 ، طبعة القاهرة 1934 ، هامش ص141 .

[3] اللمع : ص124 .

[4] نفسه .

وقيل لأبي العباس بن عطاء : << إلى ماذا سكنت قلوب العارفين ؟ فقال : إلى أول حرف من كتابه وهو الباء من " بسم الله الرحمن الرحيم " ، فإن معناه أن بالله ظهرت الأشياء ، وبه فنيت ، وبتجلّـيه حسُنت ، وباستتاره قبُـحت وسمجت ، لأن في اسمه " الله " هيبته وكبرياءه ، وفي اسمه " الرحمن " محبـّته ومودّته ، وفي اسمه " الرحيم " عونه ونصرته >> [1] .

وبعد ، فإن فهم هذه الحروف وتأويلها قائم لدى الصوفية على قدر المحبة وصفاء الذكر ؛ فهذا أبو سعيد الخرّاز (ت:147 أو 277 أو286هـ) ، وهو من مشاهير صوفية بغداد ، وصاحب كتاب " التصوف والصدق أو الطريق إلى الله "،يقـــــــــــول :

<< كلما بدا حرف من الأحرف من كتاب الله عزّ وجلّ على قدر قربك وحضورك عنده ، فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر ، فإذا سمعت بقوله : " ألم ذلك " ؛ فللألف علم يظهر في الفهم غير ما يظهـــــــــر اللام ،

وعلى قدر المحبة ، وصفاء الذكر ، ووجوب القرب يقع التفاوت والفهم >> [2] .

وإذا كان للأعداد رموز ، كما ذكرناه سابقا ، فإن الواحد ، مثلا ، رمز على الإله ، كما أن العدد رمز على مخلوقات العالم بوصفها كثرة وتبعيضا وتركيبا. وتفصيل هذا العالم يظهر الواحد فيه في مراتب مختلفة..

وقد صاغ لنا ابن عربي هذه البنية بقولـه : << .. ظهرت الأعداد بالواحد في المراتب المعلومة ، فأوجد الواحد العدد ، وفصل العدد الواحد ، وما ظهر حكم العـــــــدد إلا بالمعدود .. فلا بدّ من عدد ومعدود، ولا بدّ من واحد ينشئ ذلك فينشـــــــــــــأ

---

[1] المصدر السابق : ص124 .

[2] نفســـــــــه : ص ص124 ، 125 .

بسببه >> [1] ؛ ما يُفضي إلى استقلال الواحد عن الأعداد ، فالاثنان إنما هو واحد ، وكذلك الثلاثة والأربعة ، وهكذا إلى ما لا نهاية لـــــــه ..

لنرَ ذلك ، مثلا ، في الأعداد الآتية :

1+1=2

1+1+1=3

1+1+1+1=4

نحاول ، بعد هذه اللمحة الموجزة ، التعريف بالرّمز الشعري لدى الصّوفية ، والعودة إلى قصيدة العلاوي التي بدأنا تحليلها وهي"يَاسُكَّانَ الْحَشَا " فنقول إن الشّاعر بعد أن خصّ ممدوحيه بمقام المشاهدة [2] عن طريق تولية وجوههم في الصلاة نحو القِبلة ، بوصفها كلاً مكانيا ، يسير في فلك المدح نفسه معليا من شأنهم الذي ذلّ له الجميـــع ، وذلك في قولـــــه [3] :

وَفِي شَرَابِهِمُ الْمُرُّ يُحْلَـــى

وَفِي نُطْقِهِمْ عَسَلٌ وَاخْتِتَـــامْ

وَلِعِزَّتِهِمُ الْكُـــــــلُّ ذَلاَّ

وَفِي حَضْرَتِهِمُ الْحَـــــقُّ دَامْ

بل إن لهؤلاء الممدوحين معنى خاصا للقبلة ؛ فحينما يعترف العلاوي بفضل شيوخه عليه ، يذكر ذلك في قولـــــــــه [4] :

---

[1] فصوص الحكم : فص حكمة قدوسية في كلمة إدريسية ، الحلبي 1966 ، ص ص79 ، 80 .

[2] هي << رؤية الحق ببصر القلب من غير شبهة ، كأنه رآه بالعين >> .

(معجم مصطلحات الصّوفية : ص244 .)

[3] ديوان العلاوي : ص43 .

[4] نفسه : ص109 .

هَذَبُونِي بِسَيْرِهِمْ عَرَّفُونِي مَعْنَى الْقِبْلَـه

إِنْ سَجَدْتُ نَحْوَهُـــمْ وَجَدْتُهُمْ هُمُ الْكُـــلاَّ

وواضح من النصّ السّابق ، أن الكلّ المكاني المشار إليه ، يذكّرنا بوحدة الوجود التي يدّعي أصحابها فيها أن الأشياء الطّبيعية ما هي إلا تجليات للذات الإلهيـــة .

وإذا كان العلاوي يركّز اهتمامه ، في مديحه ، على أمور منها : الإذن بالمشيخة ، واتخاذ الغزل الإنساني طريقا للحديث عن الذات الإلهية ، وهو ديدن جلّ شعـــراء موضوع الدّراسة ، أقول إذا كان كذلك ، فإن شاعرا كعدّة بن تونس يتّخذ من طلب سقيا الخمر الصّوفية [1] سبيلا إلى الوصول إلى ممدوحه وذلك حين يقـــول [2] :

يَا رَفِيعَ الْقَدْرِ أَحْمَدْ يَا إِمَامَ الْعَارِفِينَـــا

يَا عَلاَوِي يَا مُمَجَّدْ فَاسْقِنَا سَيِّدِي فَاسْقِنَا

والإلحاح على طلب السقيا ، لدى الشّاعر ، يبدو أكثر وضوحا في قوله [3] :

مُولَى الْقُبَّهَ مُولَى الْمَقَامْ صَاحْبَ التَّاجَ الْغَالِـــي

شَرَّبْنِي كَاسَ مْنَ المْدامْ نَوَّرْ قَلْبِي وَاحْوَالِي

ولعلّ الممدوح ، بعد هذا ، هو المعني بحديث النبي (ص) ، الذي يقول فيه :

" إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ عَامٍ مَنْ يُجَدِّدُ أَمْرَ هَذَا الدِّينِ " (رواه مسلم) .

يقول الشّاعـــــر [4] :

---

1 إن الحبيب والخمرة << رمزان لواجب الوجود المطلق ومعرفته . والمنازل التي يبكيها رمز لدار الخلـــود قبل فراقها ، ولذلك لا يكفّ عن الحنين إليها >> .

(أسعد أحمد علي : فن المنتجب العاني وعرفانه . دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، ط2: 1980 ، ص173)

2 ديوان عدّة بن تونس : ص08 .

3 نفســـــــــه : ص11 .

4 نفســـــــــه : ص08 .

أَنْتَ الْمَبْعُوثَ الْمُجَدِّدْ لِأَمْرِ الدِّينِ يَقِينَـــا
وَالْحَقُّ حَقٌّ لَا يُرَدْ رَغْمَ أَنْفِ الْجَاحِدِينَا

ويقول أيضا [1] ، مبيّنا نصرة ممدوحه للذاكرين :

جَهَدْتَ فَكُنْت أَوْحَدْ فِي نُصْرَةِ الذَّاكِرِينَا
بِقَلْمِكَ الْمُهَنَّـــــدْ وَبِحِزْبِ الْمُؤْمِنِينَـا

ومبرزا قدرته على إشفاء المرضى بشرط ملازمة ورده ، والمواظبة عليه ، وذلك في قولـــــــه [2] :

بَالنَّظْرَه يَشْفِي مِن الأَسْقَامْ يَشْفِي مَنْ كُلَّ اعْـلَالْ
إِذَا تَلَازَمْ وَرْدُه بَالدَّوَامْ تَرَ الْبُرْهَانَ الْجَالِي

إن ممدوحا كهذا لا بدّ أن يتوسّل به الشّاعر محتميا مستغيثا على طريقة معظم شعراء الملحون ، مثل قولـــــــه [3] :

بَلِّـغْ قَصْدِي يُومَ الزِّحَامْ تَحْمِينِي مِنَ الاهْوَالِـي
لَيْلَةْ قَبْرِي بِينَ الظَّلَامْ أَنَسِّنِي فَكَّ اخْبَالِـي

وقوله كذلك [4] ، وهو يتوسّل إلى شيخه أن يأخذ بيده ، من قصيدته " مال الحبيب الشبيهة بقصيدة المنداســـي [5] :

---

[1] المصدر السّابق : ص08 .

[2] نفســـــــــه : ص12 .

[3] نفســـــــــه .

[4] نفســـــــــه : ص45 .

[5] هو << سعيد بن عبد الله ، التلمساني المنشأ ، المنداسي الأصل ، المكنّى بأبي عثمان . يقال إن نسبه من عرب سويد بن مالك بن زغبة من بني هلال أحد بطون هوازن من قبائل مضر .
وقد عاش بتلمسان في القرن الحادي عشر الهجري ، وتلقى بها علوم عصره من لغة ونحو وصرف =

" طبّ للقلب ادواهْ " [1] :

لَلّهْ يَا امَامَ اهْـــــــلَ اللهْ

بَرْكَاكْ مْنَ الْجْفَـــا يَا سِيدِي

إِذَا ادْنَبْتْ يَا غَـــــوْثَ اللهْ

أَنَا ضْعِيفْ خُذْ بْيَـــــــــدِي

ولكن الشّاعر يشتط حين يجعل درجة ممدوحه كدرجة النبي الذي رفع اللهُ ذكره ، وذلك في قوله [2] :

رَبّي اعْطَاكْ وَارْفَعْ ذَكْـرَكْ

جَعْلَكْ لَلْقْلُوبَ امْدَاوِي

وقوله كذلك [3] ، و هو يعدّد صفاته الجسدية ، على الطّريقة التراثية التقليدية :

اللهْ وَالخْلاَيَقْ تَشْهَـــــــدْ مَا فِيهْ مَا يْقُولَ الْقَايَـــــلْ

اصْفَى مْنَ الذّْهَبْ سِيدَ احْمَدْ اَبْهَى مْنَ القْمَرَ الْكَامَـــلْ

يَدُّه كَالْحْجَرْ الاَسْعَـــــدْ النَّاسْ عَنْدْهَـــــا تَدَّاوَلْ

اَرْطَبْ مْنَ الْحْرِيرَ الْفَانِـــي

وِيذَا نْظَرْتْ وَجْهُه كَالشَّمْسَ ايْبَـــــانْ

لَحْيَه مْهَذّْبَه تَعْجَبْنِـــــــي

= وبلاغة وشريعة وما إلى ذلك .. والمنداسي ثنائي الشاعرية ؛ فقد نبغ في الشعر الفصيح والشعبي على حدّ سواء .. توفي على الغالب من الظن في سنة 1088هـ .

(انظر : - معجم أعلام الجزائر ، ص68 - الكنز المكنون : ص21 - كشف القناع عن آلات السماع : ص51 – مقدمة ديوان المنداسي الفصيح : ص05 -07)

[1] ديوان المنداسي (الملحون) : ص ص 166-168 .

[2] نفســـــــــــه : ص46 .

[3] نفســـــــــــه : ص45 .

ويلحّ الشّاعر ، ثانية ، على استغاثته بشيخه ، بوصفه طبيبا مداويا للعلل ، رادّا للمظالم ، وذلك في قولـــــــه [1] :

يَا الْعَلاَوِي مَسْكَكْ فَاحْ طُبّ الاَجْرَاحْ غِثْنِي يَا سِيدِي نَرْتَاحْ

مَن اعْلاَلِـــي

غِثْ الْمَظْلُومْ مَا بْقَى لِي جُهْدَ الْيُومْ رَانِي مَغْمُومْ فِي اعْقَالِي كِالْوَاجِي [2]

وثمّة منظومات في التوسّل ، كما هو الشّأن لدى محمّد بن يلّس الذي يتحدّث فيها كثيرا عن النّوائب ، ويدعو إلى رفع الضّرّ بروح المتصوّف . يستهلّ إحداها بقولـه [3] :

يَا جَامِعَ النَّاسْ لِلْمعـادْ أَنْتَ عَلَى جَمْعِهِمْ قَدِيرْ

فَامْحُ [4] سِوَاكَ مَنْ فُؤَادِي خْلَقْنِي بَاسْمَكَ الظَّهِيرْ

على أن بعض الشعراء الآخرين ، مثل قدّور بن عاشور الذي ليس هدفه من الدعاء والتوسّل التقربَ إلى الله وحسب ، ولكن وسيلة للانتقام من الأعداء المنكرين عليـــه مذهبه ، وذلك في قولـــــه [5] :

خَفْضُوا قَدْرِي وْمَكْرِي قَدْ زَعْمُوا بِهْ

كَانَ سَتْرَكْ سَتْرِي ، لْبَاسِي فَلاَ لْبَاسْ

---

[1] المصدر السابق : ص53 .

[2] من الوجا ، وهو << أن يشتكي البعير باطن خفّـه والفرس باطن حافره >> .

(لسان العرب : 4778/6)

[3] ديوان محمّد بن يلّس : ص21 .

[4] من المحو ، وهو << رفع أوصاف العادة بحيث يغيب العبد عندها عن عقله ، ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها كالسكر من الخمر >> .

(معجم مصطلحات الصـوفية : ص239)

[5] ديوان قدّور بن عاشور : ص147 .

وفضلا عن هذا ، فقد يكون التوسّل بالقرآن الكريم ، كما فعل العـــــــلاوي في قولـــــــه [1] :

أَيَا رَبّ بِلُطْفِكَ يَا مُرْتَجَى
اُلْطُفْ بِنَا وَهَيِّءْ لَنَا فَرَجَـــا
سَأَلْنَاكَ يَا رَبّ بِالْقُـــرْآنِ
وَمَا فِيهِ وَبِالسَّبْعِ الْمَثَانِـــــي
وَاجْعَلْ دِيَارَنَا دِيَاراً أَمْنَـا
وَاحْفَظْنَا مِنْ كُلّ مَكْرٍ وَمِحْنَـه

والمتأمّل في هذا النّوع من التوسّل ، يجده صادق العبارة ، واضح الصورة ، لأنه صادر عن مستضعف شاكٍ متضرّع إلى الله مما لقيه من عنت واضطهاد من المحتلّ ؛ يؤيّد ذلك ما نجده عند محمد بلخير " من قصيدته التي أنشأها في سجنه [2] ، وذلـــك في قولـــــــه [3] :

سَلاَمُكَ الْمَغْبُونْ مَنْ أَرْضَ الْقِفَارْ
قَادَرْ كُلَّ اغْرِيبْ لَبْلاَدُه تَدِّيهْ
فَرّجْ يَا رَبِّ عْلَى مَنْ ضَاقَتْ بِهْ

ولا يخفى ما في هذه البداية من صدق للعاطفة ، وشجن في التعبير . لذلك كان الدعاء صادقا متأججاً في قولـــــــه [4] :

---

[1] ديوان العلاوي : ص ص93 ، 94 .

[2] يذكر " قاضي محمد " أن الشّاعر كان منفيا ، ولما أتمّ هذه القصيدة أطلقته الإدارة الفرنسية .
(انظر : الكنز المكنون : ص177)

[3] الكنز المكنون : ص177 .

[4] نفســـــــه .

الْعَبْدَ الضـّعِيفْ مَا طَايَقْ لَضـْرَارْ

هَمّ الْحَبْسَ اوْ زَادْ هَمّ الضـُرّ اعْلِيهْ

الطـَيـّبْ لَلنّاسْ لِيَ رَاهَ امْـــرَارْ

الشـّكْوَى لَلّي اخْلَقْنِي لاَ غَيْرِيـــهْ

اتعُزّ الْمَذْلُولْ وَتْذُلّ الْقُـــــدّارْ [1]

وَتْنَزّلْ مَنْ كَانْ مَرْفُوعَ ابْجَنْحِيـــهْ

وعلاوة على ما ذكِر من أوصاف في مدح الشيوخ ، فإن أحوالا قد تنتابهم ، ولا تنتاب إلا مثلهم ، ممّن وصلوا إلى درجة مرموقة في التصوف ، ومن ذلك سكرهم وغيبتهم [2] في حضرة الله بعد المشاهدة والتجلـّي .

يقول العـــــــلاوي [3] :

يَا رِجَالٌ غَابُوا فِي حَضْرَةِ اللهْ كَالثـُّلَيْجْ ذَابُوا وَاللهِ وَاللهِ

تَرَاهُمْ حَيَارَى فِي شُهُـودِ اللهْ تَرَاهُمْ سُكَارَى وَاللهِ وَاللهِ

ثمّ إن هؤلاء الرجال يكتنفهم الانتشاء والطـّرب عند ذكر الله عزّ وجلّ ؛ لأن الذكر وسيلة هامّة للوصول إلى مبتغاهم .

---

[1] الظالم المتجبّر.

[2] الفرق بين السكر والغيبة هو << أن الغيبة تكون بوارد من ذكر عقاب أو ثواب ينشآن من شدّة الخوف أو قوّة الرّجاء . وأما السكر فلا يكون إلا لأصحاب المواجيد ، فإذا كوشِف العبدُ بنعوت الجمال حصل له السكر وطرب الروح وهام القلب >> .

(اليافعي : روض الرياحين في حكايات الصّالحين ، المطبعة الميمنية بمصر 1307هـ ، ص129)

فالغيبة ، إذن ، حال الذين يرجون رحمة الله ويخشون عذابه . أما السكر فأصحابه هم أهل المحبّة المتعلـّقة قلوبهم بالحقّ سبحانه ، الذين يرون في مشاهدة جماله سعادتهم الكبرى ، وجنّتهم العالية ، وفي عدمها خيبتهم وعذابهم .

[3] ديوان العلاوي : ص51 .

والمتصوفة المتأخرون ، ممّن تحملهم هذه الدراسة ، جعلوه غناءا وطربا ، ربّما كان فيه اللسان دليلا أكثر من القلب . وليسوا بدعا في ذلك ؛ فقد كان العامّة في العهـــود المتقدّمة << ينشدون أشعار الزهاد والمتصوفة على أنغام الموسيقى ، كما حاول الزهاد والمتصوفة أن يجعلوا لهم مجالس تحفل بالغناء والمتعة الأخروية على نسق هـــــذه المجالس التي كانت تعقد للـّهو والمجون . وكانت لهم أشعار كثيرة تصلح لأصحاب هذه المجالس مثل قول أبي بكر الشبلـــــي :

تَغَنَّىَ الْعُودُ فَاشْتَقْنَاَ إِلَىَ الْأَحْبَابِ إِذْ غَنَّىَ
وَكُنَّاَ حَيْثُمَاَ كَانُـوا وَكَانُوا حَيْثُمَا كُنَّـــا

فمثل هذه المقطوعات كانت تسيح بسامعيها في أودية النشوة ، وتطير بهم في سماوات الفيض الربّاني >> [1] .

وقد يعرض لهم ، من جرّاء ذلك ، رقصات يفقدون بها وعيهم ، ويُصابـــون ، من خلالها ، بنوع من الزّعق نتيجة وجدهم ، وذلك هو مبلغ أجتماعهـــم في أحايين كثيـــــرة ، على نحو ما جاء على لسان العلاوي [2] :

فَالْوَجْدُ فِيهِمْ دَاعِي يَدْعِيهِمْ يَطْرَا عَلَيْهِمْ فِي ذَكْـرَ اللهْ
وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْـــــيَتَوَاجَدْ قَصْداً يَتْعَرَّضْ لْفَضْلَ اللهْ

والحقّ ، كما قال السرّي ، إن << شرط الواجد في زعقته أن يبلغ إلى حـــــدٍّ لو ضُرب وجهه بالسّيف لا يشعر فيه بوجع >> [3] .

مما لا نلقاه عندهم ، إلا نشوةً فدوراناً فسقوطا مغشيا عليهم ، وهو ما ورد في قول

---

[1] د. سعد إسماعيل شلبي : الشعر العباسي ، التيار الشعبي . مكتبة غريب ، د.ت. ، ص ص125 ، 126 .

[2] ديوان العلاوي : ص93 .

[3] عوارف المعارف : ص200 .

العلاوي أيضـــــا [1] :

تَرَاهُمْ نَشَاوَى عِنْدَ ذَكْرَ اللهْ عَلَيْهِمْ طَلاَوَه مَنْ حَضْرَةَ اللهْ
إِنْ غَنّى الْمُغَنِّي بِجَمَالَ اللهْ فَقَامُوا لِلْمَغْنَى طَرَباً بِـــاللهْ
أَهْلَ الْهَوَى الْعَارِفِينَ بِـاللهْ لَهُمْ نَشْوَى فِي ذَكْـــرَ اللهْ

و مثل قول البوزيدي [2] ، وهو يقرن ذكر الله بالاهتزاز تعبيرا من المريد عن انتشائه :

إِذَا ذُكِرْتَ الْمَوْلَى فَاهْتَـزّْ بِذَكْرَ اللهْ

وقوله كذلك [3] ، وهو يعبِّر عن الرّقص بالشّطـــــــــح [4] :

اذْكُرْ يَا خَلِّـي وَاشْطَحْ وْلِلْحَضْرَةِ [5] لاَ تَبْرَحْ
لاَزَمْهَا أَخِي تَفْلَـحْ تْصِيرْ مَنْ أَهْلَ الشُّهُودْ

---

[1] ديوان العلاوي : ص51 و ص106 .

[2] ديوان البوزيدي : ص118 .

[3] نفســـــــه : ص127 .

[4] الشّطح من المنظور الصّوفي هو << عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته ، وهاج بشدّة غليانـــــه وغلبته . والشّطح لفظة مأخوذة من الحركة ، لأنها حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم فعبّروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها >> .

(اللمع : ص453)

[5] الحضرة هنا تعني التجمّع المقام في الزاوية ، وما فيه من الطّـقوس التعبدية المؤدّاة من قبل المريدين كالذكر والإنشاد والاهتزاز وما إلى ذلك .. وهي ليست الحضرة الواردة في قولـــــــه :

افْنَ عَنْ كُلّ الْحَسّ وَادْخُلْ حَضْرَةَ الْقُدْسْ
تَجْلَسْ بِسَاطَ الأُنْـسِ يَحْصَل لَّك الْمَقْصُودْ

(ديوان البوزيدي : ص126)

و الذكر ، علاوة على ذلك ، نوعان : لساني وقلبي . فأما اللساني فيصحبه محو جمع الأكوان ، ونشر ذلك كله في جمال الله ، نحو قول البوزيدي [1] :

اذْكُرْ ذَكْرَ اللّسَانْ بْتَغْمِيضَ الْعَيْنَيْـنْ
وَامْحُ جَمْعَ الْأَكْوَانْ فِي جَمَالَ الْمَعْبُـودْ

وأما القلبي فمقام شارب الخمر المقدّسة التي يرى من خلالها المريدُ أموراً من الغيب رأي العين ، لا يراها غيره ، وذلك مثل قوله أيضا [2] :

اذْكُرْهُ ذَكْرَ الْقَلْبِ ذَا مَقَامْ أَهْلَ الشّرْبِ
تَعْلَمْ جَمِيعَ الْغَيْـبِ تْصِيرْ لَكَ الشّهُودْ

وثمّة ذكر السرّ ، وبعده سرّ السرّ : وهو مقام أهل السّكر من الذين غابوا عن وعيهم ، فوصلوا إلى المقصود ، وهو الفناء في ذات الله تعالـــــــــــــــى ، كما في قوله كذلك [3] :

اذْكُرْهُ ذَكْرَ السّرّ بَعْدُه سَرّ السّـــــرّ
ذَا مَقَامْ أَهْلَ السّكْرِ تَمّ لَكَ الْمَقْصُـــودْ
وْتَضْحَى لَلْبَقَاءِ بَعْدْ فَنَا الْفَنَـــــاءِ
تْصِيرْ مْنَ الْأَوْلِيَاءِ أَهْلَ السّرّ الْمَوْجُودْ

وإذا كان الذكر على الذي أشرنا إليه من درجة عالية ، ومقام رفيع ، فليس غريبا أن يدافع عنه العلاوي ، وينزله منزلة أفضل من المال ، بل وأفضل من الملك ، وذلك في قولـــــــــه [4] :

---

[1] ديوان البوزيدي : ص127 .

[2] نفســـــــــه .

[3] نفســـــــــه .

[4] ديوان العلاوي : ص78 .

الذِّكْرُ أَحْسَنْ مِنَ التِّجَـــارَه لَو كَانَ انـقُولْ آشْ فِيــهْ
أَفْضَلْ مِنَ الْمُلْكْ وَالـوِزَارَه وَالنَّاسَ مْحَرَّفَا عْلِيـــهْ [1]

إن أصحاب هذا الذكر هم العارفون المسمّون بأهل الحقائق ، المتنعّمـــون في جنّة الفردوس ، بين الحدائق ، وذلك ما نقرؤه في قول الشاعر [2] :

أَهْلَ الْحَقَائِقْ بِينَ الْحَدَائِقْ عَلَى نَمَارِقْ مُتَّكِينَـــا
حَالَ الْعَارِفِينْ مُتَقَابِلِيـــنْ عَلَى سُرُرٍ مُسْتَبْشِرِينَـا

ونقرؤه في قوله أيضا [3] من أن احترام العالم كله قد شملهم ، بما في ذلك الملائكة الكاتبون ، وذلك لأنهم عباد الرحمن الآمنون المطمئنّـــــون :

لَهُمُ احْتِرَامْ فِي كُلِّ الْعَالَـــمْ وْعَنْدَ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَـــا
عِبَادَ الرَّحْمَانْ فِي كُلِّ زَمَانْ لَهُمُ الْأَمَانْ مُطْمَئِنِّينَـــا

والأبدال النائبون عن الرسل ، وذلك في قول الشاعر كذلك [4] :

فَهُمُ الْأَبْدَالْ لَهُمُ الْإِقْبَـــالْ نُوَابُ الْأَرْسَالْ فِي الْعَالَمِينَا

فالصوفية يزعمون أن العالم دائم البقاء بفضل طبقة من الأولياء المحجوبين ، << وكلما قـُبض منهم واحد خلفه غيره ، ورجال الغيب هم : ثلاثمائة من النقباء [5] ، وأربعون من الأبدال ، وسبعة أمناء ، وأربعة عمد ثمّ القطب وهو الغوث >> [6] .

---

[1] أي منحرفون عنه ومبتعدون .

[2] المصدر السابق : ص63 .

[3] نفســـــــه .

[4] نفســـــــه .

[5] << هم المطّـلعون على خفايا الضمائر ، لانكشاف الستائر لهم عن وجوه السرائر ، وهم ثلاثمائة في كلّ زمـــــان >> .
(معجم مصطلحات الصّوفية : ص258)

[6] ماسينيون : التصوف .. : ص ص45 ، 46 . =

وفي قصيدته المتفاصحة جدّاً : " لله أشكو " [1] ، يتحدّث العلاوي عن لوعة فراق شيخه البوزيدي ، مستهلا ذلك بتعامل القبر نفسه معه تعاملا لطيفا ، لعلوّ مكانته ، فنال القبر ، بذلك ، فخرا وتعظيما ، وهذا ، في رأينا ، من قبيل الغلوّ الذي لا مبرّر له :

لِلهِ أَشْكُو حُزْنِي لِفَقْدِ عَرْشِ الْوَلاَ ... فَقِيدِ الْوَرَى طُرّاً وَاللهِ كَذَا الْعَصْرُ

فَقِيدٍ حَلَّ الثَّرَى مِنْ بَعْدِ احْتِوَائِهِ ... عَلَى الْكُلِّ فَكَيْفَ بِهِ غَمَّهُ الْغَمْرُ

فَقِيدٍ كَانَ فَوْقَ الْكُلِّ وَالْكُلُّ دُونَهُ ... فَيَا عَجَباً كَيْفَ أَحَاطَ بِهِ الْقَبْرُ

فَمَا حَاطَ هَذَا الْقَبْرُ كُلاًّ وَإِنَّمَا ... أَخَذَ مِنْهُ رَشْفاً فَنَالَ بِهِ فَخْرُ

وليس من المستبعد أن يعود ذلك إلى شعور الشّاعر باستغراق حياة الشيخ ، انطلاقا من أن << الانخراط في سلك النظام الصوفي ، والقبول بالتدريب على الشيخ المرشد هو بمثابة الارتباط بعهد ثابت ودائم يستمرّ حتى إلى ما بعد الموت . ذلك أن الشيخ بالنسبة إلى المريد حاضر أبدا بصورة خافية، لا سيما في أثناء ممارسة الشعائر . والشيخ بالنسبة إلى المريد لا يموت مطلقا حتى ولو فارق هذه الحياة بجسده . فإرشاده له وعونه إياه يستمرّان حتى ما بعد موته >> [2] . ومن هنا صار الشيخُ << شخصاً يُطاعُ حيّاً ومَيّتاً ، ويحظى بالاحترام المطلق ، ويخشى الناسُ سطوتَهُ وغضبه >> [3] ؛ حتى إن الشاعر يَعدّ بكاءه على شيخه عبادة مأجورا عليها ، وذلك

= << ظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ، ومعناه رأس العارفين ؛ يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة ، حتى يقبضه الله . ثمّ يورّث مقامه لآخر من أهل العرفان .. وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم .. ثمّ قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب ، كما قاله الشيعة في النقباء >> . (المقدمة : 592/2)

[1] ديوان العلاوي : ص100-102 .

[2] الصوفية بين الأمس واليوم : ص72 .

[3] د. عبد الحميد حاجيات ، من مقاله " سيدي محمد الهواري شخصيته وتصوفه " ص87 .

في قولـــــــــــه [1] :

وَلْتَبْكِ عَيْنُ الْفَتَى دَمًا وَبُكَاؤُهَـــا
لِفَقْدِهِ أَسَفاً وَلَيْسَ لَهَـــــا وِزْرُ
فَالْوِزْرُ جُمُودُ الْعَيْنِ عَنْ فَقْدِ مِثْـلِهِ
وَالدَّمْعُ فِيهِ أَجْرٌ لَعَمْرِي هُوَ الْأَجْرُ

وقوله كذلك [2] وهو يعدّد صفاته الحميـــــــدة :

حَلِيمٌ كَرِيمٌ خَافِضُ الطَّـرْفِ زَاهِدٌ
هَشُوشٌ بَشُوشٌ دَامَ فِي وَجْهِهِ الْبَشْرُ
صَفُوحٌ عَنِ الْعُدَّالِ لَمْ يَتْرُكْ خَلْفَهُ
مَنْ قَالَ فِيهِ زُوراً أَوْ رَأَى فِيهِ كِبْـرُ
حَرِيصٌ عَنِ الْوَرَى يَجُودُ بِسِـرِّهِ
وَلَا يَرْتَجُ مِنْهُمْ تَعْظِيماً وَلَا أَجْـــرُ
فَلَا غَضَبٌ لَدَيْهِ وَلَا قَبْضٌ عِنْـدَهُ
خَلِيلُهُ ، إِنْ زَلَّ ، يَلْتَمِسُ لَهُ عُـذْرُ
فَمَنْ ذَا الذِي رَأَى أَوْعَايَنَ مِثْـلَهُ
تَا اللهِ لَوَاحِدٌ جُمِعَ فِيهِ السِّـــــرُّ

---

[1] ديوان العلاوي : ص100 .

[2] نفسه : ص101 .

إن شيخا بهذه الصّفات لا شكّ داخل في زمرة العارفين الذين بُوِّئوا درجات عالية ، بسبب حبّهم اللامتناهي لله تعالى . فهم أهل الشّهود والفيض [1] ، ذوو الأرواح المشرقة في الملكـــــوت [2] ، وذلك هو قول الشّاعر [3] :

أَهْلُ الشُّهُودْ وَالْعِيَانْ قَدْ سَقَاهُمُ الرَّحْمَـــانْ
فِي حَضْرَتِه كِيـــزَانْ هَامُوا فِيهِ سُكَـــارَى
قَدْ كَسَاهُمْ حُلَـــــلْ مِنْ فَيَاضَاتِ الْجَمَـــلْ
حَازُوا الْفَضْلَ وَالْكَمَالْ حَيْثُ فِيهِمْ ظَهَـــرْ
أَرْوَاحُهُمْ نَائِـــرَهْ فِي الْمَلَكُوتْ طَائِـــرَهْ
فِي الْجَبَرُوتْ حَائِـــرَهْ قَدْ غَابُوا عَنِ الْوَرَى

والشّهود حين يتحدّث عنه الناظم ، يدّعي ، كغيره من شعراء الملحـــــون ، أن الحجب قد زالت بينه وبين حبيبه ، وذلك هو قوله أيضاً [4] :

فَقَدْ زَالَتْ الْحُـــجُبْ عَنْ حِبِّي حِينَ بَـــدَا
أَيَا عُشَّاقَ الْمَحْبُوبْ وَقْتَ الشُّهُودِ هَـــذَا

---

[1] << ما يفيده التجلي الإلهي ، فإن ذلك التجلي هيولاني الوصف ، وإنما يتعين ويتقيد بحسب المتجلّـي ، فإن كان التجلي له عينا ثابتة غير موجودة ، يكون هذا التجلي بالنسبة إليه تجليا وجوديا فيفيد الوجود ، وإن كان المتجلي له موجودا خارجيا كالصورة المسوّاة ، يكون التجلي بالنسبة إليه بالصفات ، ويفيد صفة غير الوجود ، كصفة الحياة ونحوها >> .

(معجم مصطلحات الصّوفية : ص208)

[2] هو << عالم الغيب المختصّ بالأرواح والنفوس >> .

(معجم مصطلحات الصّوفية : ص250)

[3] ديوان العلاوي : ص116 .

[4] نفســـــــــه : ص60 .

أو قول البوزيـــــــــدي [1] :

وَقَفْتُ بَالْبَابْ وَرَفَعْتُ الْحِجَابْ
فَقَـــالَ الْبَوَّابْ أَهْلاً وَسَهْلاَ
ادْنُ يَا عَاشَقْ إِنْ كُنْتَ صَادِقْ
لِلسِّوَى فَـــارَقْ تَغْنَمِ الْوَصْلاَ
ازْدَادْ حُبِّـــي بَنْسِيمَ الْقُـــرْبِ
وَتْلاَشَى كُرْبِي لَمَّا تَجَلَّـــــى

وقوله كذلك [2] ، زاعما أنّه لم يبق إلا هو ، على شاكلة المعتقد الصّوفي لدى الحلاج وغيـــــــــــره :

لَمَّا فَنِيتَ الْفَنَـا مَا بَقِيتْ إِلَّا أَنَـــــا
فِي الْحُسِّ وَفِي الْمَعْنَى أَنَا الطَّالَبُ الْمَطْلُوبْ

أو قوله أيضـــــــــا [3] :

نَادَانِي مَنْ كُلَّ امْكَانْ اصْدَعْ وْبَشَّرَ الاَخْوَانْ
بَالْقُرْبْ مْعَ الْأَمَـــانْ اللِّي يْتَبَّعْكْ مَحْبُـوبْ
نَادَانِي يَا بُوزِيـــدِي اصْدَعْ بَشَّرْ عْبَـــادِي
بَالْقُرْبِ وَالْمَزِيـــــدِ حَاشَا مُرِيدَكْ مَحْبُوبْ

---

[1] ديوان البوزيدي : ص ص116 ، 117 .

[2] نفسه : ص123 .

[3] نفسه : ص124 .

إن شعراء الملحون الذين تتّصل قصائدهم بالفناء ، أو بوحدة الوجود ، أو بوحدة الشهود ، لا يستطيعون الفصل بين ما هو مستساغ ، وبين ماهو غير سائغ في التصـــــوف ؛ << بين ما يدخل في الشعر تعبيرا عن عاطفة دينية روحية ، وبين ما يدخل فيما وراء الطبيعة من أمور غيبية من الصعب إدراك كنهها أو الوصول فيهـــــــــــــــــا إلى رأي جازم >> [1] .

على أن هناك بعض القصائد التي تُعْنى بهذه الأفكار ، بشكل أكثر تميزاً ، مثلما نجده لدى العلاوي في منظومته " أهل حزب الديان " [2] التي يقول في مفتتحها :

أَهْلْ حَزْبَ الدَّيَّـــــانْ حَارَ الْعَقْلُ مَنِّـــــــي
إِنِّي هَائِمْ وَلْهَـــــانْ غَائِبْ عَنْ أَيْنِـــــــي
كُنّا وَأَمَّـــــــا الْآنْ تَهْنَا عَنِ الْكَـــــوْنِ
لَا جِهَه لَا مَكَـــــانْ نَدْرِي فِيهَا وَطْنِـــــي
لَا فَضَا لَا أَرْكَـــــانْ حَيْثُ نَضَعْ بَدْنِـــــي

وذلك من جرّاء فناء الشاعر ، واندماجه في الذات المقدّسة . إن هذا الفنـــــــاء في الجمال المطلق حتى المشاهدة ، هو الذي يؤكّده الشّاعر ، في أسلوب متحرّك ، بقولـــــــــــه [3] :

لَا نَرَى فِي الْأَكْوَانْ وَفِي نَفْسِي مَنِّـــــــي
إِلَّا ذَاتَ الرَّحْمَـــانْ قَرَّتْ بِهَا عَيْنِـــــي
شَاهَدْتْهَا عِيـــــانْ حَيَّرَتْ لِي ذَهْنِـــــي

---

[1] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص472 .

[2] ديوان العلاوي : ص ص36-39 .

[3] نفســـــــــه : ص36 .

وكغيره من شعراء الملحون ، لا ينسى العلاوي نفسه ليشيد بها بكثير الشّطط ، وذلك في قولـــــــــه [1] :

أَنَاَ حَبْرَ الْعَرْفَـــانْ أَنَاَ الْحَصْنَ الْمَبْنِـــــــي
أَنَاَ كَوْكَبْ فَتَّـــــانْ أَنَاَ الْفَرْدَ الْمَعْنِـــــــي
أَنَاَ نُورَ الْأَعْيَـــانْ أَنَاَ الْكُلُّ دُونِـــــــي

كما يبلغ غلوّ الشّاعر مداه في فكرة الاتحاد حين يطلب إلى من يريد التّعرف إلى مذهبه أن يسأل عنه الألوهية ، بوصفه تجلياً لها [2] ، وذلك في قولـــــــه [3] :

يَا مَنْ ثِريدْ تَدْرِي فَتِّـــــي فَاسْأَلْ عَنِّي الْأُلُوهِيَـه
أَمَّا الْبَشَرْ لاَ يَعْرَفْنِـــــي أَحْوَالِي عَنْهُ غَيْبِيَـــا

ويجب التذكير بأن أساليب شعراء الملحون تتشابه في معالجة هذه الأفكار. بل إن هناك جيلا يشترك في مثلها اشتراكا ؛ ما يجعل شعرهم اجترارا ، يعيدون ، من خلاله ، الآراء ، دونما اهتمام بالجانب الأدبي .

وبقدر ما يشيد شاعر الملحون بنفسه ، ويعتزّ بها ، واعظا ناصحا ، فإن شخصيته الفنية لا تكاد تظهر ، << وذلك لأن هدفه فيها ليس التأثير أو التعبير ، وإنما غرضه ، في كثير من الأحيان ، هو الرّدّ على معارضيه أو رافضي التصوف >> [4] .

---

[1] المصدر السابق : ص38 .

[2] إن بعض المتصوفة المتأخرين يقولون << إن المريد عند الكشف ربّما يعرض له توهّم هذه الوحدة ، ويسمّى ذلك عندهم مقام الجمع . ثمّ يترقّـى عنه إلى التمييز بين الموجودات ، ويعبّرون ، عن ذلك ، بمقام الفرق ، وهو مقام العارف المحقق >> .

(المقدمة : 591/2 ، 592)

[3] ديوان العلاوي : ص22 .

[4] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص476 .

ولعلّ الشاعرين " العلاوي " و" قدّور بن عاشور " خير من يمثّل هذا الاتجاه ، وإن كان الأول أقرب إلى الفن منه إلى مجرّد النظم السّاذج .

والقارئ لديوان قدور بن عاشور يلاحظ بجلاء تام أنه مكثر في الأنا ، مشيد بذاته ، ومكانته الصوفية التي بُوِّئها ، رادٌّ ، بعنف وتجريح على كلّ من لم يعترف له بالتفرّد والولاية [1] ، وما إليهما ..

فليس في منظومته المكسورة " لما دعاني الداعي " [2] ، مثلا ، سوى ما قلناه ، على الرغم من أن الشاعر يبادر بإظهار فنائه في الله ، بقولـــــــــه :

لَمَّا دَعَانِي الدَّاعِي وَنَادَانِي الْمُنَادِي
مَنْ قبَالَ اللهْ نَعَمْ الْوَاحَدْ الْأَحَدِ
سْمَعْتُهُ بْسَمْعِي الْمَخْتَصّْ أَنَا بِـــــهْ
مَتْكَلّمْ مَعِي فِي حَضْرَةِ الْجَسْدِ
قُلْتْ مَنْ ذَا الذِي يْخَاطَبْنِي حَقِيقَـــةً
قَال لِيّ أَنَا رَبّكَ الدَّائِمَ الْأَبَـــدِ

وبقوله أيضا [3] ، وهو يفيد الناظم من بعض الصور الجاهـــــــزة :

ادْهَشْنِي وْحَيَّرْنِي بْنِدَائِـــــــــــه
صَوْتْ مَتْحَدّ جَمْعَا وْمَتْعَـــــــــــدِّدِ

---

[1] الولاية هي << قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه ، وقيل تولّي الحقّ سبحانه وتعالى عبده بظهور أسمائه وصفاته عليه ، علما وعينا وحالا وأثرَ لذة وتصرّفـــا >> .

(معجم مصطلحات الصّوفية : ص268)

[2] ديوان قدور بن عاشور : ص ص27-29 .

[3] نفســـــــــــــــه : ص28 .

كَأَنَّنِي مُوسَى بَجْبَلْ طُورْ سِينَـــا

يْنَاجِي رَبَّهْ عْلَى أُمُورَ الْعِبَـــــادِ

والناظم لا يكتفي بتشبيه نفسه بالنبي موسى ، عليه السلام ، وإنما يحاول إيهام المريد بأنه أعلى منزلة منه ، وذلك في قولـــــــه [1] :

أَمَّا أَنَا لاَ حْجَابْ بِينِي وْبِينَـــــهْ

خْطَابهُ مَنْ رُوحِي وْشَبْحِي وْفُؤَادِي

وفي قوله أيضا [2] ، وقد غاب عن الوجود ، فلا يدري من هو ؟ ! بسبب اضطرابه ممـّا رآه وتجلـّى له :

غَبْتْ عَنِ الْكَوْنْ وَالْكَائِنَاتْ كُلّهُمْ

يَا حَسْرَه عْلَى أَنْوَاعَ التَّلَوّنَـــــــاتِ

قُلْتْ أَنَا مَنْ أَنَا فَلاَ أَنَا إِنَّنِـــــي

وَاحَدْ أَحَدْ لاَ مْوَحَّدَ الْوَحْـــــــــدَةِ [3] :

---

[1] المصدر السابق : ص28 .

[2] نفســـــــــه : ص24 .

يذكّرنا البيت الأخير بما قاله الحلاج قديما :

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنَـــا

فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَـــهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَـــا

(ديوان الحلاج : ص93)

[3] ما يخصّ الفرق بين الأحدية والواحدية ، بين الأحد والواحد ، فإن عرفاء الصوفية ركبوا هذه الرموز العددية << على هيئة فروق ميتافيزيقية ، وهو تركيب يتخطّى الظاهرة الصّرفية التي تحلـّل البنية اللغوية ، وتستقصي ما يطرأ عليها من تحولات الإعلال والإبدال، فالعرفاني لا يكتفي بأن يُقال إن الأحد أصله الواحد، لأن هذا القول يقف عند رصد الاختلافات والفروق اللفظية دون أن يكون ثمَّ تجاوز صوب تأسيس أنطولوجي للمادة اللغويـــــــــــة >> .

=

على أن قدور بن عاشور يزعم ، في غير هذا الموضع ، من قصيدة له [1] بالقافية نفسها ، أنه دائم الحياة . وتلك خصيصة لدى بعض الشعراء الذين عدنا إليهم ، كما عرفناه قبل حين ، ليس بالروح وخلودها ، كما هو متعارف عليه ، ولكن بالصفات والذات ، وذلك بقولـــــــه :

يَا قَوْمِي إِيَّاكُمْ تَزْعُمُوا بْمَمَاتِي
كِيفٌ أَمُوتْ وَأَنَا دَائِمَ الْحَيَـــــاةِ
إِنِّي حَاضَرْ مْعَكُمْ فَلاَ أَغِيـــبْ
اللهْ وَاللهَ اللهْ بْصِفَاتِي وْذَاتِـــــي
إِنِّي حَيّْ وْبَقِي أَبَدَ الْأَبَـــــدِ
وَأَنتُمْ مَتْحَيَّرُونْ بْوَفَاتِـــــــــي

ويغلب على الظنّ ، أن هذا الغلوّ ، هو << من تأثّر الشاعر بالقدماء وتأثيرهم فيه ، وذلك بتقليده غير الواعي لهم في الإسراف الشّديد والمبالغات المشطة ، وقد كان أحد دوافعه لهذا الغلوّ هو الردّ على أعدائه ، فهو لا يفتأ يردّ عليهم كلما وجد سبيـــلا

= (د. عاطف جودت نصر : الرمز الشعري عند الصوفية . دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط3: 1983 ، ص ص402 ، 403)

ولذلك ذهب ابن عربي ، مثلا ، إلى أن الإنسان << الذي هو أكمل النسخ وأتمّ النشآت ، مخلوق على الوحدانية لا على الأحدية ، لأن الأحدية لها الغنى على الإطلاق ، ولأن الوحدانية لا تقوى قوة الأحدية ، فكذلك الواحد لا يناهض الأحدية ، لأن الأحدية ذاتية للذات الهوية .. ولهذا جاء الأحد في نسب الربّ ، ولم يجئ الواحد ، .. فالأحد عزيز منيع الحمى ، لم يزل في العماء ، لا يصحّ به تجلّ أبدا ، فإن حقيقته تمنع ، وهو الوجه الذي له السبحات المحرقة >> .

(كتاب الأحدية لابن عربي ، نقلا عن : الرمز الشعري عند الصّوفية ، ص403)

[1] ديوان قدّور بن عاشور : ص ص35 ، 36 .

لذلـــــــــــك >> [1] .

إن هذا الرّدّ العنيف هو الذي يُوقِع الشاعر في أفكار صوفية ، مثل الاتحاد الذي يهوي به في الحلول ، على نحو ما جاء في قصيدته " أنا حافظك " [2] التي يتحدّث فيها عن نفسه كعادته ، مدّعياً أن الله يخاطبه ، كما عرفناه قبل قليل :

أَنَا حَافْظَكْ مَنْ كُلّْ عَبْدْ ظَالَـــــــمْ
إِنيّ مُؤَيّْدَكْ طَابْعَكْ طَابِعِـــــــــي
تْكَلّمْ وْلَا تْخَفْ بَلّغْ مَا أَمْرْتَـــــــكْ
وازْعَمْ بَلْسَانَكْ كِمَا السّيفَ الْقَاطَـــعْ
يَا قُطْبِي وْغَوْثِي وفْرْدِي تَاجْ الأَفْرَادْ
جُنْدَكْ مْلَائِكْتِي إِيّاكْ تَتفَزْعِـــــــي
وَالْأَنْسْ وَالْجَنّْ لَادْنَكْ طَايْعِيـــــــنْ
عَنْدَ امْرَكْ وْنَهْيَكْ لَامْرَتَاوْعِـــــــي
وَجْلَالِي وْقُدْرْتِي إِلّا أَنْتَ أَنَـــــــا
إِرَادْتَكْ إِرَادْتِي أَنْتَ الشّجْعِـــــــي

إن ظاهرة التفرّد (الأنا) التي يزعمها قدور بن عاشور ، تكاد تكـــون واردة في منظوماته كلـّها ، ومن ذلك ادّعاؤه أنه عرج إلى السّماء مع الرســـول (ص) ، في قولـــــــــه [3] :

---

[1] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص480 .

[2] ديوان قدّور بن عاشور : ص ص48 ، 49 .

[3] نفســـــــــــه : ص84 .

دْعَانِي الدَّاعِي لْمَعْرَاجَ اللْـقَا

عْلَى يَدْ عَيْنَ الْوِلاَيَـــــــــةِ

سَرْتْ خَلْفُه سَاقاً بْسَـــــاقَ

مُحَمَّدْ سِيدَ الْكَائِنَـــــــــاتِ

صَعْدَتْ بَاللهَ مْخَفَّقَـــــــا

مْكَوْكَبْ مْغَمَّدْ فِي الْقُـــــدْرَةِ

جَبْرَائِيلَ وْمِيكَائِيلْ رَفْـــقَا

فِي مَعْرَاجَ الْقُدْرَه الدَّاهِيَـــــةِ

قْطَعْتَ الْحُجُبْ وَالأَسْرَا دَقَّا

فَانْطَوَتْ لِي جَمْعَ الْمَسَافَـــــةِ

دْهَشْتْ فِي أَمْرَ امْتْحَـــقَ

خْرَجْتْ عَنْ اسْمِي وْصِفْتِـــي

قَال لَيَّ رْسُولَ اللهْ ارتْـــقَ

هَا اثتَ وْرَبَّكْ بَالـــــــدَّاتِ

وفي قوله كذلك [1] ، وقد ساقه " الأنا " والافتتان بالنفس إلى الإلحاح على فكرة الاتحاد بكيفية ملفتة للانتباه :

صَرْتْ مْخَاطْبَاَ إِلَيْهْ فِي كُلّْ أَيْنِي

نَّاجِيهْ وَيْنَاجِينِي بْلاَ مْحَـــــالَ

أَيْنَمَاَ نَتَوْلَـــى فَنَجِدُه حَقَّـــــا

لاَ فْرَاقْ بِينِي وْبِينَ اللهِ تَعَالَـــــى

---

[1] المصدر السابق : ص101 .

وإذا كان الناظم ، على ما ذكرناه له من " أنا " ، فإنه في معـــــــرض ردّه على متّهميه والمنكرين عليه طريقته ، يزعم أن هؤلاء ، عندما يهاجمونه ، إنمـــا يهاجمون الله تعالى والرسول (ص) ، وذلك في قولـــــــــه [1] :

لَا تَلُومُونِي بْغَيْظْكُمْ يَا لَايْمِينْ
فَأَنْتُمُ اللِّئَامْ ذِيَابَ الْمْخَاتَـــــــــلْ
لَا تْسَبُّونِي يَا أَيُّهَا الْمُنْكِـرُونَ
كَأَنَّكُمْ تَسُبُّونَ اللهَ وَالرَّسُـــــــولْ

<< ولا شكّ أن هذا الشيخ عاش فترة الغليان والصراع الذي وصل إلى قمّته بين رجال الفكر الإصلاحي ، وبين أصحاب الطرق والزوايا ، فجعل من نظمه صحيفة يردّ فيها على الأفكار التي غزت البيئة الجزائرية في الثلث الأخير من القرن الماضـــــي وأوائل هذا القرن (يقصد القرن العشرين) >> [2] .

وبعد ، فإن الشعر الملحون الصوفي لم يُعْنَ ، في الغالب الأعمّ ، إلا بالإشادة بالتصوف ، رجاله وطرقهم ، .. بل إن تركيز الاهتمام على الطرق وما يتصل بها من مشائخ ومريدين يكاد يكون خصيصة يمكن معها القول إن << هذا الشّعر لا يمثّـل عاطفة أصحابه بقدر ما يمثّـل اتجاهاتِهم ومشاربَهم >> [3] .

إن شعرا كهذا ، سوف لن يكون فيه سوى التكلّـف والغلوّ ، دونما تجربة فنية ، مثلما نقرؤه لدى العلاوي في قولـــــــه [4] :

---

[1] المصدر السابق : ص ص32 ، 33 .

[2] الشعر الديني الجزائري الحديث : ص484 .

[3] نفســـــــــــــــــه : ص465 .

[4] ديوان العلاوي : ص45 .

لُوْصْغَى النَّاهِي لَنُطْقِي مَا زَاعْ
عَن مَّذْهَبِي وْعَادْ مَنْسُوباً لِـــــــي
سَلْهُمْ يَوْمْ عَنَتَ الْوْجُـــــــوهْ
لَلْحَيِّ الْقَيُّومْ [1] هَلْ كَانُوا مَعِـــــــي
كَذَا يَوْمْ أَلَسْتُ بِرَبِّـكُـــــــمْ
قُلْتْ بَلَى [2] وْلاَ زَلْتَ مْلَبِّـــــــــــي [3]

---

[1] في البيت اقتباس من قوله تعالى : " وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْـحَيِّ الْقَيُّوم " . (طه / من 111)

[2] في البيت اقتباس من قوله عزّ وجلّ : " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ، مِنْ ظُهُورِهِمْ ، ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . قَالُوا بَلَى . شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " .
(الأعراف : من 172)

3 البيت ، فيما يبدو ، إشارة إلى يوم الميثاق الذي جعل منه الصوفيون << يوم ولاء شرب فيه المختارون الخمرة الأبدية ، خمرة الحبّ الإلهي >> .
(يوحنا قمير : ابن الفارض . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط3: 1955 ، ص43)

إن هذه الخمرة هي التي تغنّى بها ابن الفارض في قولـــــــــه :
شَرِبْنَا ، عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ ، مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ
(ديوان ابن الفارض : دار بيروت للطباعة والنشر 1979 ، ص140)

وعلاوة على أن يومَ الميثاق يومُ ولاء ، كما ذكر ، فإنه يوم إلهام أزلي << أفاض به الله علمه على أوليائه ، فكان للنفس من المعرفة ما كان لها في عالم المثل الأفلاطوني ، وكان لها تذكار كالتذكار الأفلاطوني >> .
(يوحنا قمير : ابن الفارض ، ص43)

يقول ابن الفـــــارض :
وَفِي عَالَمِ التِّذْكَارِ لِلنَّفْسِ عِلْمُهَا الْ مُقَدَّمُ ، تَسْتَهْدِيهِ مِنِّيَ فِتْيَتِـــي
(ديوان ابن الفارض : ص116)

فابن الفارض << يرى أن النفس الإنسانية تكتسب علمها الأول من التذكر لكل ما يستقرّ فيها من مشاعـــــر وخيالات وصور ، فالعلم ليس منبعه العقل بل النفس ، وليس مصدره المعرفة العقلية بل الإلهام النفسي ، وليس منهجه ترتيب المعلومات وفهمها بل تذكّر المعلومات الإنسانية عن طريق الوحي والتذكر ، والنفس عالم كبير ، والتذكر النفسي عالم أوسع >> . (د. محمد عبد المنعم خفاجي : الأدب في التراث الصوفي ، ص176)

الخاتمة :

ننتهي ، بعد هذه الجولة الصّوفية ، إلى النتائج التي أمكن الوصول إليها . وهي نتائج لا نزعم فيها القول الفصل ، لأنها ، في النهاية ، حصيلة قراءة باحث حاول الإفادة من بعض الأدوات الإجرائية والمنهجية .

و فيما يلي نص هذه النتائج ملخـّصة :

أولا- إنه بفشل **ثورة 1871** ، انتهى المدّ الثوري بمفهومه الحق ، وبدأ عهـد جديد في حياة الشعب الجزائري ، انتقل فيه من الحيوية إلى السّكون والانكفـــاء على الذات ، ما جعل شاعر الملحون ، وهو واحد من هذا المجتمع ، يتـّجه إلى الزهد والتـّصوف ، يتلمّس فيهما النـّفحات الرّوحية ، منفّساً عنه كُرب الظـّلم وجبروت الاستعباد . ولكن ذلك لا يعني أنه لم يتابع أحداث وطنه ، فإنه على العكس من ذلك ، كان يصوِّرها بأمانة وصدق .

ثانيا- انتهينا ، في دراستنا **للشّكل** الذي أطـّر قصيدة الملحون الصّوفيـــة ، إلى أمور منهـــا :

1. إنـّه بعد عرضنا **للتـّشكيل الصّوتي للمفردة** ، بوصفه جزءا من التشكيل اللغوي ، وصلنا إلى أن " وضوح النطق " هو أهمّ خصيصة غالبة فيه ، انطلاقا من أن الأصوات اللينة أكثر بروزا من الأصوات الساكنة ، كما انتهينا ، في السياق نفسه ، إلى خصيصة أخرى ، وهي " خفّة النـّطق وسهولته " ، انطلاقا من الحروف المعتدلة الشّبيهة بحروف اللين .

2. إنّه بعد تناولنا **للتّشكيل البنيوي للمفردة** ، بوصفه عنصراً من التشكيل اللغوي أيضا ، انتهينا ، إلى أن أسماء الإشارة والأسماء الموصولة الواردة فيه ، بصيغها المختلفة ، تتّفق مع ما في اللغة المعْربة . وكذلك الشّأن بالنسبة لأسماء الاستفهام ، وإن كانت صيغها شعبية ، فهي تمّت ، بصلة ، إلى ما في اللغة المعْربة أيضا . والهدف من ذلك ، في الحالتين معا ، هو ابتغاء الاختزال المسمّـى نحتاً .

3.إنّه بعد تسليطنا الضّوء على **طبيعة المفردة** ، لاحظنا أنها جاءت ، في الغالب ، بصيغة الاسم ، حسبما يقتضيه الخطاب الصّوفي ؛ ذلك أنه يصدر من القلب إلى العقل . كما لاحظنا غلبة بدايات الأبيات لصيغة الماضي ؛ لأن الشّاعر ، أيّ شاعر ، ينطلق ، غالبا ، من التجارب الماضية ، بوصفها جزءا منه ، ومن حياته نفسهـــــــا .

ثالثا- خلصنا ، في دراستنا **للمضمون** ، إلى رصد موضوعين اثنين وهما :

1. **المريديات** التي لم تكن ، في حقيقة الأمر ، سِوَى منظومات تعليمية دعائية تروِّج للفكرة الصّوفية من منظور يختلف ، في كثير من مراميه ، عن التصوّف السّنّي المجافي للتّرّهات والأباطيل . وإن كانت ، في بعض قواعدها الجزئية الشّكلية ، تقتفي أثر ما جاء في بعض المصادر القديمة ، مثل المعاملة التي يجب على المريد التقيّد بها مع إخوانه المريدين ، ومع شيخه الذي يعدّ القدوة المُتأسَّى بها .

2. **مدح الشّيوخ** الذي تمثّـل قصائده إحاطة الممدوحين بهالة من التعظيم والتقديس ، يشوبها كثير من الشّطط الذي يبتعد عن الحقيقة الواقعة ، ويلبس صاحبه صفات تصل ، أحيانا ، حدّ الألوهية ؛ نتيجة لبعض الأفكار التي غزت الفكر الصّوفي ، بعامّة ، مثل الاتحاد والفناء والحلول ، وما إليها ، ممّـا يتنافى وجوهر التصوّف الإسلامي الحق .

وصفوة القول إن الشّعر الملحون الصّوفي يظلّ إنتاجا أدبيا له أسلوبه ومضمونه ، ذلك أنه عبّر عن بعض القضايا الدّينية التي شغلت المجتمع في وقت له ظروفه الخاصّة به ، والتي لا يمكن تطبيق معايير العصر عليها ، أو النظر إليها برؤية آنية .

وحسبه أنه أمدّ في عمر الشّعر الجزائري ، في زمن كانت جذوة الأدب العربي ، بعامّة ، قد خبت أو كادت .

ومهما يكن اتفاقنا أو اختلافنا مع اتجاه هذا الشعر ، فإنه قد أضاف ، بكيفية أو بأخرى ، قيما أدبية وأخلاقية إلى الشعر العربي .

على أن جهدنا في هذا العمل يبقى ناقصا ، وأنه ما من شـــكٍّ في أننا سهونا عن القليل أو الكثير ، وتلك طبيعة بشرية دائمة دوام أي جهد إنساني ، ولذلك فباب البحث فيه ما يزال مفتوحا لأية إضافة أو نقد ضمن دراسات قادمة .

والله نسأل سداد الرّأي ، فإنه نعم المولى ونعم النصير .

فهرس القصائد الملحونة

عنوان القصيدة	صاحبها	الصفحة
يَا حْمَامَ الْقْصُورْ	علي بن ..	11
كَثْرُوا السّدَاتْ	مجهول	20
قَصَّةْ يَوْمَ سْطِيفْ	بلخير ولد فرحات	32
أَيَا مُرِيدَ اللهْ	العليوي	52
أَيَا مُرِيدَ اللهْ	البوزيدي	129-120-113-53
مَالَ الْحْبِيبْ (زجل)	عدّة بن تونس	131-130-54
يَا رَايَسَ الْوْلَايَا	المنوّر بن يخلف	130-129-55
كَانَ انْتُمَا زَيَّارْ	الكلاعي	130-56
بَدْرَ الْكْمَالْ قَدْ لَاحْ	محمّد بن يلس	59
أَدْرَكْتْ مَنْيَتِي	قدّور بن عاشور	126-82
يَا مَنْ تْرِيدَ الطَّرِيقْ	محمّد بن يلس	87
مُولَى الْمِيدَه	خيرة السّبساجية	89
اعْطَفْ بَالْغُفْرَانْ	قدور بن عاشور	106
يَا مُرِيدَ الْحَقّْ	محمد بن يلس	117-110
رُوحَ وْرَيْحَانْ	العليوي	127
يَا مَنْ دْرَى آشْ مَنْ نْهَارْ	الطاهر بن حواء	130
يَا رْجَالْ غَابُوا	العليوي	130
الْكْؤُوسَ الْيَلَسِّيَّة	محمد بن يلس	132
يَا خَلّي فَاشْطَحْ	العليوي	133

انْشَقَّ فَجْرَ الصَّبَاحْ	قدور بن عاشور	133
أَيُّهَا السَّائِـــلْ	العليوي	186
مُرِيداً بَادَرْ	" "	190
بُشْرَاكُمْ خِلاَّنِي	" "	202
أَيَا رَبِّ سَأَلْنَاكَ النَّـجَاةْ	" "	207
يَا سُكَّـانَ الْحَشَـا	" "	219-213
لِلهِ أَشْكُـــو	" "	230
أَهْلْ حِزْبَ الدَّيَّـانْ	" "	234
لَمَّـا دَعَانِي الدَّاعِي	قدّور بن عاشور	236
أَنَا حَافْظَكْ	" "	239

فهرس الأعلام

آدم بن عبد العزيز : 148

إبراهيم (المكنّـى بالفحّام) : 209-211

إبراهيم البصري : 209-211

ابن تيمية (تقي الدين) : 164

ابن حجر (العسقلاني) : 166

ابن خلدون : 45-46-47-69-167

ابن عجيبة (القاضي) : 206

ابن عربي : 166-198-215-218

ابن عطاء الله : 209-211

ابن الفارض : 164-166

أبو بكر (الصديق) : 152

أبو الحسن سري السقطي : 155-156

أبو الحسن الشـّاذلي : 209-211

أبو سعيد الخرّاز : 218

أبو العبّاس بن عطاء : 219

أبو العبـّاس المرسي : 209-211

أبو علي الكاتب (الزّجـّاجي) : 206

أبو القاسم محمد (ابن الجنيد) : 206

أبو محمد (الزاهد) : 148

أبو مدين شعيب : 179-201

أبو نواس : 147-150-155

أبو يزيد البسطامي : 163

أبو يعزى المهاجي : 209-211

أحمد (ابن حنبل) : 152-216

أحمد أميـــــــن : 28

أحمد بن عقبة الحضرمي : 209-211

أحمد الثـّـابت : 209-211

أحمد الزرّوقي : 209-211

أحمد ولد القاضي : 08

إسماعيل صبري : 28

أنس بن مالك : 205

بافـــي (الأسقف) : 13

برهان الدّين إبراهيم البقاعي : 166

بلخير ولد فرحات : 32

البلقيني : 166

بهلول (المجنون) : 146

تاج الدّين نور الهدى : 209-211

تقي الدّين : 209-211

تمام حسان : 49

جابر : 209-211

الجاحظ : 176

جان بول سارتر : 42

جان كوهين : 42

الجنيد : 155-156-205-206

الحارث المحاسبي : 194-206

حافظ (إبراهيم) : 28

حامد بن حامـــد :08

حبيب العجمي : 206

الحـــــــــدّاد :06

الحسن (البصري) : 152-153-205-206

الحسن (ابن علي) : 209-211

الحلاج (الحسين بن منصور) : 150-163-233

الخلدي : 205-206

خيرة السّبساجية : 89

داود بن باخلي : 209-211

داود الطـّائي (أبو سليمان) : 206

الدّرقاوي (العربي) : 193-209-211

الدقـّاق : 206

الربيع : 145-146

رفيق المهدوي : 160

الرّوذباري : 206

روزيت : 14

زكي مبارك : 217

الزيات (أحمد حسن) : 28

زيد : 76

سبتـزر : 43

السـرّاج (الطـوسي) : 207-217

السري (أبو الحسن السقطي) : 205-216- 226

سعيـد : 209-211

سقراط : 198

السّهروردي (شهاب الدّين أبو الفتوح) : 182-202-203

سيد الشيخ (عبد القادر بن محمد) : 211

سيدي الشيـــخ :07

سي الزبيـــر :07

سيف الحقّ : 168

السيوطي : 72

الشافعي : 152-206

الشـبلي (أبوبكر) : 217-226

شريح : 152

الشـشتري : 217

شعبة : 152

شقيق البلخي : 155

الشلالـي (الشيخ) :10

شمس الدّين : 209-211

شوقي (أحمد) : 28

الطاهر بن حواء : 70

طه حسين : 28

الطيب العقبي : 28

عبد الحميد بن باديس : 28

عبد الرحمن الفاسي : 209-211

عبد الرحمن المجذوب : 209-211

عبد الرحمن المدني : 209-211

عبد القادر (الأمير) : 06-07-08

عبد القادر بن أحمد المجاجي : 04

عبد القادر ولد الزّين : 08

عثمان (ابن عفان) : 152

عدّة بن تونس : 54-71-72-75-78-79-204-220

علي (ابن أبي طالب) : 152-206-207-209-211

علي بن وفـــا : 209-211

علي الصـــّنهاجي : 209-211

العربي (ابن عبد الله) : 209-211

العليوي : 51-73-75-76-78-169-170-171-173-175-176-178-179-
180- 182-184-186-188-190-192-193-202-203-204-
205-209-219-220-224-225-226-227-228-230-234-235-
236-241

عمر بن قدّور : 27

عمر (الفاروق) : 152-164

عمر فرّوخ : 198

عيسى (عليه السّلام) : 196

الغزوانـــي : 209-211

غلام أحمد : 171

الغوثي البسطاوي التلمساني : 202

الفاسي يوسف : 209-211

فاطمة الشّريف : 02

فتح السّـعود : 209-211

فخر الدّين : 209-211

الفرزدق : 77

فرقد : 205

الفضيل بن عياض : 148

قابيلانتز : 44

القادري يحيى : 209-211

قاسم الخصّـاصي : 209-211

القاضي الجرجاني : 74

قدّور بن عاشور : 82-202-223-236-238-239

القزويني : 209-211

القشيري : 164

قفاف محمد بن الدّولة : 04

الكركاني : 206

كعب بن زهير : 188

الكلاعي : 56-70-71-76

كولردج : 41
لافيجري (الكاردينال) : 13
ماروزو : 43
مالك (ابن أنس) : 152
المتنبي : 74
محمد (ص) : 207-209-211
محمد أبو علي بن وفا : 209-211
محمد البشير الإبراهيمي : 172
محمد بلخير : 03-224
محمد بن السعيد الزاهري : 169
محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي : 156
محمد بن عبد الله : 209-211
محمد بن عبد الله بن والي : 08
محمد بن يسير الرياشي : 148
محمد بن يلس : 58-70-87-223
محمد البوزيدي : 209-211-227-228-230-233
محمد القدّوري : 209-211
محيي الدّين (ابن الأمير عبد القادر) : 07-08
المرواني : 209-211
المشيش : 209-211
معروف الكرخي : 205-206
المغربي : 206

المقرانـــي : 06-08

المنداسي : 221

المنفلوطي : 28

المنور بن يخلف : 55-72-76

موسى (عليه السلام) : 180-237

المهدي (الشيخ) : 22

نور الدّين محمد : 209-211

النهشلي (عبد الكريم) : 40

وردز ورث : 41

الهادي السنوسي : 28

هنـــد : 76

يسعـــد : 209-211

فهرس الأماكن

الآستانة : 27

إفريقية : 45

الأندلس : 45-69

الأوراس : 06

أوروبا : 27

أولاد رياح : 08

البابور : 06

البصرة : 146-148-153

بغداد : 164

بلاد الزواوة : 22

بلعباس : 08

بوردو : 07

البيبان (جبال) : 06

البيبان (مضيق) : 08

تافنة : 08

تقرت : 06

تلمسان : 08-14-22

تور : 07

تونس : 07

تيطوان : 79

جرجرة : 06

الجزائر : 02-06-07-08-13-14-15-16-19-22-23-27-28-30-
159-161-167

الحجاز : 73

الحضنة : 06

الخليج العربي : 75

دمشق : 07-22

السعودية : 75

سورية : 07-22

الشام : 22

الشرق (العربي) : 28

الشلف : 08

الصّومام : 06

عنابة : 22

فاس : 15

فرنسا : 12-19-34

فلسطين : 22

القاهرة : 27

قسنطينة : 22

القيروان : 15

كاليدونيا الجديدة : 11

الكويت : 75

لبنان : 22-79

متليلي : 06

المدينة المنورة : 173

مستغانم : 08

المشرق (العربي) : 28-45-69

مصر : 75

معسكر : 08

المغرب الأقصى : 27-79

المغرب (العربي) : 45-69-75

ندرومة : 171

الوادي الكبير : 06

ورقلة : 06

وهران : 22-25

قائمة المصادر والمراجع

أولا- المصادر

القرآن الكريم ، رواية ورش عن نافع ،

المطبعة الثعالبية بالجزائر : 1937 .

ابن الأثير (ضياء الدين) :

1- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج1 ،

قدّم له وحقّقه وشرحه وعلّق عليه : د. أحمد الحوفي

و د. بدوي طبانة ، منشورات دار الرفاعي بالرياض ،

ط02: 1983 .

ابن تيمية (تقي الدين) :

2- مجموعة الرسائل والمسائل ، ج1 ،

طبعة المنار : 1311-1349هـ .

ابن جني (أبو الفتح عثمان) :

3- الخصائـــــــــــــــــــــــــــص ، ج3 ،

تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن) :

4- تلبيس إبليس أو نقد العلم والعلماء ،

طبعة القاهرة 1340هـ .

5- صفة الصفوة ، ج1 ،

حققه وعلق عليه : محمود فاخوري ، مطبعة الأصيل ،

حلب ، ط01: 1969 .

6- صفة الصفوة ، ج2 ،

مطبعة النهضة الجديدة ، القاهرة ،

ط01: 1970 .

7- صفة الصفوة ، ج3 ،

حققه وعلق عليه : محمود فاخوري ، دار الوعي بحلب ،

ط01: 1973 .

8- صفة الصفوة ، ج4 ،

حققه وعلق عليه : محمود فاخوري ، دار الوعي بحلب ،

ط01: 1973

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

9- المقدمـــــــــــة ، ج2 ،

الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين) :

10- وفيات الأعيان ، ج2 ،

تحقيق : محمد محيي الدين ، القاهرة 1948 .

ابن حجر (العسقلاني) :

11- لسان الميـــزان ، ج4 ،

طبعة الهند : 1330هـ .

ابن رشيق (أبو علي الحسن) :

12- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج1 ،
حقّـقه ، وفصّـله ، وعلـّق حواشيه : محمد محيي الدين
عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ،
بيروت ، لبنان ، ط05: 1981 .

ابن عبد ربه :

13- العقد الفريد ، ج3 ،
تحقيق : محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة ،
القاهرة ، ط02: 1953 .

ابن عجيبة (أحمد بن محمد) :

14- إيقاظ الهمم في شرح الحكم ،
ط01: د.ت.

ابن عربي (محيي الدين) :

15- الفتوحات المكيـــــــة ، ج2 ،
طبعة بـــــــولاق 1876 .

16- فصوص الحكـــــــــم ،
طبعة الحلبـــــي 1966 .

ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحيّ) :

17- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج2 ،
دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :

18- الشعر والشعـــــــــــــــــــــــــــــــــراء ،

قدّم له : الشيخ حسن تميم ، وراجعه وأعدّ فهارسه :

الشيخ محمد عبد المنعم العريان ،

دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط03: 1987 .

ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن أحمد) :

19- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ،

وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله : الشيخ محمد بن

أبي شنب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1986 .

ابن النديم (محمد بن إسحق) :

20- الفهرســــــــــت ،

تحقيق : رضا- تجدد ، د.ط. ، د.ت.

ابن هشام (أبو محمد عبد الله) :

21- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ،

تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، د.ت.

ابن يعيش (موفـّق الدّين بن علي النحوي) :

22- شرح المفصـّل ، ج4 ،

مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د.ت.

الأصفهاني (أبو الفرج) :

23- الأغاني ، المجلدان : 14 /15 ،

تحقيق : عبد السّتار أحمد فرّاج ،

دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط06: 1983 .

الأصفهاني (أبو نعيـــم) :

24- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأجزاء : 10/8/7/6/5/2/1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط02: 1967 .

التنبكتي (بابا) :

25- نيل الابتهـــــــــــــاج ، دار الكتب العلمية ، لبنان 1951 .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) :

26- البيان والتبيين ، الجزآن : 2 / 3 ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط02: 1960 .

الجرجانـــــي (القاضي علي بن عبد العزيز) :

27- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيـــق وشـــــــرح : أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، القاهرة ، ط04: 1966 .

الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي) :

28- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، الأجزاء : 6 ، 8 ، 10، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

الرّاغب الأصبهاني (أبو القاسم حسين بن محمّد) :

29- محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشّعراء والبلغاء ، ج3 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان 1961 .

الرّمّانـــي (أبو الحسن علي بن عيسى) :

30- معاني الحروف ،

تحقيق وتعليق وتقديم : عبد الفتاح إسماعيل شلبي ،

دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.

السّلـّـمي (أبو عبد الرحمن) :

31- طبقات الصوفيـــــة ،

تحقيق : نور الدين شريبة ، ط. القاهرة 1953.

السّهروردي (شهاب الدّين أبو الفتوح) :

32- عوارف المعـــــــــــارف ،

دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط02: 1983 .

السّيوطي (جلال الدين) :

33- الإتقان في علوم القرآن ، ج1 ،

المكتبة الثقافية ، بيروت ، د.ت.

الشـّعراني (عبد الوهاب بن أحمد بن علي) :

34- الطبقات الكبرى ، ج1 ،

مطبعة صبيح ، د.ت.

الطّوسي (أبو نصر السّرّاج) :

35- اللـّمـــــــــع ،

تحقيق وتقديم : د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ،

دار الكتب الحديثة بمصر ، القاهرة 1960 .

الغبريني (أحمد) :

36- عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجايـــــــــــــــــــــــــــة ،

تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيـع ، الجزائر ، د.ت.

الغزالي (أبو حامد) :

37- إحياء علوم الدين ، ج02 ،

دار الثقافة ، الجزائر ، ط01: 1991 .

38- المنقذ من الضـــلال ، تعليق : محمد جابر ،

المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

قدامة بن جعفر (أبو الفرج) :

39- كتاب نقد النّـثـــــر ،

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 1982 .

القشيري (أبو القاسم عبد الكريم) :

40- الرسالة القشيرية في علم التصوف ،

دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان 1957 .

الكلابـــادي (أ بوبكر محمد) :

41- التعرّف لمذهب أهل التصوف ،

قدّم له وحققه وراجع أصوله : محمود أمين النواوي ،

مكتبة الكليات الأزهرية ، ط02: 1980 .

المقبلي (صالح) :

42- العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ ،

القاهرة 1328 هـ .

المقـــّري (شهاب الدّين أبو العباس أحمد) :

43- نفح الطيب الأندلس الرطيب ، الجزآن : 5 / 9 ،

تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1968 .

المكـــــودي (عبد الرحمن بن علي) :

44- شرح المكودي على ألفية ابن مالك ،

دار العهد الجديد للطباعة والمكتبة التجارية لمصطفى محمد ،

مصر ، د.ت.

النّاصـــــري (أبو راس) :

45- فتح الإله ومنّـته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته ،

حقّـقه وضبطه وعلّـق عليه : محمد بن عبد الكريم

الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1990 .

النهشلي القيرواني (عبد الكريم) :

46- الممتع في صنعة الشعـــــر ،

تحقيق : د. محمد زغلول سلام ،

منشأة المعارف بالإسكندرية ، د.ت.

اليافعي (عفيف الدّين) :

47- روض الرياحين في حكايات الصّالحين ،

المطبعة الميمنية بمصر 1307هـ .

ياقوت الحموي (أبو عبد الله شهاب الدّين) :

48- معجم الأدباء ، الجزآن : 1 / 7 ،

اعتنى بنسخه وتصحيحه : د.س. مرجليوث ،

المطبعة الهندية بالموسكى بمصر ،

ط02: 1923 .

ثانيا- المراجع

أ- العربيـــــة

إبراهيم (زكرياء) :

1- مشكلة البنيـــــــــــــة ،

دار مصر للطباعة ، 1976 .

الإبراهيمي (محمد البشير) :

2- عيون البصائـــــــــــــــــــــــــــــر ، ج2 ،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط02: د.ت.

د. ابن الشيخ (التلي) :

3- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة : 1830-1945 ،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1983 .

أبو بثـيـنـــة :

4- الزجل العربي ، ماضيه .. وحاضره .. ومستقبله ،

دار الهلال : يونيه 1972 .

أحمد (أحمد يوسف) :

5- فنان الشعب : محمود بيرم التونسي ،

دار النهضة العربية ، ط01: 1962 .

د. أحمد (محمد خلف الله) :

6- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقـــــــــــــــــده ،

معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ط02: 1970 .

د. إسماعيل (عز الدّين) :

7- الأسس الجمالية في النقد العربي ، عرض وتفسير ومقارنة ، دار الفكر العربي ، ط02: 1986 .

8- التفسير النفســـــــــــــــي للأدب ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، د.ت.

د. أنيس (إبراهيم) :

9- الأصوات اللغوية، دار النهضة العربية، القاهرة، ط03: 1961 .

10- في اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهـــــــرة ، ط03: 1965 .

د. بدوي (عبد الرحمن) :

11- شهيدة العشق الإلهـــــي ، نشر مكتبة النهضة ، د.ت.

بقطاش (خديجة) :

12- الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871 ، مطبعة دحلب ، الجزائر 92/02 .

بوعزيز (يحيى) :

13- ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة ، ط01 : 1980 .

14- ثـــــــــــــــــــــــورة 1871 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ت.

بو علي (الغوثي) :

15- كشف القناع عن آلات السّمـــــــاع ،

مطبعة جوردان ، الجزائر ، ط01: 1904 .

د. تليمة (عبد المنعم) :

16- مدخل إلى علم الجمـــــــــــــــــــال ،

منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1: 1976 .

د. التميمي (عبد الجليل):

17- بحوث ووثائق في التاريخ المغربي : 1816-1871 ،

ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط02: 1985 .

د. جبّور (عبد النور) :

18- نظرات في فلسفة العرب ،

بيروت ، ط01: 1945 .

الجمّـال (أحمد صادق) :

19- الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ،

الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط01: 1966 .

د. حسان (تمام) :

20- مناهج البحث في اللغـــــة ،

دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب 1974 .

حسان (عبد الحكيم) :

21- التصوف في الشعر العربي : نشأته وتطوره حتى آخر القرن

الثالث الهجـــــــــــــــــــــــــــري ،

مطبعة الأنجلو المصرية 1954 .

الفهارس

1. فهرس الآيات القرآنية
2. فهرس الأحاديث النبوية
3. فهرس القصائد الملحونة
4. فهرس الأعلام
5. فهرس الأماكن
6. قائمة المصادر والمراجع
7. فهرس المحتويات

فهرس الآيات القرآنية

نص الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
1- " .. وَأَخَافُ أَن يَأكُلَهُ الذِّيبُ .. "	يوسف	من 13	73
2- " قَالُوا لَئِنَ اَكَلَهُ الذِّيبُ .. "	يوسف	من 14	73
3- " .. وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّيبُ .. "	يوسف	من 17	73
4- " أُوْلَائِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ "	البقرة	86	141
5- " إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ .. "	المائدة	من 112	174
6- " فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ، وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً "	الكهف	من 110	179

7- " وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ "	الأعراف	من 142	180
8- " وَإِذَ اَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . قَالُوا بَلَـــــى "	الأعراف	من172	242-191
9- " وَرَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِـــــمْ .. "	الحديد	من 27	196
10- " فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ .. "	البقرة	من 115	213
11- " قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً . قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً "	آل عمران	من 41	213
12- " وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ "	طـــه	من 111	242

فهرس الأحاديث النبوية

نصّ الحديث	تخريجه	الصفحة
1- " .. أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ "	متفق عليه	164
2- " إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ عَامٍ مَنْ يُجَدِّدُ أَمْرَ هَذَا الدِّينِ "	رواه مسلم	220

د. حسن (عبد الكريم) :

22- الموضوعية البنيوية ، دراسة في شعر السياب ،

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ،

ط01: 1983 .

د. حسين (طه) :

23- من حديث الشعر والنثر ،

دار المعارف بمصر ، ط11: 1975 .

د. حلمي (محمد مصطفى) :

24- ابن الفارض والحبّ الإلهي ،

دار المعارف بمصر 1971 .

25- الحياة الروحية في الإســـــــــــــلام ،

الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، ط02: 1984 .

د. خرفي (صالح) :

26- الشعر الجزائري الحديث ،

المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 .

27- شعر المقاومة الجزائرية ،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ت.

28- شعراء من الجزائـــــــر ،

الحلقة الأولى ، نشر معهد البحوث والدراسات العربية ،

القاهرة 1969 .

د. خفاجي (محمد عبد المنعم) :

29- الأدب في التراث الصـــــوفي ،
مكتبة غريـــــــــــب ، د.ت.

د. دحو (العربي) :

30- بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية ، دراسة تاريخية فنية في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربيـــــــة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1986 .

31- الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة 1955-1962 ،
ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1988 .

32- الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقـــــــــــــــة الأوراس ، ج1 ،
المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائـــــر 1989 .

ذهني (محمود) :

33- الأدب الشعبي العربي ، مفهومه ومضمونه ،
دار الأدب العربي للطباعـــــــة 1972 .

رضـــــــا (علي) :

34- المرجع في اللغة العربية نحوها وصرفها ، ج1 ،
دار الفكـــــــــــــــر ، بيروت ، د.ت.

د. ركيبي (عبد الله) :

35- الشعر الديني الجزائري الحديث ،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط01: 1981 .

د. السامرائي (إبراهيم):

36- لغة الشعر بين جيلين ،

المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط02: 1980 .

د. سعد الله (أبو القاسم) :

37- الحركة الوطنية الجزائريـــة : 1900-1930 ، ج2 ،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط03: 1983 .

38- الحركة الوطنية الجزائريـــة : 1930-1945 ، ج3 ،

المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط03: 1986 .

د. السّعران (محمود) :

39- اللغة والمجتمـــــــــــــــــع ،

دار المعارف بالإسكندرية ، ط02: 1963 .

د. سلـّوم (تامر) :

40- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ،

دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية (سورية) ، ط01: 1983 .

السنوسي (محمد الهادي) :

41- شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1 ،

المطبعة التونسية ، ط01: 1926 .

شرف (محمد جلال):

42- دراسات في التصوف الإسلامي : شخصيات ومذاهب ،

دار النهضة العربية ، بيروت 1984 .

شرف الدين (أحمد حسين) :

43- لهجة اليمن قديما وحديثا ،

مطبعة الجيلاوي 1970 .

د. شلبي (سعد إسماعيل) :

44- الشعر العباسي ، التيار الشعبي ،

مكتبة غريب ، د.ت.

د. صالح (صبحي) :

45- دراسات في فقه اللغـــــــة ،

دار العلم للملايين ، بيروت ، ط08: 1980 .

الصلح (عادل) :

46- سطور من رسالـــــــــــــة ،

دار العلم للملايين ، بيروت 1966 .

د. ضيف (شوقي):

47- التطور والتجديد في الشعر الأموي ،

لجنة التأليف والترجمة والنشر : 1952 .

48- في النقد الأدبـــــــــــــــي ،

دار المعارف ، القاهرة ، ط05: د.ت.

د. عبد الرحمن (عائشة) :

49- لغتنا والحيـــــــــــاة ،

دار المعارف بمصر 1971 .

د. عبد المطلب (محمد) :

50- البلاغة والأسلوبيـــــــــــــة ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984 .

عدنان بن ذريل :

51- اللغة والبلاغـــــــــــــــة ،

منشورات اتحاد الكتاب العرب 1983 .

العسلي (بسّام):

52- محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية ،

دار النفائس ، ط02 : 1983 .

د. العشماوي (محمد زكـــي) :

53- الأدب وقيم الحياة المعاصـــــــــــــــرة ،

دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت 1980 .

عطار (أحمد عبد الغفور) :

54- قضايا ومشكلات لغويـــــــــــــة ،

الكتاب العربي السعودي ، تهامة ، جدّة ، ط01: 1982 .

د. عفيفي (أبو العلا) :

55- التصوف : الثورة الروحية في الإسلام ،

دار المعارف بمصر ، ط01: 1963 .

عفيفي (محمد الصادق) :

56- الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث ،

دار الكشاف ، بيروت ، ط01: 1969 .

العلوي (محمد الطيب) :

57- مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة

نوفمبـــــــــــــــــــــــــــــر 1954 ،

دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة 1985 .

علي (أسعد أحمد) :

58- فنّ المنتجب العاني وعرفانـــــــــــــــه ،

دار الرائد العربي ، بيروت ، ط02: 1980 .

عياد (أحمد توفيق) :

59- التصوف الإسلامي : تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ،

الجزآن : 1 2 ،

مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1970 .

د. فروخ (عمر):

60- التصوف في الإســــــــــلام ،

بيـــــــروت ، ط01: 1947 .

الفهري (عبد القادر الفاسي) :

61- اللسانيات واللغة العربيـــــــــــــــــــة ،

منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، د.ت.

قمـــــر (يوحنا) :

62- ابن الفـــــــــــــــــــــــــارض ،

المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط03: 1955 .

د. الكعاك (عثمان) :

63- العادات والتقاليد التونسيـــــــــــــــــــة ،

الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط02: 1981 .

ماسينيون وب. كراوس :

64- كتاب أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج ،

اعتنى بنشـــــــــــره بتصحيحه وتعليق الحواشي عليه :

لويس ماسينيـــــــــــــــون وب. كراوس ،

مطبعة القلم ومكتبة لاروز ، باريس 1936 .

ماسينيون و عبد الرزاق (مصطفى) :

65- التصوف ، كتب دائرة المعارف الإسلامية (16) ،

دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، ط01: 1984 .

د. مبارك (زكـي) :

66- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، ج1 ،

منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، د.ت.

67- النثر الفني في القرن الرابع ، ج1 ،

طبعة القاهرة 1934 .

د. محمود (عبد القادر) :

68- الفلسفة الصوفية في الإسلام : مصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحيـــــــــــــــــــــــــــــــاة ،
دار الفكر العربي ، د.ت.

د. مدكور (إبراهيم) / ضمن نخبة من الدارسين :

69- الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة : " دراسة مقارنة بين اسبينوزا وابن عربي فيمـــــا يخص وحدة الوجود " ،
دار الكتاب العربي ، القاهرة 1969 .

المدني (أحمد توفيق) :

70- كتاب الجزائـــــــــــــــــــــــــــــــر ،
المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ط02: 1984

د. مرتاض (عبد المالك) :

71- بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيـــــــــــــــدة " أشجان يمنيـــــــــــــــــــــــــــــــة " ،
دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط01: 1986 .

د. المسدّي (عبد السّـــلام) :

72- الأسلوبية والأسلـــــــــــــــوب ،
الدار العربية للكتاب ، ط02: 1982 .

73- النقد والحداثة مع دليل ببليوغرافـــــــــــــــــي ،
دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط01: 1983 .

د. منصور (عزّ الدّين) :

74- دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت ، ط01: 1985 .

د. ناصر (محمد) :

75- الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980 .

نجا (إبراهيم محمد) :

76- اللهجات العربيـــــــة ، مطبعة السّـعادة 1972 .

د. نصر (عاطف جودت) :

77- الرمز الشعري عند الصّوفيـــــــة ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط03: 1983 .

د. وافي (علي عبد الواحد) :

78- اللغة والمجتمـــــــــــع ، نهضة مصـــــــــر 1971 .

د. يالجن (مقداد) :

79- فلسفة الحياة الروحية : منابعها ومشاربها ونشأتها ونشأة التصوف والطرق الصوفيـــــــــــــــة ، دار الشُّـــــــــــــــروق ، ط01: 1985 .

ب- المترجمـة

آجيرون (شارل روبير) وآخرون :

1- تاريخ الجزائر المعاصرة : 1830-1976 ،

ترجمة : عيسى عصفـــــــــــــور ،

ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط02: 1982 .

بلاثيوس (أسين) :

2- ابن عربي : حياته ومذهبه ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ،

وكالة المطبوعات ، الكويت ، دار القلم ، بيروت ، لبنان 1979 .

دور (إليزابيت) :

3- الشعر كيف نفهمه ونتذوّقه ؟ ، ترجمة : د. محمد إبراهيم

الشـّـــــــــــــــــــــــــوش ،

منشورات فرانكلين ، بيروت- نيويورك 1961 .

سارتر (جان بول) :

4- ما الأدب ؟ ، ترجمة وتقديم وتعليق : د. محمد غنيمي هلال ،

دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، د.ت.

كولـــــــردج :

5- سيرة أدبية (النظرية الرومانطيقية في الشعر) ،

ترجمة : د. عبد الحكيم حســـــــــــــان ،

دار المعارف بمصر 1971 .

لاكوست (إيف) ، نوشي (أندري) ، برينان (أندري) :

6- الجزائر بين الماضي والحاضر : إطار نشأة الجزائر المعاصرة ومراحلها ، تعريب : رابح اسطمبولي ، المنصف عاشور ، مراد تفاحـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــي ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1984 .

ليقـــن (سمويل) :

7- البنيات اللسانية في الشعر ، ترجمة : الولي محمد والتوزاني خالـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــد ، منشورات الحور الأكاديمي ، مطبعة فضالة ، المغرب 1989 .

د. نصر (سيد حسين) :

8- الصّوفية بين الأمس واليوم ، ترجمة : د. كمال خليل اليازجي ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، لبنان ، ط01: 1975 .

نيكلســـــــــون (رينولد) :

9- الصوفية في الإسلام ، ترجمة : نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجـــــــــــــــــي 1951 .

10- في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ترجمة : د. أبو العلا عفيفـــــــــــــــــــــــــــــــــــــي ، ط. القاهرة 1956 .

هنـــــــري (لوفيغر) :

11- اللسان والمجتمع ، ترجمة : د. مصطفى صالح ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بسورية 1983 .

ج- الأجنبيـــة

Bardon Xavier :

1- Histoire nationale de l'Algérie. Paris,1886.

Bourgade, A.F. :

2- Association de Saint Louis ou croisade pacifique ayant pour but de répondre la civilisation chrétienne parmi les musulmans, Paris, S.d.

Delphin et L.Guin :

3- Notes sur la poésie et la musique arabes dans le Maghreb algérien. Paris, Leroux, 1886.

Girand (Pierre) :

4- Essais de stylistique, problèmes et méthodes, Paris, 1969.

Grussenmeyer :

5- Vingt cinq années d'épiscopat en France et en Afrique . Documents biographiques sur son éminence le Cardinal Lavigerie, t.I, 1881.

Jean Kohen :

6- Structure du language poétique, Flammarion, Paris,1966.

Jean (P.Richard) :

7- L'univers imaginaire de Malarmé, E.d.1961.

Jules.Tournier :

8- Le Cardinal Lavigerie et son action politique (1863-1892), Paris, 1913.

Léon Roche :

9- Trente deux ans à travers l'Islam, t.II, Paris,1887.

Louis.Rinn :

10- Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie (Alger1891).

11- Les grands tournants de l'histoire de l'Algérie (Alger1902).

Martin (C) :

12- Histoire de l'Algérie Française 1830-1962. Paris,1963.

Todorov (Tzvetan) :

13- Qu'est ce que le Structuralisme, Edits, Seuil, Paris, 1968 .

ثالثاً- القواميس والمعاجم

ابن منظور (محمّد بن جلال الدّين) :

1- لسان العـــــــــــرب ، الأجزاء : 6/4/3 ،

تحقيق : نخبة من الدّارسين ، دار المعارف ، د.ت.

أمين (أحمد) :

2- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ج1 ،

طبع لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة 1953 .

د. الحفني (عبد المنعم) :

3- معجم مصطلحات الصوفية ،

دار المسيرة ، بيروت ، ط01: 1980 .

رضا (أحمد) :

4- قاموس ردّ العامّي إلى الفصيح ،

مطبعة العرفان ، صيدا 1952 .

د. إدريـــــس (سهيل) :

5- المنهـــــــــل ، قاموس فرنسي عربي ،

دار الآداب ، بيروت ، ط20: 1998 .

د. عبد العال (عبد المنعم سيد) :

6- معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية ،

دار مكتبة الفكر ، طرابلس (ليبيا) ، ط02: د.ت.

7- معجم شمال المغرب : تطوان وما حولهـــــا ،

دار الكتـاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة 1968 .

نويهض (عادل) :

8- معجم أعلام الجزائـــــــــــــــر ،

مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ،

بيروت ، ط02: 1980 .

رابعاً- الرسائل الجامعية

حبّـــــار (مختار) :

1- الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني :

دراسة موضوعية وفنية

مخطوط رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس 1990-1991 .

المرجان (كاظم بحر) :

2- المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني،ج1(تحقيق) ،

مخطوط رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة 1975 .

خامساً- الدواوين والمجاميع الشّعرية وشروحها

ابن تونس (عدّة) :

1- ديوان آيات المحبين في مقامات العارفين ،

المطبعة العلاوية بمستغانم ، ط03: د.ت.

ابن عاشور (قدّور) :

2- ديوان قدّور بن عاشور ، جمع وتحقيق وإعداد :

محمد بن عمرو الزّرهونـــــــــــــي ،

إصدارات المكتبة الوطنية " الأدب الشعبي " ، ط01: 1996 .

ابن عربي (محيي الدين) :

3- ترجمان الأشـــــــــواق ،

دار صادر ، بيروت 1966 .

4- ذخائر الأعلاق : شرح ترجمان الأشواق ،

المطبعة الأنسية ، بيروت 1312هـ .

ابن عليوة (أحمد) :

5- ديوان العـــــــــــــــلاوي ،

المطبعة العلوية بمستغانم ، ط04: د.ت.

6- كتاب منهاج التصوف من كتاب الرسالة العلوية ،

المطبعة العلوية بمستغانم ، د.ت.

ابن الفارض (شرف الدين عمر) :

7- ديوان ابن الفـــــــــــــارض ،

دار بيروت للطباعة والنشر 1979 .

ابن يلس (محمد) :

8- ديـــــــــــــوان محمد بن يلس ،

مطبعة ابن خلدون ، ط02: د.ت.

أبو نواس :

9- ديوان أبي نـــــــــــواس ،

دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

البوزيدي (محمد) :

10- ديـــــــــــــوان محمد البوزيدي ،

المطبعة العلاوية بمستغانم ، ط04: د.ت.

البيضاوي (عبد الله) :

11- مطلع اليقين في مديح الإمام المبين ،

المطبعة العلوية بمستغانم 1941 .

الحلاج (الحسين بن منصور) :

12- ديوان الحلاج ، نشره لويس ماسينيون ،

الجريدة الآسيوية ، باريس ، المطبعة الوطنية :

جانفي- مارس 1931 .

الششتري (أبوالحسن) :

13- ديوان أبي الحسن الششتري ،

تحقيق : النشار ، طبعة الإسكندرية 1960 .

صونيك (Sonnek) :

14- الديوان المغرب في أقوال إفريقية والمغرب ،
تقديـــــــــــــــــم : أحمد الأمين ،
موفم للنشـــــــــــــــــر 1994 .

الفـــــــرزدق :

15- ديـــــــــوان الفرزدق ، مج2 ،
دار بيروت للطباعة والنشر 1980 .

قاضي (محمد) :

16- الكنز المكنون في الشعر الملحون ،
المطبعة الثعالبية ، الجزائر 1928 .

د. الملائكة (نازك) :

17- شظايـــــا ورمـــاد ،
دار العودة ، بيروت 1971 .

المنداسي (سعيد بن عبد الله) :

18- ديوان المنداسي (الشعبي) ، تقديم وتحقيق : محمد بخوشة ،
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ت.

19- ديوان المنداسي (الفصيح) ، تقديم : رابح بونار ،
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د.ت.

اليازجي (ناصف) :

20- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1 ،
دار بيروت للطباعة والنشر 1981 .

يلس (جلول) و الحفناوي (أمقران):

21- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 75/421 .

سادساً- المجلات والجرائد

أ- مقالات ورسائل باللغة العربية :

ابن باديس (عبد الحميد) :

1- " دعوة إلى الحسنى ، فهل من مجيب ؟ " ،

جريدة الشهاب : 1927/6/23 .

2- " الطريقة العلويـــــــــة " ،

جريدة الشهاب : 1927/5/20 .

الأميـــر (عبد القادر) :

3- رسالة إلى أعضاء حكومة " تور " بِـ " بوردو " ،

جريدة المبشّر، ع736: 1871/02/02 .

4- رسالة إلى القائم بأعمال القنصلية الفرنسية بدمشق ،

جريدة المبشّر ، ع754: 1871/6/08 .

د. أيوب (عبد الرحمن) :

5- " منهجية ابن خلدون في تحليل الشعر البدوي الهلالي " ،

الحلقة الأولـــــــــــــــى ،

مجلة الفكر (التونسية) ، ع07 ، س29: أفريل1984.

د. بسّايـــح (بوعلام) :

6- " الشاعر محمد بلخيـــــــــــــــر " ،

مجلة الثقافة ، ع92 ، س11: مارس-أفريل 1986 ،

ص ص07-18 .

د. بوعزيز (يحيى) :

7- " المجاعة بالجزائر أواخر عقد الستينيات من القرن 19 " ،
مجلة الأصالة ، ع33 ، س05: ماي 1976 .

8- " موقف وجهاء الإيالة الوهرانية من ثورة المقراني
والحدّاد عـــــــــــــــام 1871 " ،
مجلة الأصالة ، ع30/29 ، س05: جانفي-فيفري 1976 .

9- " وثائق جديدة عن محيي الدين بن الأمير عبد القادر
في ثورة 1871 وعن موقف أبيه والسلطات التونسية " ،
مجلة الأصالة ، ع38 ، س05: أكتوبر 1976 .

د. تركي (رابح) :

10- " علاقة العامية بالفصحـــــــــــــــى " ،
مجلة الأصالة ، ع25 ، س04: ماي-جوان1975 .

د. التميمي (عبد الجليل) :

11- " دور المبشّرين في نشر المسيحية بتونس : 1830-1881 " ،
مجلة الأصالة ، ع30/29 ، س05: جانفي -فيفري 1976 .

د. حاجيات (عبد الحميد) :

12- " سيدي محمد الهواري شخصيته وتصوفه "
مجلة الثقافة ، ع88 ، س15: يوليو-أغسطس1985 ،
ص ص77-88 .

د. حركات (إبراهيم) :

13- " الصّلات الفكرية بين تلمسان والمغرب " ،
مجلة الأصالة ، ع26 ، س04: جويلية-أوت 1975 ،
ص ص173-186 .

خشبـــة (سامي) :

14- " الحلاج المسلم المتمزّق بين السيف والكلمـــات " ،
الآداب، ع10 ، س17 : تشرين الأول 1969 ،
ص ص22-27 .

خلادي (عبد القادر) :

15- " أبو مديـــــــــــــــن الغوث "
مجلة الأصالة ، ع26 ، س04: جويلية-أوت 1975 ،
ص ص284-295 .

الزّاهـــــري :

16- " العليوي ليس بإلـــــــه " ،
جريدة البرق ، ع21: 1927/4/18 .

د. سعد الله (أبو القاسم):

17- "مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي: 1830-1854" ،
مجلة الثقافة ، ع79 ، س14: يناير-فبراير 1984 ،
ص ص55-94 .

18- " منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر " ،
مجلة الأصالـــــــــــــــة ،
ع15/14 ، س3: ماي-جوان-جويلية-أوت 1973 .

السلاتـــــــي (أحمد) :

19- " أعلام شعر المقاومة الشعبية " ،

مطبوعات المهرجان الوطني الأول للأغنية البدوية ،

مستغانم 1973 ، ص ص25-34 .

صليبا (جميل) :

20- " الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية " ، الجزآن 5 / 6 ،

المجلّـــــــــــــــــــــــــــد 20 ،

مجلة المجمع العلمي العربي، أيار-حزيران 1945 .

عبد الحميد (عرفات) :

21- " الحسين بن منصور الحلاج ونظرية الحلـــــول " ،

الآداب والتربيـــــــــــــــة (الكويت) ، ع3 ، 4 :

حزيران – كانون الأول 1973 ، ص ص303-313 .

د. عبد الظاهر (حسن عيسى) :

22- " عبد القادر الجيلاني ، إخلاص عميق وقدوة عالية وتأثير

واسع على الناس " ،

مجلة الدّوحة ، ع116:أغسطس1985 ، ص ص20-26 .

د. عمران (كمال) :

23- " في تحديد مفهوم الخطـــــــــــــــاب " ،

المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم ، ع28 ، س14: مارس 1995 .

فاضل (اكرم) :

24- " حياة الحلاج بعد موتـــــــــــــــــــــه "

المورد ، مج1 ، ع3 ، 4 : 1972 ، ص ص55-69 .

د. فروخ (عمر) :

25- " دور الآداب والفنون عموما والشعر والموسيقى خصوصا في تعزيز أخلاق أمة أو انحلالها ، وفي شحذ عزائمهـــا أو قتل روحهــــــــــــــــــــــــا " ،

مجلة الأصالة ، ع33 ، س05: ماي 1976 .

د. القابسي (نجاح) :

26- " المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي " مجلة الثقافة العربيـــة (الليبية) ،

ع05 ، س09 : مايو-أيار 1982 .

القاسمي (عبد الحفيظ) :

27- المشاريـــــع والأغـــــراض " ،

جريدة الرشاد ، ع05: 1938/6/22 .

كنّـــون (عبد الله) :

28- " أدب الفقهــــــــــــــــاء " ،

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج2 ،

مج41: أبريل 1966 .

د. هلال (عمار) :

29- " الهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية في المشرق العربي (1847-1918) " ،

مجلة الثقافة ، ع82 ، س14: يوليو-أغسطس 1984 .

ب- مقالات باللغة الفرنسية :

Berque, Augustin :

1- Un mystique moderne le cheikh benalioua, in Revue Africaine, vol.79 : 1936 .

Desparmet.J. :

2- La réaction linguistique en Algérie, Société de géograhie d'Alger, XXXVI.

Henri Masset :

3- Les études Arabes en Algérie (1830-1930), Revue Africaine, Vol.74 :1933, O.P.U., pp.208-248 et pp.458-505.

Mohammed Belhalfaoui

4- Littérature orale : Actes de la table ronde, juin1979, O.P.U., Alger1982.

Monteil,Vincent :

5- L'arabisation culturelle de l'Algérie, Preuves, (janvier,1964).

S.Ben Cheneb :

6- Chansons Satiriques d'Alger (1re moitié du XIV siècle de l'Hégire), Revue Africaine, Vol.74 :1933, pp.339-341.

فهرس المحتويات

المقدّمة أ-هـ

تمهيد حول : تاريخ مرحلة الدّراســـــة (1871-1954) 34-2

- ثورة 1871 : أسبابها وموقف بعض أعيان سكان الغرب منها - تصويرها في الشعر الملحون – نهايتهـــــــا .
- حركة التبشير وعلاقتها بالسلطة الفرنسية : التنصير والفرنسة - محاولة تفريغ الجمعيات الدّينية من محتواها .
- الهجرة الجزائرية وأسبابها .
- الصحافة الجزائرية ودور جمعية العلماء في الإصلاح التربوي والدّيني .
- انتفاضة الثامن من ماي 1945 وبداية الاستعداد لثورة الفاتح من نوفمبر 1954 .

الباب الأول : دراسة في الشّكل

الفصل الأول : التّشكيل اللغوي للمفردة

1. التشكيل الصّوتي للمفردة 68-37

- اللغة ودورها في صوغ النص الشعري .
- اللغة ليست ألفاظا جامدة بل هي لغة انفعال مرنة .
- القصيدة تشكيل لغوي .
- جوهر اللغة الشعرية وأهمية ملاءمة الشاعر بين ألفاظه ومعانيه .
- الفرق بين لغة الشعر ولغة النثر .

- أخص خصائص الخطاب الأدبي .
- أهمية اللهجة وأنها لا تقلّ دورا عن اللغة الفصيحة .
- الجهل بالنحو لا يقدح في الفصاحة ولا البلاغة .
- نماذج شعرية للدّراسة والتحليل .

2. التشكيل البنيوي للمفردة 79-69

- الكلام مخزون لغوي .
- علاقة المجتمع باللغة .
- حالات التغاير الملاحظة على المفردة :

1. الاستغناء ، في النطق عن بعض الحروف الأصلية .
2. إثبات حرف الهمزة في غير موطنه الأصلي .
3. تخفيف أسماء الإشارة .
4. الاسم الموصول الخاص " اللـّـي " .
5. أسماء الاستفهام .

3. طبيعة المفردة 99-80

- الإحصاء وأهميته في ضبط تردّد المفردات .
- نماذج شعرية للدّراسة والتحليل .

الفصل الثاني : البـُنـَى التركيبيـــــــة

I- مقياس التوزيع 125-101

- ماهية بنية النص .
- " التوزيع " ودوره في تمييز المؤلفات اللغوية .
- " الاستبدال " ودوره في تمييز عناصر اللغة التي لها طواعية ذلك فيما بينها .
- نماذج شعرية للدّراسة والتحليل .

II- الألفاظ والتراكيب واستخدامهما :

1.II- بحسب الاستعمال 131-126

- من مميزات الشعر الملحون :

1. تسكين المتحرّك . 2. تسكين آخر الكلمة .

3.حذف نون الأفعال الخمسة . 4. رفع المجرور

ونصبه وتسكينه . 5. حلول حروف بدل أخرى .

2.II- بحسب الترتيب والبنية الأساسة 134-132

- الأركان المؤسِّسة للجملة .

- الترتيب ، في العربية ، يقوم على :

1. الفعل والفاعل والمفعول به .

2. المبتدأ والخبر .

3. الموصوف والصفة .

الباب الثاني : دراسة في المضمون

مدخـــــــل : 161-136

- شعر التديّن واتخاذ الموعظة وسيلة فيه .

- شعر الزّهد بوصفه تجسيدا لتحقير الدّنيا

وتفضيل الآخرة - الفرق بين الزهد والتصوف

- بواكير الشّعر الصوفي - الطـّرق الصّوفية

والتصوّف في الجزائر .

الفصل الأول : المريديـــات 199-163

- تعريفها وأسباب وجودها .

- الفرق بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة .

- نماذج شعرية للدّراسة والتحليل .

الفصل الثاني : مدح الشّيوخ 242-201

- الشيخ والمشيخة لغة واصطلاحا صوفيا .
- منزلة الشيخ لدى المتصوّفة .
- نماذج شعرية للدّراسة والتحليل .

الخاتمة 245-243

الفهارس :

1. فهرس الآيات القرآنيـــة 248-247
2. فهرس الأحاديث النبوية 249
3. فهرس القصائد الملحونة 251-250
4. فهرس الأعـــــــلام 259-252
5. فهرس الأماكـــــــن 262-260
6. قائمة المصادر والمراجع 301-263
7. فهرس المحتويات 305-302